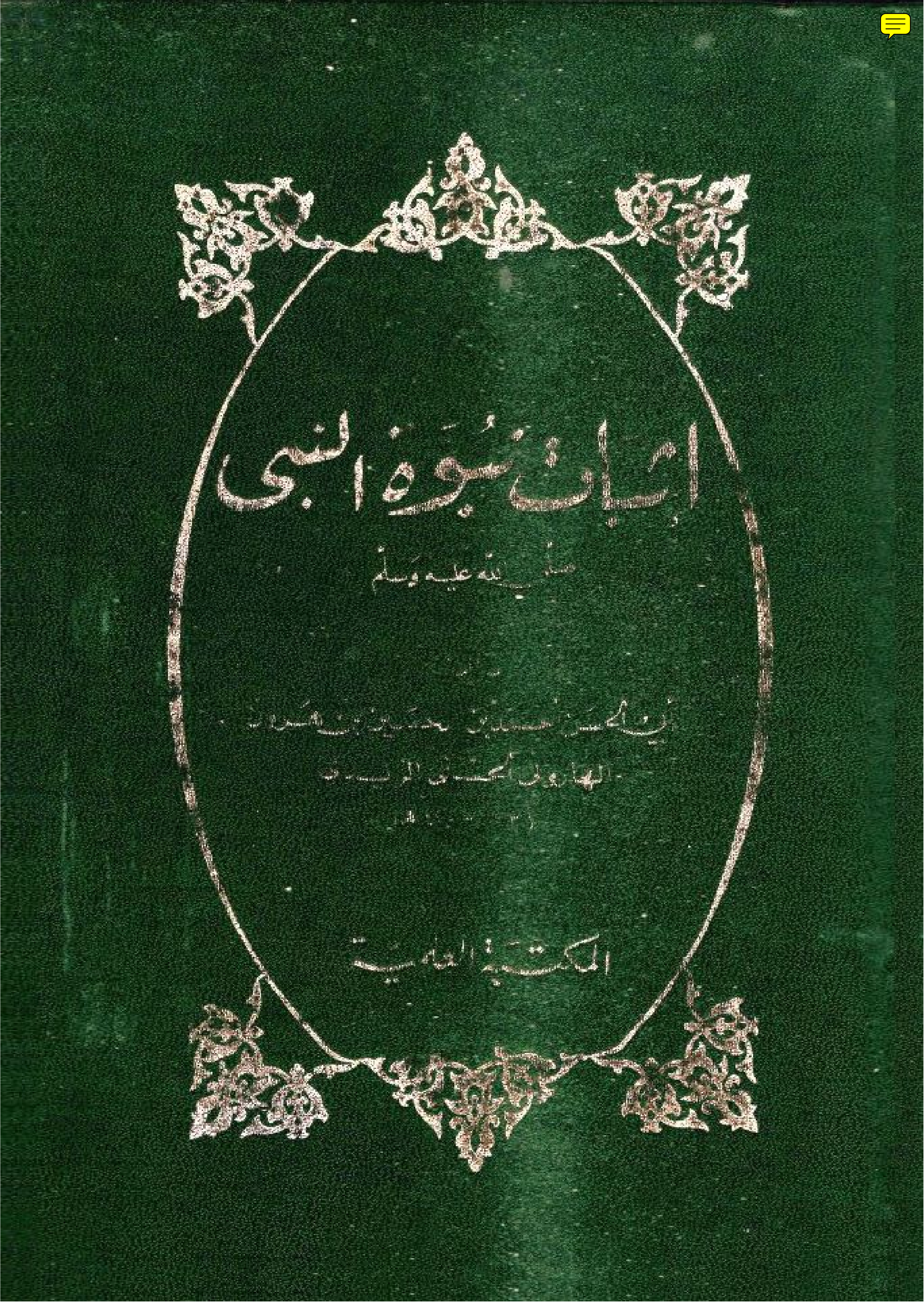

إثبات نبوة النبي
صلى الله عليه وسلم
المكتبة العلمية

إثبات نبوة النبي ﷺ

إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم

تأليف

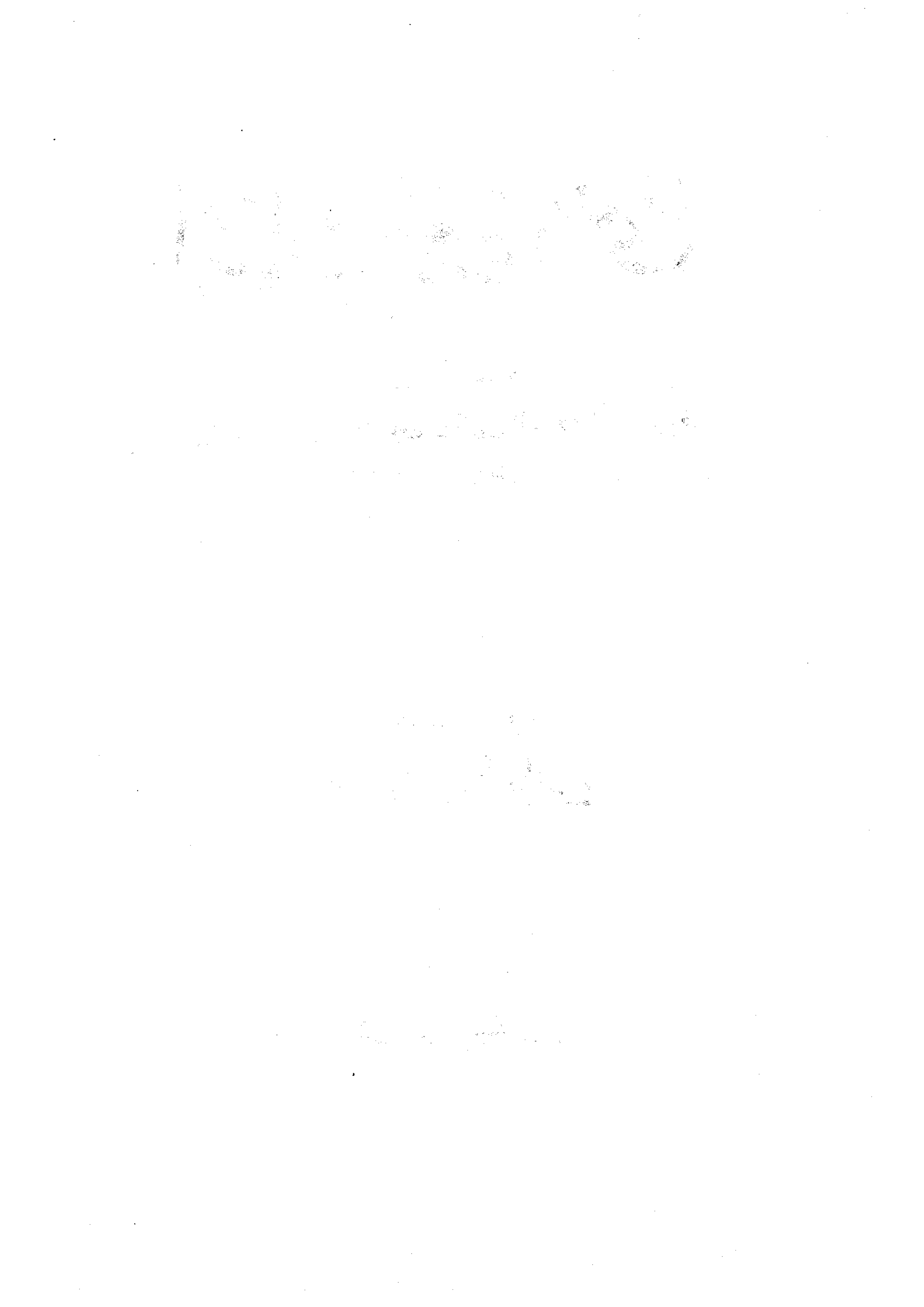
أبي الحسين أحمد بن الحسين بن هرون الهاروني الحسني الزيدي

(٣٣٣ - ٤٢١ هـ)

تحقيق

خليل أحمد ابراهيم الحاج

المكتبة العلمية



تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ، الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين المباركين . ومن تبعهم بخير واحسان الى يوم الدين .

أما بعد :

فهذا كتاب من أحسن الكتب التى تحدثت فى اثبات نبوة النبى محمد صلى الله عليه وسلم . قسمه مؤلفه — رحمة الله تعالى عليه — على : مقدمة وأربعة أبواب . وجعل الباب الأول فى ستة مواضيع .

ففى المقدمة : ذكر السبب فى بعثة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وبين أن الله تعالى أرسله رحمة للعالمين .

وفى الباب الأول ، وعنوانه : **البيان عن اعجاز القرآن** . تحدث فى الموضوعات الآتية :

١ — الكلام فى بيان : أن القرآن فى أعلى طبقات الفصاحة .

٢ — الكلام فى بيان : ماله كان معجزا ؟

٣ — الكلام فى بيان : أن القرآن يجب أن يكون معجزا ، اذا تعذرت معارضته .

٤ — الكلام فى بيان : أن الاعراض عن المعارضة انما كان للتعذر .

٥ — الكلام فى : أن معارضة القرآن لم تقع .

٦ — الكلام فى : أن التحدى قد وقع .

وفى **الباب الثانى** ، وعنوانه : **فى ذكر جملة من المعجزات التى وردت بها الأحاديث** ، بين أن الله تعالى أيد النبى محمدا صلى الله عليه وسلم

بمعجزات حسية كما أيده بالقرآن الكريم • ومن هذه المعجزات : اخباره عن أمور غيبية تحدث فى مستقبل الأيام ، وحدثت • مثل قول النبى صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر رضى الله عنه : « تقتلك الفئة الباغية » ومثل قوله لسراقة بن جعشم(1) : « كيف بك لو لبست سوارى كسرى » ؟

وفى **الباب الثالث** ، وعنوانه : **ذكر ما وجد فى الكتب المتقدمة من البشارات بالنبى صلى الله عليه وعلى آله** • بين أن التوراة التى بيد اليهود والنصارى الآن — وقد كان المؤلف فى القرن الرابع الهجرى — فيها نصوص تدل على النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وذكر كثيرا من النصوص وأحسن تفسيرها • وبين أن الأناجيل التى بيد النصارى الآن فيها نصوص تدل على النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وذكر كثيرا من النصوص وأحسن تفسيرها •

وفى **الباب الرابع** ، وعنوانه : **ذكر ما قيل فى أمره صلى الله عليه وعلى آله على سبيل التأكيد** • بين فيه : أن الله تعالى تعهد النبى محمدا صلى الله عليه وسلم بالتربية منذ الصغر ، فنشأه على مكارم الأخلاق ، وحميد الصفات ، فاجتمع فيه من الصفات الكريمة ما لم يجتمع فى انسان غيره ، وهذا يدل على أن الله قد أعده للنبوة ، وهيأه للرسالة منذ الصغر ، أى أن قرائن أحواله شاهدة على نبوته ، وهذا الدليل قد ساقه المؤلف ليؤكد به الأدلة السابقة الدالة بقوة على نبوته صلى الله عليه وسلم وهى : اعجاز القرآن ، والمعجزات الحسية ، وتبشير التوراة والانجيل به •

وهذا الكتاب : نطبعه على نسخة خطية وحيدة مصورة بالميكروفيلم فى معهد احياء المخطوطات العربية ، التابع لجامعة الدول العربية ، كتبت فى سنة احدى وخمسين وخمسمائة من الهجرة ، وقد صورها المعهد من دار الكتب بمصر •

ومؤلف هذا الكتاب : **هو السيد الامام المؤيد بالله ، أبى الحسين احمد بن الحسين بن هرون ، الهارونى الحسنى الزيدى** ، المولود

---

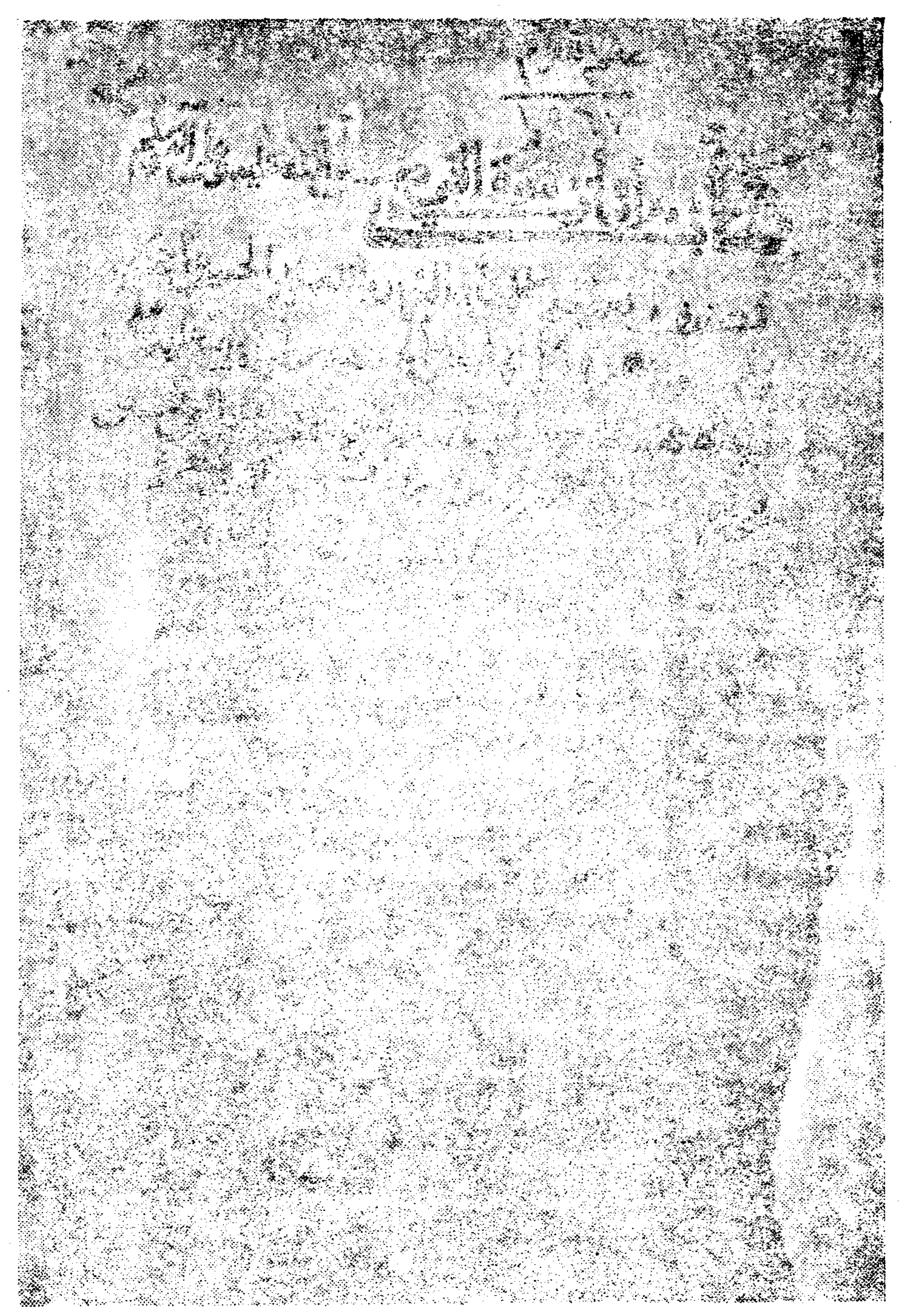
(1) المؤلف كتب : سراقة بن جعشم ، وفى كتب السيرة مكتوب : سراقة ابن مالك •

سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة من الهجرة ، والمتوفى سنة احدى وعشرين وأربعمائة من الهجرة •

و « **الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله** » « **ربنا آمنا بما أنزلت ، واتبعنا الرسول ، فاكتبنا مع الشاهدين** » « **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب** » •

٣٣٣ - ٤٢١ هـ = ٩٤٥ - ١٠٣٠ م .

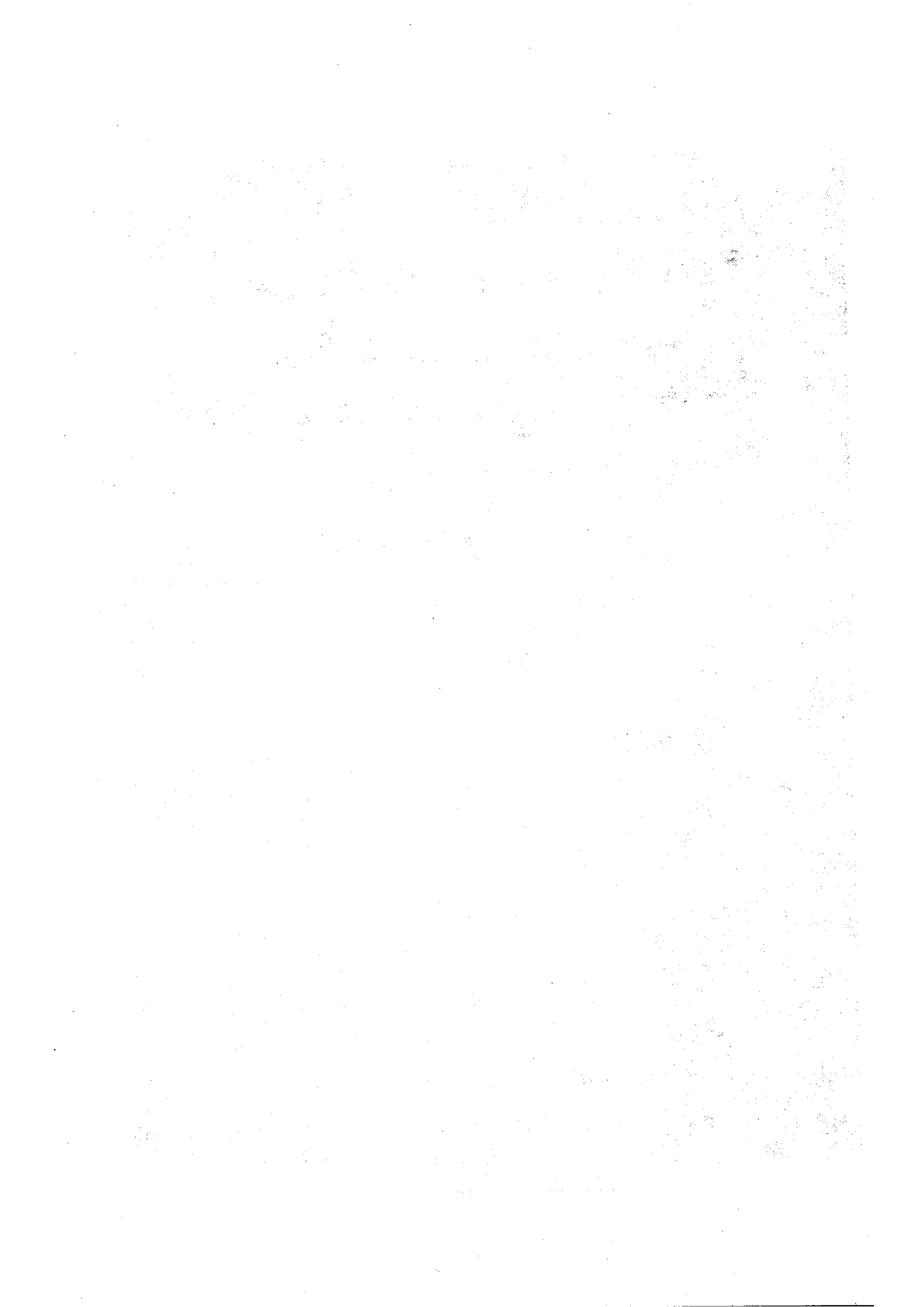
أحمد بن الحسين بن هارون الأقطع من أبناء زيد بن الحسن
العلوي الطالبي القرشي، أبو الحسين: إمام زيدي من أهل طبرستان مولده بها في
آمل ودعوته الأولى سنة ٣٨٠ بويع له بالديلم ولقب بالسيد المؤيد بالله ومدة
ملكه عشرون سنة وكان غزير العلم له مصنفات في الفقه والكلام منها
الأمالي (ط) و«التجريد» في علم الأثر و«شرحه» في أربعة مجلدات



(الصفحة الأولى من المخطوط)



(آخر صفحة من المخطوط)



مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذى الفضل والاحسان ، المخول من شاء من عباده سوابغ الانعام ، الذى هدانا لدينه ، وأوضح سواء السبيل ، بما نصب من أدلته الباهرة ، وحجته القاهرة « **ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة ، وان الله لسميع عليم** »(١) •

ثم أرسل الينا خير مولود ، وأكرم مبعوث : رحمة للعالمين ، للمتقين « **لينذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين** »(٢) فصلى الله عليه وعلى آله الطاهرين •

وانى لما رأيت غثاء الملحدة ورعاعها ، مجتهدة لادخال الشبه فى معجزات نبينا — صلى الله عليه وسلم — على أنفسنا ، وعلى من قادته يد الشقاء ، وسلكت به خبط العشواء ، من جهال العوام وأوباشها — فهم عن الحق اليقين معرضون ، وعن الصراط السوى ناكبون • قد استهواهم الشيطان ، واستزلهم الطغيان « **نسوا الله ، فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم الفاسقون** »(٣) يظنون بجهلهم وعماهم ، أنهم قد فطنوا لما جهله العلماء ، واستدركوا ما فات أهل الدين ، وتنبهوا عما غبى عنه فضلاء المسلمين •

كلا • بل هم صم عن الحق ، لا يسمعون • وبكم عند المحاج لا ينطقون • وعمى عن الرشاد لا يبصرون « **كلا • بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** »(٤) فان أرذلهم طبقة ، وأحسنهم طريقة ، وأقلهم شبهة ، وأعناهم على الله عز وجل ، وعلى رسوله صلى الله عليه ، وأعداهم للمسلمين ، وأحرصهم على التحيل لاطفاء نور الله المبين « **ويأبى الله**

---

(١) الأنفال : ٤٢
(٢) يس : ٧٠
(٣) الحشر : ١٩
(٤) المطففين : ١٤

الا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون »(٥) : من ينتسب منهم الى الباطن ، ويوهم أن وراء مافى أيدى المسلمين من حجج العقول والكتاب والسنة : حقيقة عرفوها وحصلوها ، وأنها ممنوعة أو مستورة ، الا عمن بذل لهم العهود والمواثيق ، فاذا كشفتها وجدت مخازى ، تلوح عن صفحاتها اثر الاستهزاء بمن يأخذ عنهم ، ويلوذ بهم ، يعدونهم حمرا مستنفرة • قد زينوا عندهم ارتكاب الفواحش ، وأباحوا لهم قطوف المظالم ، وأحلوا لهم شرب الخمور ، وترك الصلوات ، ومنع الزكوات **« قد ضلوا من قبل • وأضلوا كثيرا • وضلوا عن سواء السبيل »**(٦) •

ينفون الصانع ، وينكرون النبوات أجمع ، ويجحدون الشرائع • فيقولون : « لا يقال فى الله تعالى : موجود • ولا لا موجود » •

لا يعلمـون لجهلهم ، وفرط غباوتهـم : أن نفى النفى يقتضى الاثبات ، عند أهل اللسان • ألا ترى أنهم ان أرادوا أن يحققوا الاثبات قالوا : « لا غير » فيقـولون : « هو الرأى لا غير ، وهو (زيد) لا غير » • فيجمعون بين النفيين لتحقيق الاثبات • فاذا قالوا : موجود • فقد حققوا : أنه موجود • واذا قالوا : لا موجود • فقد نفوا ما أثبتوا ونقضوا ما قالوا • وليس ذلك مما يخفى •

لكن غرضهم فى ذلك : هو التوصل الى التعطيل ، ونفى الصانع • ويقولون : « أن النبى محمدا ــ صلى الله عليه ــ انما كان له التأييد ، دون ما سـواه من الوحى والارسال ، ونزول جبريل عليه السلام » ويشيرون بالتأييد الى المزية التى تحصل لكل من تقدم فى صناعة ، وبرع فيها ، من شاعر ، أو طبيب ، أو فقيه ، أو متكلم ، أو منجم • ويسمون الشرائع : نواميس • ويتوصلون الى جحدها وابطالها بادعاء : أن لكل شىء منها باطنا اذا عرف سقط وجوب العمل به • وينكرون البعث والنشور ، ويقولون : معنى القيامة : هو قيام محمـد بن اسماعيل ابن جعفر وخروجه •

ولولا أنه ليس غرضنا فى كتابنا هذا : وصف أقوالهم ، ونشر فضائحهم ، وبسط مقابحهم من فساد عقائدهم ، ومساوىء دفائنهم ،

---

(٥) التوبة : ٣٢ (٦) المائدة : ٧٧

مما بينه شيوخنا — رحمهم الله — من الأشراف والعلماء فى كتبهم المصنفة ، فى هتك أستارهم ، واذاعة أسرارهم ، نحو أبى زيد عيسى ابن محمد العلوى الحسينى ، وأبى جعفر بن قنة الرازى ، وأبى عبد الله ابن درام الكوفى ، وأبى أحمد بن عبدك الجرجانى ، وغيرهم — رحمة الله عليهم — •

ثم ذكرت مافى رسالتهم الموسومة بـ (البلاغ السابع) وربما سموها : (البلاغ الأكبر ، والناموس الأعظم) لكنى أحيل من أراد الوقوف على باطنهم وسرائرهم على هذه الكتب فانها مشهورة معروفة ، معروضة لمن أرادها •

وأرجع الى الغرض الذى قصدته : وهو أنى — رأيت أن أضع كتابا فى الابانة عن معجزات نبينا صلى الله عليه ، وما أيده الله تعالى به من الآيات البينات ، والدلائل الواضحات ، التى لا يذهب عنها من نصح نفسه ، ولم يتلعب بدينه ، مستعينا بالله تعالى ، ومستهديا له ، وراغبا اليه تبارك وتعالى : أن يعظم النفع لنا به ، والمثوبة عليه ، وأن يجعل سعيى فيه ، وكدحى له ، خالصا لوجهه •

هذا ، ولست أطمع أن أزيد على ما قاله السلف — رحمهم الله — فى هذا الباب • وانما أوجز من كلامهم — رحمة الله عليهم — ما جعله البسط متباعد الأطراف ، وأبسط ما جعله الايجاز خفى الأغراض •

وأنتم — رحمكم الله — اذا تأملتم أحوال الفترات التى كانت بين آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد — صلوات الله عليهم — ازددتم معرفة بحسن تدبير الله تعالى لخلقه فى ابتعاث الرسل ، وتجديد ما درس — أو كاد يدرس — من الشرائع والملل ، وأنه — جل وعز — ابتعث حين علم الصلاح فى الابتعاث ، ومد الفترة حين علم اقتران المصلحة بها ، لأن الفترة — على ما يقوله بعض أهل التواريخ ، على اختلاف بينهم فيه • والله أعلم بتحقيق ذلك — كانت بين آدم ونوح — صلى الله عليهما — سبع مائة عام(٧) •

---

(٧) فى التوراة العبرانية أن المدة من آدم الى نوح ١٥٨٦ سنة وفى السامرية ١٢٣٧ سنة وفى التوراة اليونانية ٢٢٦٢ سنة (انظر كتاب : اظهار

وانما كان كذلك — والله أعلم — وانما نقول على مقدار ما يلوح لنا ، ويبلغه مقدار أفهامنا — أن آدم عليه السلام أهبط الى الأرض — وهو أبو البشر وأول الانس — ولم يكن فى زمانه شىء من الكفر ، ولا عبادة الأصنام ، ولم يكن غيره وغير زوجته حواء وأولادهما — عليهم السلام — وكانوا يعرفون حاله فلم يكن فى أمره شك عندهم بوضوح أمره وظهور ديانته وقلة من بعث اليهم فامتد زمان الفترة • وكان بينهما — صلى الله عليهما — مع ذلك : شيث ، وادريس — عليهما السلام — فاستحدث الناس الكفر ، وعبادة الأصنام ، واتخذوا : ودا ، وسواعا ، ويغوث ، ويعوق ، ونسرا(٨) •

فابتعث الله سبحانه نوحا — صلى الله عليه — يدعوهم الى التوحيد ، وخلع الأصنام ، والأنداد ، ولبث فيهم كما قال تعالى : « **ألف سنة الا خمسين عاما** »(٩) فغرقهم الله تعالى بالطوفان حين علم أنهم لا يصلحون • ونجا نوحا — صلى الله عليه — ومن معه •

ثم كانت الفترة بين نوح وابراهيم — صلى الله عليهما — على ما يقوله المؤرخون نحو سبعمائة عام(١٠) • وانما كانت هذه المدة نحو تلك ، لأن الغرق أعاد حال نوح الى نحو حال آدم — صلى الله عليهما — وظهور أمره ، وابتداء البشر منهم • مع أنه لم يكن بقى من الكفار أحد ، الا أن الناس كانوا قد عرفوا عبادة الأصنام ، واتخاذ الأنداد من دون الله عز وجل • فأسرعوا بعده فى الكفر ، وعبادة الأصنام •

وكان الله تعالى قد بعث هودا الى عاد لما ازداد تمردهم • وصالحا — صلى الله عليهما — بعده الى ثمود •

=

الحق — للعلامة المجتهد الشيخ رحمت الله بن خليل الهندى ، مؤسس المدرسة الصولتية فى مكة ، والمدرس فى المسجد الحرام ، المولود سنة ١٢٣٣ هـ والمتوفى سنة ١٣٠٨ هـ) طبعة دار التراث العربى بمصر وانظر النص العربى الكامل للتوراة السامرية ترجمة الكاهن السامرى أبى الحسن اسحق الصورى — نشر دار الأنصار بمصر •

(٨) أشار الله الى ذلك فى القرآن الكريم فى سورة نوح — الآية : ٢٣

(٩) العنكبوت : ١٤

(١٠) الفترة من نوح الى ابراهيم فى التوراة العبرانية ٢٩٢ سنة وفى التوراة السامرية ٩٤٢ سنة وفى التوراة العبرانية ١٠٧٢ سنة •

ثم لما ازداد الكفر ظهورا وانتشارا ، ابتعث الله عز وجل ابراهيم — صلى الله عليه — فدعاهم الى الله تعالى ، وكسر أصنامهم ، ونبههم على خطأ أفعالهم ، وجدد لهم الذكرى ، وأنزل الله عز وجل عليه الصحف .

وبعث لوطا — صلى الله عليه — الى قوم مخصوصين ، حين ازداد عتوهم ، واستحدثوا من الفاحشه مالم يكن قبلهم .

ثم كانت الفترة بينه وبين موسى — صلى الله عليهما — نحو أربعمائه سنه[11] ، وانما كانت كذلك — والله أعلم — لأن ابراهيم — صلى الله عليه — مضى والكفر باق بينهم ، وظاهر ، ولم يكثر أتباعه الكثرة الظاهرة — على ما بلغنا — .

وبعث الله تعالى بعده : اسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وشعيبا — صلوات الله عليهم — قبل مبعث موسى — صلى الله عليه — وقيل : ان أيوب — صلى الله عليه — كان قد بعث قبل موسى .

فتغيرت أحوال بنى اسرائيل وقل قبول الناس للحق وظهر الكفر ، وبلغ مبلغا لم يكن بلغ من قبل . لأن فرعون اللعين ادعى الربوبية ، « فقال : أنا ربكم الأعلى »[12] واستعبد بنى أسرائيل فعظم الأمر وازداد الكفر ، واتسع الخرق ، ونسى الحق . فلذلك قصرت مدة هذه الفترة ، حتى بعث موسى — صلى الله عليه — مع تلك الآيات العظام ، كالعصا ، واليد البيضاء ، ومجاوزة بنى اسرائيل البحر بعد أن انفلق البحر « فكان كل فرق كالطود العظيم »[13] وتغريق فرعون اللعين ، ومن تبعه الى غير ذلك من الحجر الذى انفجرت منه العيون ، وما كان ظهر قبل ذلك من الجراد والقمل والضفادع والدم ، وغيز ذلك مما يطول ذكره .

---

(١١) الفترة من ابراهيم الى موسى ٤٠٠ سنة فى الاصحاح الخامس عشر من سفر التكوين و ٤٣٠ سنة كما جاء فى الاصحاح الثانى عشر من سفر الخروج .

(١٢) النازعات : ٢٣

(١٣) الشعراء : ٦٣

وأنزل عليه التوراة ، وبين فيها أحكام الحلال والحرام • وظهر أمره — صلى الله عليه — أتم الظهور • وانما كانت أعلام موسى — صلى الله عليه — أكثر ، وآياته أظهر ، لأن بنى اسرائيل كانوا — والله أعلم — أجهل الأمم ، وأغلظهم وأبعدهم عن الصواب ، وأبلدهم عن استدراك الحق • ألا ترى أنهم بعــدما جاوز الله تعــالى بهم البحر ، وغرق آل فرعون وهم ينظرون ، قالوا : لموسى — حين مروا على قوم عاكفين على أصنام لهم — : **« يا موسى اجعل لنا الهــا كما لهم آلهة »**(١٤) واتخذوا العجل وعبدوه وظنوا أنه الههم واله موسى ، وأنه نسى • فبحسب هــذه الأحوال اقتضت الحكمة : ايضاح الآيات والأعلام ، وتكثيرها لهم •

ثم بعث يشوع ويونس •

ثم بعث داوود — صلوات الله عليهم — وأنزل عليه الزبور •

وبعث سليمان — صلى الله عليه — وآتاه الملك ، مع تلك الآيات العظيمة •

ثم بعث بعدهم زكريا ويحيى — صلى الله عليهما •

فكانت الفترة بين موسى وعيسى — صلى الله عليهما — نحو ألفى سنة(١٥) ، لعظم آيات موسى ، وعظم الكتاب الذى أنزل معه ، ولمــا بعث بينهما من الأنبياء — صلوات الله عليهم — وهذه المدة أطول المدد التى كانت بين من ذكرنا — عليهم السلام — •

ثم لمــا تزايد الكفر ، وتغيرت أحــوال بنى اسرائيل ، وشاع الالحاد بالفلاسفة ، بعث الله تعالى عيسى — صلى الله عليه — وبقى فيهم ما بقى • وقد أكرمه الله تعالى ورفعه اليه ، ثم كانت الفترة بينه وبين نبينا محمد — صلى الله عليه وعلى آله — نحو ستمائة عام(١٦) •

---

(١٤) الأعراف : ١٣٨

(١٥) فى كتب التواريخ المسيحية أن المدة بين موسى وعيسى عليهمــا السلام ألف وخمسمائة وواحد وسبعون سنة •

(١٦) المدة بالتحديد خمسمائة وسبعون سنة وفى رواية خمسمائة وواحد وسبعون سنة •

فكانت هذه المدة أوسط المدد • وذلك — والله أعلم — لأن حجج الله تعالى كثرت فيها لبقاء التوراة ، والزبور ، ونزول الانجيل • ومع ذلك كثر الضلال ، وقيل فى المسيح — صلى الله عليه — قولان عظيمان • أحدهما : ما قالت اليهود[١٧] • والثانى ما قالته النصارى[١٨] •

ثم ابتعث الله عز وجل النبى محمداً — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — وختم به الرسالة ، ونحن من مبعثه على نحو من أربع مائة عام[١٩] ، فدل ذلك على قرب الساعة ، وأزف القيامة ، وتحقيق ذلك قول الله تعالى : « اقترب للناس حسابهم • وهم فى غفلة معرضون »[٢٠] وقوله : « اقتربت الساعة ، وانشق القمر »[٢١] وقول النبى — صلى الله عليه — : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بأصبعيه •

فانظروا رحمكم الله فى حسن نظر الله — عز وجل — لعباده ، بما ذكرناه ، واعتبروا به ، واستعدوا للدوام ، والبقاء • فلها خلقتم • فكأن الواقعة قد وقعت ، والحاقة قد حقت ، « **فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير** »[٢٢] ولا يصدنكم عنها الشيطان ، وأتباع الشيطان ، كما قال تعالى : « **ان الساعة آتية أكاد أخفيها • لتجزى كل نفس بما تسعى • فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها ، واتبع هواه ، فتردى** »[٢٣] وفقنا الله واياكم ، لطاعته ، واتباع مرضاته •

---

(١٧) قول اليهود هو ما حكى القرآن : « **وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما ، وقولهم : انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ٠٠٠ الخ** » (النساء : ١٥٦ ، ١٥٧) •

(١٨) قول النصارى هو : ١ — الأرثوذكس يقولون : ان عيسى هو الله • ٢ — والكاثوليك والبروتستانت يقولون : ان عيسى اله من آلهة ثلاثة • وفى القرآن الكريم يقول الله عنهم : « **لقد كفر الذين قالوا : ان الله هو المسيح ابن مريم** » — « **لقد كفر الذين قالوا : ان الله ثالث ثلاثة** » (المائدة : ٧٢ — ٧٣) •

(١٩) هو الزمن الذى كان فيه مؤلف الكتاب • وفى زمنى هذا نحن فى سنة ألف وثلثمائة وتسعة وتسعين من الهجرة الموافق سنة ألف وتسعمائة وتسعة وسبعين من الميلاد •

(٢٠) أول الأنبياء •

(٢١) أول القمر •

(٢٢) الشورى : ٧

(٢٣) طه : ١٥ ، ١٦

وأقدم أمام الغرض : فصلا أذكره من قبل علمـاء أهل البيت ـ عليهم السلام ـ وهو : أن الله تعالى لمـا بعث موسى ـ صلى الله عليه ـ بعثه بالآيات التى بهرت ، ما كان هى ولوع الناس به فى ذلك الزمان من السحر والتمويهات ، وأتاهم من العصى واليد البيضاء ، وفلق البحر ، ونحو ذلك ، مما لا تبقى معه شبهة فى أن ذلك ليس من السحر فى شىء . اذ كان أولئك به أعرف ، وبالفصل بين السحر وبين ما ليس بسحر ، أعلم . لعلمهم بمبلغ قوة السحر ، وغاية أمره .

ولمـا بعث الله سبحانه المسيح ـ صلى الله عليه ـ آتاه من الآيات التى بهرت ما كان ولوع الناس به فى ذلك الزمان من الطب ، فأيده ـ سبحانه ـ باحياء الموتى ، وابراء الأكمه ، والأبرص ، لئلا تبقى شبهة لأحد منهم ، لأنهم كانوا أعرف الناس بمبلغ قوة صناعة الطب ، ومنتهى غايته . وما يكشف لهم من الأمر ما عساه كان لا ينكشف لغيرهم فى تلك المدة اليسيرة[٢٤] .

ولمـا بعث الله تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه فى قوم[٢٥] هم الغاية فى الفصاحة والبلاغة ، والنهاية فى البيان ، والسلاقة . اذ حظ العرب من ذلك أوفر الحظوظ ، ولهم منه ما ليس لغيرهم من الأمم ، فأيده سبحانه بالقرآن ، وجعله معجزا له ، لأنهم يعرفون من حاله ، مالا يعرف غيرهم ، ولأنهم اذا عجزوا عن معارضته ، لم تبق شبهة فى أن غيرهم أعجز ، وأعجز . ومع ذلك لم يخله ـ عز وجل ـ من سائر المعجزات على ما نبينه من بعد . بل كثر ذلك ، وتواتر ، حتى لم يبق فى أمره شبهة لمنصف .

والحمد لله على نعمه السابغة ، ومنحه البالغة .

---

(٢٤) كان علماء اليهود فى زمن المسيح عليه السلام يوهمون الناس أنهم بواسطة تسخير الجن بالعزائم والرقى والتفل على العاهات يستطيعون الشفاء من الأمراض ، وقد صدقهم بعض الناس ، فكان المسيح يفعل ما يشفى من الأمراض بواسطة الدعاء الى الله ـ وكانت معجزاته على هذا من جنس ما برع فيه العلماء ـ كما اشتهر عنهم ـ ولقد اتهموه بأنه يشفى بواسطة استخدام (بعل زبول) رئيس الشياطين . (انظر انجيل متى) .

(٢٥) المؤلف بهذا يوهم أن اعجاز القرآن للعرب وحدهم من دون الناس ، وقد صرح فى موضع آخر من كتابه هذا بأن اعجاز القرآن للعرب وللعـالم ولعصر النبوة ولجميع العصور . وتصريحه هذا هو الحق .

الباب الأول

البيان عن إعجاز القرآن

ان سأل سائل ، فقال : ما الدليل على أن القرآن معجز ؟

قيل له : الدليل على ذلك : أن النبى ــ صلى الله عليه ــ ادعى النبوة ، وأتى بالقرآن ، وادعى أنه معجــز قد أنبأه ــ عز وجل ــ به ، وجعله دلالة على صحة دعواه ، وبرهانا على صدقه ، وتحدى به العرب قاطبة ، وقرعهم بالمعجز عن الاتيــان بمثله ، بل بسورة مثله ، وفيهم الخطباء ، والشعراء ، والبلغاء ، وهم الغاية فى البيان ، وأولو المعرفة بمواقع الكلام وأجناسه وأساليبه من المنثور والمنظوم ، ولهم العــادة المشهورة فى التفاخر بالبلاغــة والفصاحة ، والمعــرفة بطرق المعارضــات ، ومزايا المخاطبات مع ما كانوا عليه من الحمية والأنفة والعصبية ، ومع شــدة حرصهم على تكذيبه ، وتوهين أمره ، وابطال دعواه ، حتى بذلوا لذلك ما عز وهان من النفس فما دونها ، وهو ــ صلى الله عليه ــ يتحداهم ، ويقرعهم بالعجــز ، ويدعى أنه حجتــه وبينته ، ويذم مع ذلك أديانهم ، ويسب آلهتهم التى اتخذوها من دون الله عز وجل ، ويدعوهم الى طاعته ، والتصرف على أمره ونهيه ، واستمر على ذلك زمان بعد زمان فلم يعارضوه ، وعدلوا الى الحرب التى هى أشــق فقاتلوا حتى قتلوا ، وقتلوا ، فــدل ذلك : على أن عدولهم عن معارضة القرآن لم يكن الا لتعذره عليهم ، اذ لا يجوز على العقلاء اذا حاولوا أمرا أن يعدلوا لمحاولته من الأسهل الى الأعضل ، ومن الايسر الى الأعسر ، اذا كانوا متمكنين منهما ــ واذا ثبت تعذرها[1] عليهم ثبت انها على غيرهم أشد تعذرا ،

---

(١) يقصد : المعارضة ،

والمعجز هو الأمر الذى يتعذر مثله على جميع البشر ، فثبت أنه معجز على ما قلناه ، وهذه الدلالة مبنية على أن التحدى بالقرآن قد وقع ، وأن المعارضة لم تقع ، وأن السبب الذى من أجله لم تقع هو التعذر • وأن التعذر متى صح صح كونه معجزا •

ونحن نبين ذلك فصلا فصلا ، ان شاء الله سبحانه •

الـــكلام فى أن التحـــدى قد وقع

ان قيل : انكم بنيتم دلالتكم هذه على أن النبى ــ صلى الله عليه ــ تحدى العـــرب بالقرآن ، فدلوا عليه ، وبينوه ، ليستتب غرضـــكم ، ويتم ما ذكرتموه •

قيل له : قد ذهب كثير من العلماء ، ومجيدو العلم ، بأنه صلى الله عليه تحدى به ضرورة ، كالعلم بأنه ادعى النبوة ، وأتى بالقرآن ، وان كان العلم بهذين أجل من العلم بالتحدى •

قالوا : ولا يمتنع فى العلمين ، وان كانا ضروريين أن يكون أحدهما أجلى ، والآخر دونه فى الجلاء • ونحن لا نذكر هذه الطريقة ، الا أنا لا نقتصر عليها ، ونوضح الأمر فيه ايضاحا نرجو أن تزول معه الشبهة •

وان الخبر اذا كان فى الأصل قويا ، وموجبا للعلم لا يمتنع مع تطاول المدة ، وتراخى الزمان أن يعرض فيه بعض الضعف ، ســـيما عند من يقل نظره فى الأخبار ، وسماعه لها • وقد كان الأمر فى التحدى ظاهرا فى الأعصار السالفة ، حتى لم يبلغنا عن مخالف الاسلام من ملحد أو متهود أو متنصر انكاره ، حتى حدث بالآخرة قول بلغنا عن بعض الملحدة والمتهودة•وهو أنهم قالوا : لم يحصل لنا العلم بأن النبى ــ صلى الله عليه ــ تحدى به • ولظهور الأمر فيه حقق العلماء القول فيه •

فهـــذا الجاحظ مع بســـطه الكلام فى كتاب **(الفرق بين النبى والمتنبىء)** حقق القول فى التحدى لأنه رأى أن يتعذر أن ينكره منكر • وهذا ابن الروندى(٢) لمـــا صنف كتابه الموسوم بـــ **(العزيز)** واجتهد فيه وقعد ، وأورد الغث والسمين فى الطعن على نبوة نبينا محمد ــ صلى الله عليه ــ وأنكر كثيرا من روايات المسلمين ، لم ينكر التحدى وانما

---

(٢) من كلام ابن الراوندى :

كم عالم عالم أعيت مذاهبة وجاهل جاهل تلقـــاه مرزوقا
هـــذا الذى ترك الأوهام حائرة وصير العـــالم النحرير زنديقا

تكلم فيما تكلم مع تسليمه ، ولم ينكر ذلك الا لوضوح الأمر فيه ، وأنه استحيا لنفسه ، أن تبلغ صفاقة وجهه الى انكاره • ولهذا قال فى الكتاب المسمى بـ (**الزمرد**) : **« وقد أطنب محمد — يعنى النبى صلى الله عليه وعلى آله — فى الاحتجاج لنفسه بالقرآن ، وبعجز الخلق عنه ، ولم يقل ذلك الا لشهرة الأمر فيه وبلوغه فى الطعن »** •

ونعود الى ما وعدنا به من الزيادة وايضاح ذلك فنقول : قد ثبت أن النبى — صلى الله عليه — لما أتى بالقرآن كان يقرأ على المسلم والكافر ولا يكتم أحدا ممن قرب منه ، أو بعد عنه • وفى القرآن تحد كثير ظاهر ، **ففى ستة مواضع منه قد تحدى حتى لم يبق للشبهة فيه موضع ، وفى مواضع أخر نبه على أنه يتحداهم ودل عليه ، وان لم يكن لفظ التحدى ظاهرا فى تلك الآيات ، وهذا كثير يطول ذكره ، واحصاؤه** •

فأما المواضع الستة :

فأحدها : فى السورة التى يذكر فيها البقرة ، وهو قوله : **« وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا • فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله • ان كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة • أعدت للكافرين »**(٣) فانظروا رحمكم الله : هل يجوز أن يكون فى التحدى والتقريع قول أشفى من هذا ، وأوضح منه ، وأدعى لأعدائه الى الاهتزاز للاتيان بمثله لولا تعذره بها لأنه تعالى قال : **« قل فأتوا بسورة من مثله »** وهذا كاف فى التحدى • ثم قال : **« وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين »** فى انكاركم أنه من عند الله ، وهذا أيضا تحد ثان • ثم قال : **« فان لم تفعلوا ولن تفعلوا »** تحد رابع مع أنه خبر عن المستقبل • ومثله لا يجوز أن يقع من العاقل اذ لا يأمن أن يفعلوا ذلك فيظهر كذبه ، فدل ذلك على أنه كان من عند علام الغيوب •

والموضع الثانى : فى السورة التى يذكر فيها يونس — صلى الله عليه — وهو قوله عز وجل : **« وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل الكتاب لا ريب**

---

(٣) البقرة : ٢٣ ، ٢٤

فيه من رب العالمين • أم يقولون : افتراه • قل : فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله ، أن كنتم صادقين »(٤) فان قوله : « **وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله** » تحد بهذا وأنه لا يأتى به أحد الا من عند الله • وفيه أيضا مع أنه تحد : خبر ، لا يقع مثله الا من عند علام الغيوب • وقوله : « **قل : فأتوا بسورة من مثله** » تحد ثان ظاهر ، لا مرية فيه ، وكذلك قوله : « **وادعوا من استطعتم من دون الله** » تحد ثالث •

والثالث : فى السورة التى يذكر فيها هودا — صلى الله عليه — وهو قوله عــز وجــل : « **أم يقــولون افتراه • قل : فأتوا بعشر ســور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ، أن كنتم صادقين • فان لم يستجيبوا لكم ، فاعلموا : انما أنزل بعلم الله • وأن لا اله الا هو ، فهل أنتم مسلمون »**(٥) فكان قوله عز وجل : « **قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات** » تحديا ظاهرا ، وتقريعا بالغا • انه عز وجل فسح لهم فى المعارضة ، وان كانت الأقاصيص التى يوردونها قد اقتربت لأنهــم كانوا يحتجون عليه — صلى الله عليه — بأنه كان يعرف من أخبــار الأمم وأيامها وأقاصيصها مالا يعرفون ، فأدحض الله تعالى حجتهم ، وكذب قولهم • وفضحهم بقوله تعالى : « **فأتوا بعشر سور مثله مفتريات** » ودل ذلك : على أن الاعجاز تعلق بنظمه ، وان كان أيضا متعلقا بمعانيه ، وقوله : « **وادعوا من استطعتم من دون الله** » تحد ثان • لأنه اخبار عن أن أحدا من دون الله لا يأتى بمثله • قال : « **فان لم يستجيبوا لكم ، فاعلموا انما أنزل بعلم الله** » وكان هذا تحديا ثالثا ، لأن جعل حجته فى أنه أنزل بعلم الله : تركهم الاستجابة الى اتيان عشر سور مثله • فهل يكون فى التحدى أبلغ من هذا ؟ وقوله عز وجل : « **فهل أنتم مسلمون** » أيضا يتضمن معنى التحدى لأنه دعاهم الى الاسلام لظهور عجزهم •

والموضع الرابع : فى السورة التى يذكر فيها بنى اسرائيل ، وهو قوله : « **قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن**

---

(٤) يونس : ٣٧ ، ٣٨

(٥) هود : ١٣ ، ١٤ وانظر الآية : ٣٥

لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »(٦) فانظروا رحمكم الله ، فهل يكون فى التحدى شىء أبلغ منه ، واخباره عز وجل : **« لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن »** دليل : على أنه خبر من عند علام الغيوب لأن الانسان لا يعلم ما يكون بعده ، والعاقل لا يرضى لنفسه أن يخبر خبرا ، لا يأمن أن يقع غيره على خلاف ما أخبر ، فيظهر كذبه عند أوليائه وأعدائه ، سيما اذا كان أمره مبنيا على الصدق ، وبأن أعظم ما يرميه به أعداؤه : أنه كاذب فى دعواه . فوضح لما بيناه : أنه صدر عن العالم بما كان وبما يكون ، وهو الله رب العالمين . وهذا مما يمكن أن يعد دلالة برأسها ، وسنذكرها وما يوضحها من بعد ، بعون الله تعالى .

والموضع الخامس : فى السورة التى يذكر فيها القصص . وهو قوله تعالى : **« قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ، ان كنتم صادقين ، فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ أن الله لا يهدى القوم الظالمين »**(٧) كان قوله عز وجل : **« قل فأتوا بكتاب من عند الله »** تحديا ظاهرا . وقوله : **« فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم »** تحد ثان . لأنه قرعهم بترك الاستجابة الى ذلك ، ودل بذلك على أنهم يتبعون أهواءهم ، وقوله : **« ومن أضل ممن اتبع هواه »** تحديا ثالثا ، لأنه ذمهم ونسبهم الى الضلال لاتباعهم الهوى الذى جعل تركهم الاستجابة الى الاتيان به علما عليه ، وقوله : **« ان الله لا يهدى القوم الظالمين »** فى هذا الموضع أيضا فيه معنى التحدى لأنه أخبر ان الله لا يهديهم .

والموضع السادس : فى الطور حيث يقول : **«أم يقولون تقوله . بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين »**(٨) وكان هذا تحديا ظاهرا .

فأما المواضع التى تتضمن معنى التحدى ولو لم يكن اللفظ لفظ

---

(٦) الاسراء : ٨٨
(٧) القصص : ٤٩ ، ٥٠
(٨) الطور : ٣٣ ـ ٣٤

التحدى . فكثير كقوله تعالى : **« أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم »**(٩) وقوله : **« ألر . كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير »**(١٠) وقوله : **« ألر . كتاب أنزلنـــاه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور »**(١١) وقوله : **« ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى »**(١٢)وقوله : **« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله »**(١٣) وقوله بعد آية التحدى : **« أفأنت تسمع الصـــم ولو كانوا لا يعقلون »**(١٤) وقوله : **« أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون »**(١٥) لأن ذلك يحرك الطبع ، ويقوى الداعى الى التحكك والمعارضة . ونظائرها كثير .

فان قيل : دلوا على أن هذه الآيات هى من القرآن الذى تلاه النبى ــ صلى الله عليه ــ على الناس وأنها ليست زيادة فيه .

قيل له : من العلماء من رأى أن العلم بكل آية من القرآن ، مما أتى به النبى ــ صلى الله عليه ــ علم ضرورى ، كما أن العــلم بجملته ضرورى . قال : لأن القرآن كله آية آية ، فلو لم يكن العلم بكل آية علما ضروريا ، لم يكن العلم بجميع القرآن ضروريا . لكنا لا نقتصر على هذا القدر . ونوضح الكلام فيه فنقول :

لا اشكال ، أن هذه الآيات كانت كلها فى المصاحف التى كتبت أيام عثمان وتلك المصاحف كتبت بمشهد أقوام لا يجوز التواطىء عليهم لكثرتهم ، وفيهم الحفاظ ، منهم من كان يعرف الفرق بين ما هو من القرآن ، وما ليس من القرآن ، بل كان أكثرهم ــ والله أعلم ــ بهذه الصفة . كما أن عامة المسلمين اليوم وان لم يكونوا حفاظا ، يفصلون بين ما هو من القرآن وما ليس من القرآن . فلم ينقل عن أحد أنه تكلم فى ذلك ، وأنكر معرفتهم ، كما نقل ما كان من ابن مسعود فى (المعوذتين) وفى آى من سورة (القنوت) ومن عمر فيما ذكره من (الرحمن) ومن

---

(٩) العنكبوت : ٥١
(١٠) أول هود .
(١١) أول ابراهيم .
(١٢) الرعد : ٣١
(١٣) الحشر : ٢١
(١٤) يونس : ٤٢
(١٥) يونس : ٤٣

عائشة فيما ذكر من (الرضاع) وغير ذلك مما جرى مجراه ، فلولا أن هذه الآيات بان كونها من جملة القرآن ظاهرا مكشوفا لجـرى فيها التضاد ، وعرض فيها النزاع •

فان قيل : ما تنكرون على من قال لكم : انهم جميعا سكتوا عنها ، لأنها كانت مقوية لأمرهم ، معلية لكلمتهم ، مصححة لنحلتهم •

قيل له : الاتفاق على مثل ذلك لا يصح من العدد الكثير ، ولولا ذلك لم يصح أن يقع العلم بشيء من الأخبار التى تعلق بها الأغراض • وذلك أن الطبائع مبنية على نشر الأخبار اذا عرفتها الجماعة الكثيرة ، ضرتهم أو نفعتهم ، لأن الدواعى الى النشر كثيرة مختلفة ، فيخـرج المكتوم لأغراض مختلفة ، فلو كان الأمر على ما ذكرتم • والحال على ما توهمتم ، لظهر ذلك ، ونقل ولم ينكتم • لأن واحدا كان لديانته ، وسداد طريقته يذكره انكارا وتوجعا ، وآخر كان لسخافه دينه ، وضعف عقيدته يذكره لبعض أعداء الدين تقربا وتوددا ، وآخر كان يورده ويحكيه لأهله ولولده تحيرا وتعجبا • وآخر كان يرى أن فيه ضربا من الجلادة والشهامة فيحكيه افتخارا وتبجحا ، وآخر يذكره لضيق عطنه عن حفظ الأسرار • والأغراض فى هذا الباب أكثر من أن تعد وتحصى • ثم كان من يسمع منهم ، أو من واحد منهم ينشره بغير حساب ، فلا تلبث الأيام والليالى حتى ينتشر ويذيع • وبهذا تجد أسرار الملوك مع ما يتعلق بهم من عظيم الرهبة والرغبة متى جرت بين عشرين أو خمسة أو عشرة أو دون ذلك لم تنكتم وظهرت فى أقرب زمان ، وأرخى مدة ••

لهذا قيل :

اذا جاوز الاثنين : سر فانه بيث ، وافشـــاء الوشاة قمين

على أن مثل ذلك لو كان جائزا أن يكون الفرزدق ، كان ملجما لا يقول الشعر ، وانما اجتمع عدة من الشعراء لأغراض كانت لهم على أن يعملوا قصائد • وينسبونها اليه ، وكان مثله على كل مصنف فى أى جنس من أجناس العلوم كان مثل ما كان من ذلك مما لا يستجيزه عاقل ، ولا يرتاب فيه ، لأنه لو كان أظهر ، كان ما سألوا فيه كذلك • وهــذا

الباب قد استقصاه : أبو عثمان الجاحظ فى (الفرق بين النبى والمتنبىء)، استقصاء شافيا • وفيما أوردناه كفاية وبلاغ •

فان قيل : ما أنكرتم أن هذا الاتفاق جرى من عدد يسير نحو ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، ومثلهم يجوز أن يقع منهم التواطىء على الكذب وحفظ السر •

قيل له : هذا سؤال من يغش نفسه عن علم منه بأحوال الصحابة أيام عثمان • أو يقول غير مراقب عن جهل منه بها ، وذلك أن الحفـاظ فى ذلك الوقت كان فيهم كثرة نحو أمير المؤمنين على — عليه السلام — وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن العباس ، وعبدالله ابن عمر بن الخطاب ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص ، وغيرهم • وكثير من هؤلاء كانت بينهم منافرات ، بحيث لو عثر بعضهم على خيانة بعض فى مثل هذا الأمر العظيم كان يسرع الى التنديد به • فأما من كان منهم يعرف القرآن ، أو كان يحفظ السور منه فكثير لا يحصون • وكيف يصح اجتماع ما ذكرتم ؟ أم ما الذى يغنى لو اجتمعوا ؟

فان قيل : ما أنكرتم على من قال : انى أسلم أن هذه الآيات كانت فى جملة القرآن ، لكن ما تنكرون : أن تكون هذه الآيات لم تكن تلفت مشركى العرب ، ولم تكن قرعت أسماعهم ، ولا علقت بأفهامهم ، لأنهـا أو عامتها فى السور الطوال • وكان الذى تعلق لحفظ مشركى العرب ، انما هو الآية بعد الآية ، والكلمة بعد الكلمة ، أو السورة بعد السورة من السور القصار ، وكانت هذه الآيات مغمورة فى جملة القرآن ، وفى السور الطوال ، فبهذا لم يهتموا بمعارضته •

قيل لهم : قد علمنا أن النبى — صـلى الله عليه — كان يتـلو القرآن على أصحابه ، وعلى من كان يفد عليه من المشركين من أحيـاء العرب ومدنها ، ثلاثا وعشرين سنة حتى تحققه الخلق من الصحابة ، وكانوا يتلونه فى المحافل والمجامع ، وبين أهليهم فى صلواتهم ومدارسهم ومجالسهم ، وكان المشركون يسمعون ذلك ، ويقرع أسماعهم ، وان لم يكونوا يحفظونه •

وانتهى الاسلام فى هذه المدة الى اليمن ، وسائر نواحى العرب ، ويكفى فى آية واحدة من آيات التحدى أن يقرع أسماعهم • فكيف يصح أن يقال : انها لم تبلغهم ، الا أن يكون الله تعالى قد صرفهم عن سماعها ، ولئن جاز ذلك ، فالصرف من عظيم المعجزات •

على أن عامة آيات التحدى انما هى فى السور المكية ، ولم يكن لرسول الله — صلى الله عليه وعلى أهله — وهو بمكة شغل بالجهاد ، وبيان الأحكام • وانما كان أكثر شغله — صلى الله عليه — الدعاء الى الله تعالى ، وقراءة القرآن ، على ما كان يستدعيه •

يؤكد ما ذكرناه ويوضحه : الآثار الواردة فى اجتماع مشركى العرب على التشاور والنظر فى حال القرآن ، وتدبر أمره ، حتى قال الوليد بن المغيرة — لعنه الله — : « قد سمعت الأشعار والخطب ، وكلام الكهنة • وليس القرآن شيئا من ذلك » ثم قال ما حكى الله تعالى عنه فى قوله : **« ثم نظر • ثم عبس وبسر • ثم أدبر واستكبر • فقال : ان هـذا الا سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر »**(١٦) •

فالتجأ الى أن قال : انه سحر ، لمـا بهره أمره •

وروى • أنهم اجتمعوا وتشاوروا حوله فى أمره ، أبو جهل — لعنه الله — والملأ من قريش ، قد التبس أمره ، فقالوا : فعليكم برجل يعرف السحر والكهانة والشعر • فقال عتبة بن ربيعة : أنا لذلك • فأتى النبى — صلى الله عليه — فخاطب الى أن تلا عليه رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله وسلم **« بسم الله الرحمن الرحيم • حم • تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آيـاته »**(١٧) حتى انتهى الى قوله : **« فان أعرضوا • فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود »** فقال عتبة : ناشدتك الله والرحم ، ألا كففت • وقام جزعا ، دهشا ، مرعوبا • ورجع الى أصحابه ، وذكر لهم الحال ، وعرفهم أنه قد تحير فيه ، وأنه ليس من الشعر ، وكلام الكهنة فى شىء •

---

(١٦) المدثر : ٢١ — ٢٥

(١٧) فصلت : ١ — ٣

وقد حكى الله تعالى عن بعضهم أنه قال : **« سمعنا • لو نشاء لقلنا مثل هذا »**[١٨] ويقال : انه أمية بن خلف — لعنه الله •

وهذا دليل على أنه عرف التحدى والتقريع فدفع عن نفسه بما قال فى نفس الوقت والحال •

وأيضا • فان النبى — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — لما هاجر الى المدينة ، كثر المنافقون ، واختلطوا بالمسلمين ، وحضروا الجماعات ، ومواضع الصلوات ، وكذلك أهل الكتاب اختلطوا بالمسلمين حتى لم يخف عليهم عامة أحوالهم • فكيف يظن بأنه خفى عنهم آيات التحدى بواحدة• وفى وقوف بعضهم عليها وقوف عامة المشركين ، لأنهم كانوا يهدونها اليهم ولو على أجنحة الطير ، لأغراض مختلفة على ما بيناه ، فيسقط بما قلنا ما سألوه •

فان قيل : يجوز أن يكون النبى — صلى الله عليه — استكتمهم هذه الآيات فكتموها ، وأذاعوا سائر القرآن •

قيل له : هذا لا يصح ، ولا يظنه عاقل • لوجهين :

أحدهما : ما بيناه أن كتمان مثل هذا لا يصح ، ولا يتأتى ، ولا يجد المحاول اليه سبيلا •

والثانى : أنه كيف يستكتمهم النبى — صلى الله عليه — مع أنه يتلو عليهم : « أن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ، ويلعنهم اللاعنون»[١٩] وقوله تعالى : **« أن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ، ويشترون به ثمنا قليلا • أولئك ما يأكلون فى بطونهم الا النار »**[٢٠] وقوله تعالى : **« وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ، ولعلهم يتفكرون »**[٢١]•

وكيف يظن بالعاقل : أنه يأمر أصحابه بكتمانه بعدما يدعيه وحيا نازلا من عند الله عز وجل ، ثم يتلو عليهم فى الكتمان ما ذكرناه ؟ على

---

(١٨) الأنفال : ٣١
(١٩) البقرة : ١٥٩
(٢٠) البقرة : ١٧٤
(٢١) النحل : ٤٤

أنه كيف كان يأمن أن يكون فيمن يستكتم من يرتد ، وينـافق ويذيع ما استكتم ؟ كما حكى من ارتداد عبد الله بن سرح بعد ما كان رسول الله — صلى الله عليه — استكتمه كثيرا من الوحى معـه ، وأمـلاه عليه • على أن المسلمين كانوا لا يقرون يسيرا لشبهة حتى تنحل عنهم ، والمنافقون يتعلقون بيسير ما يظنونه شبهة ، كما روى عن عمر وغيره يوم الحـديبية ، حين أراد النبى — صلى الله عليه — الانصراف عنها • انهم قالوا : « ألسنا وعدنا دخول مكة آمنين ؟ » فقيل : « **هل عينت لكم هذه السـنة بعينها ؟** » قالوا : « اللهم • لا » فسـكتوا واستقامت بصائرهم •

ولما روى أن ناقة لرسول الله — صلى الله عليه وعلى آله — ضلت • فتـكلم المنـافقون فى ذلك ، حتى قال — صلى الله عليه — : « **انى لا أعلم الا ما علمنيه الله تعالى** » وذكر لهم موضع الناقة وحالها حتى وجدوها على ما وصف لهم •

والقوم الذين يراجعون هذه المراجعة ، من مستبصر يطلب بهـا مزيد الاستبصار ، ومنافق يحاول بها ما يجرى مجرى الطعن ، كيف يظن بهم اتفاقهم على الكتمان ، لمثل هذا الأمر العظيم ؟ ثم يقـال لهم : هبكم شككتم فى وقوع التحدى بمكة والمدينة أيام رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله — على أنا قد بينـا ما يزيل الشك فيه — ألستم تتيقنون(٢٢) وقوعه من أيام عمر وعثمان الى يومنا هذا ، يكرر على أسماع كل مخالف لدين الاسلام منحرف عن تصديق الرسول — صلى الله عليه وعلى آله — ينقلونه بالتقريع ، والعيب الوجيع ، للعجز الظاهر عن الاتيان بمثله • وهذا كاف فى التحدى ، ووقوعه •

فان قيل : فالمروى عن الأكثر : أنهم أسلموا لغير سماع القرآن ، كما روى أن « العباس »(٢٣) أسلم حين أخبره رسول الله — صلى الله عليه — بما كان من ايداعه المـال زوجته « أم الفضـل » لمـا أراد الخروج الى « بدر » وما روى عن « عمير بن وهب » أنه أسلم حين

---

(٢٢) يقصد : التحدى •

(٢٣) انظر باب المعجزات الحسية من هذا الكتاب •

عرفه — صلى الله عليه وعلى آله — ما جـرى بينه وبين « صفوان ابن أمية » بمكة ، الى غير ذلك مما روى من اسلام خلق كثير ، لأسباب مختلفة غير سـماع القرآن ، وهذا يضعف تعلقكم بالقرآن ، وبأن التحدى به كان قد وقع •

قيل : هذا يلزم من قال : انه لا معجز له — صلى الله عليه — سوى القرآن(٢٤) ، ولا أعرف مسلما يقول ذلك ، أو يعتقده • واذا كان هذا هكذا فليس ذلك طعنا فيما ذهب اليه ، وسنفرد ان يسر الله سبحانه وتعالى بابا من هذا الكتاب نذكر فيه المشاهير من معجزاته — صلى الله عليه — التى هى سوى القرآن •

على أنه قد روى عن جماعة أنهم أسلموا حين سمعوا القرآن • ولو ثبت أن أحدا لم يسلم عنده ، كان ذلك مما يقدح فى صحة كونه معجزا ، دالا على صدق رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله — والدليل لا يقدح فيه الاستدلال به ، أو أن المستدل به لا يعرف بصحته • وانما يجب علينا : أن ننظر فى حال الدليل • هل هو دليل صحيح أم لا ؟ وأما ما عدا ذلك فيما لا فكر فيه • فمن روى أنه أسلم حين سمع القرآن : عمر بن الخطاب • وروى أنه أسلم حين سمع « طه » •

وروى أن جبير بن مطعم أسلم حين سمع النبى — صلى الله عليه — يقرأ : « والطور » وفيه آية التحدى الظاهر ، حيث يقول : **« أم يقولون تقوله • بل لا يؤمنون • فليأتوا بحديث مثله ، ان كانوا صـادقين »** وروى أن سـعد بن معاذ قرىء عليه القرآن ، وأسلم • وكذلك : أسيد بن حضير •

فان قيل : تلاوة آية التحدى لا تكون تحـديا • وانما التحدى أن يبتدىء مخاطبتهم بالتحدى •

قيل له : لا فرق بين الأمرين فى حصول التحدى ، بل اذا قرأ عليهم

---

(٢٤) ولم لا تكون الأخبار بروايات الأحاد ؟ أخبـار العباس وعمـير وغيرهما •

آية التحدى ، وعرفهم أنها من عند الله تعالى ، ربما كان أبلغ فى التحدى ، على أن آية التحدى فى أوائلها الأمر بالتحدى ، لأنه تعـالى يقول : « **فليأتوا بحديث** »(٢٥) ولا يجوز أن يظهر — صلى الله عليه وعلى آله — أن الله تعالى أمره أن يقول : قولا الا ويعرف منه أنه قال ذلك ، أو ما ينوب منابه • بدل ذلك على أنه لا بد من أن يكون تحديا ابتداء فى المخاطبة ، أو تلاوة تنوب مناب ابتداء المخاطبة •

---

(٢٥) الطور : ٣٤

الكلام فى أن معارضة القرآن لم تقع

فان قيل : فما الدليل على أن رسول الله ــ صلى الله عليه وعلى آله ــ لمـا تحداهم بالقرآن لم يعارضه أقوام ولم يأتوا بمثله ؟

قيل له : الدليل على ذلك أنه لو كان لنقل • ولو نقل لوقع العلم • فلما لم يقع العلم به ، علمنا أنه لم ينقل • واذا ثبت أنه لم ينقل ، ثبت أنه لم يكن •

فان قيل : فلمَ ادعيتم أنه اذا لم ينقل يجب القطع على أنه لم يكن ؟

قيل له : لأنا بمثل هــذه الطريقة نعلم أنه لم تجــر بين رسول الله ــ صلى الله عليه ــ وبين قريش من مبعثه ــ صلى الله عليه ــ الى يوم بدر وقعة ، مثل وقعة بدر وأنه لم يكن بين وقعة بدر ووقعة أحد مثل وقعة أحد • وأن الأحزاب لم يجتمعوا على باب المدينة الا مرة واحدة ، وأنه لم تجر بين أبى حنيفة وابن أبى ليلى ومالك نقائض فى الشعر مثل ما جرى بين الفرزدق وجرير والأخطل والبعيث • وأن جعفر ابن محمد ــ عليه السلام ــ لم يقع منه خروج مثل خروج زيد بن على ــ عليهما السلام ــ وأن زيدا بن على لم يكن له خروج بخراسان ، وأن أبا يوسف ومحمد لم يصنفا فى النحو مثل كتاب سيبويه • وأنه لم يظهر عنهما من الطب مثلما ظهر عن جالينوس • الى نظائر ما ذكرنا • أكثر من أن تعد وتحصى • ولم يتحصل لناالعلم بكلّ ما ذكرنا الا من حيث علمنا أن شيئا من ذلك لو كان لنقل • ولو نقل لعلم • فبان بما ذكرنا : أن القرآن لم يعارض • لأنه لو كان عورض لنقل • ولو نقل لحصل لنا العلم •

فان قيل : ان جميع ما استشهدتم به ، قد وقع العلم لنا بصحته ، ولا ننكره • ولكن من أين وجب أن يكون حكم معارضة القرآن حكم ما استشهدتم به ؟

قيل له : لأن ما ذكرنا من الطريقة أمر عام ليس يختص شيئا دون شىء ، فيجب أن يكون جميع الطرق التى تتعلق بها الدواعى الى نشرها وذكرها وتقوى البواعث عليها • جارية فى هذا الباب مجرى واحدا •

فان قيل : فكأنكم تقولون : ان كل ما لم ينقل من الأحوال الماضية نقلا متواترا يجب القطع على أنه لم يكن ، ولئن قلتم ذلك لزمكم أن تقطعوا على أنه لا معجز للنبى ـ صلى الله عليه ـ الا ما يكون الخبر به متواترا ، ويلزمكم القطع على أن كل خبر يروى عنه ـ صلى الله عليه ـ من طريق الآحاد : كذب . لا أصل له . وهذا خلاف ما بين المسلمين . ويلزمكم فى أحوال الدنيا والمعاملات : أن كل مالا يتواتر الخبر به من المجوزات فهو مقطوع على أنه لم يكن ، وفى هذا من الفساد مالا يخفى .

قيل له : نحن لا نقول ان كل مالا يتواتر الخبر به يجب القطع على أنه لم يكن على الاطلاق ، وهذا لا يقوله محصل . وانما نقول : ان الأمر اذا كان مما يكون وقوعه لو وقع ظاهرا لا خفاء به ، ثم كانت الدواعى الى نشره قوية ، والبواعث على ذكره شديدة ، ما لم يعرض ما يوجب تغير حال الدواعى والبواعث ، ومتى لم يكن له نقل يوجب العلم فيجب القطع على أنه لم يكن . وشىء مما ذكرتم لا يلزم على هذا ـ على ما نبينه ـ بأن كثيرا من معجزات رسول الله ـ صلى الله عليه ـ يجوز أن يكون ظهر للواحد ، أو الاثنين ، أو الثلاثة ، دون العدد الكثير . ومثل هذا مما لا يصح أن يتواتر به الخبر .

وكثير من معجـزاته ـ صلى الله عليه ـ وان كانت ظهرت ، بشهادة العدد الكثير . يجوز أن تقوى الدواعى الى نشرها ، والبواعث عليها تعويلا على غيرها ، ويجوز أن تضعف الدواعى على نقلها على مر الأيام ، لقيام غيرها مقامه ، وان كانت الدواعى والبواعث فى أول الأمر قوية . وكل هذا يجوز أن يكون الأصل صحيحا ، وان لم يتواتر النقل به ، وعلى هذه الطريقة يجرى الكلام فى أحوال الدنيا والمعاملات لأنا نجوز فى السلطان أن يفعل أفعالا كثيرة مما تخصه فلا تنقل نقلا متواترا . ولا يجوز أن يفعل فعلا يعم نفعه أو ضرره ظاهرا ذائعا ، فلا يتواتر فى المدة بعد المدة الى أن يعرض ما يوجب ضعف الدواعى والبواعث الى نقله ، ولهذا جاز أن تخفى كثيرا من معجزات الأنبياء المتقدمين ـ صلوات الله عليهم ـ لأن التكليف بمعرفتها زال ، أو عرف حالهم من جهة نبى بعدهم ، فضعفت الدواعى الى نقله ، واذا ثبتت هذه الجملة ، فان معارضة القرآن لو كانت ووقعت كان وقوعها على

وجه يظهر للولى ، المصدق برسول الله — صلى الله عليه — والعـدو المكذب له . وكانت الدواعى الى نقلها والبواعث على نشرها قوية مستمرة الى يومنا هذا بل الى آخر الدهر ، لأن الاسلام ما بقى ، والاحتجاج بالقرآن ما استمر ، فيجب أن تكون الدواعى ثابتة حاصلة الى نقل المعارضة ، لأن المكذب به — صلى الله عليه — كان يذكرها احتجاجا والمصدق به يذكرها طالبا للكلام عليها ، كما يذكر الخصم حجة خصمه أو شبهته للكلام عليها . وآخر كان يذكرها لفصاحتها ومزيتها كما يؤثر ، ويحفظ كلام الفصحاء ، وكانت الملحـدة والباطنية من بينهم خصوصا يهتفون بها لمـا فى أنفسهم على رسـول الله — صلى الله عليه — .

فكل ما ذكرناه يوضح أنها لو كانت وقعت كان وقوعها معروفا ، والدعاوى الى نقلها تكون مستمرة . ومتى كان الأمر على ما وصفنا . ولم تجد النقل الذى ذكرنا ، فيجب القطع على أنها لم تكن ، كما نقول فى سائر ما جرى مجراه فى الظهور ، وقلة الدواعى الى نقله من أمور الدنيا والدين ، وأحوال الملوك وسياساتهم .

ولمثل هذا نقول : ان ما تدعيه الامامية من النصوص ، لا أصل لها ، لأنها لو كانت لوجب أن يتواتر بها النقل ، ويظهر .

ولخص بعض العلماء القول فى ذلك . فقال : « كل أمرين كانا فى زمان واحد ، أو زمانين متقدمين ، وكانت الدواعى الى نقلها متساوية أو متقاربة ، فلا يجوز أن يظهر أحدهما ، ويظهر نقله ، ويخفى الآخر ، ويخفى نقله ، لأنهما اذا اجتمعـا فى السبب لموجب الظهور ، فيجب اجتماعهما فى الظهور » قال : « وقد علمنـا : أن القرآن لو كانت له معارضة من مشركى العرب كانت تكون فى الزمان المتقارب ، وكانت الدواعى الى نقلهـا كالدواعى الى نقـل القرآن وأقـوى منه على ما أوضحناه ، ولأن المعارضة لو كانت ، لكانت هى الحجة دون القرآن . وكان القرآن هو الشبهة . وكأن ذلك مما يزيد فى قوة الدواعى الى نقلها ، وهذا بين واضح لمن تأمله بعين النصفة » .

على أن أحـدا لا يدعى : أن أحدا من العرب انتدب لمعارضة

القرآن ، فعارضه ، أو عارض بعضه ، فلا وجه لتطويل الكلام فى هذا البـــاب .

فان قيل : ما أنكرتم أن يكون خوف السيف ، وعلو كلمة الاسلام أوجب خفاء نقل المعارضة ، أو منع ابتدائها .

قيل له : أما ابتداؤها والاتيان بها لو لم يتعذر عليهم كان لا يجوز أن يكون ما ذكرتم مانعا لهم منها لأن الأحوال كانت على خلاف ذلك ، وسنشبع القول فيه ، ونوضحه فى الفصل الذى نذكر فيه : أن كفهم عن المعارضة لم يكن الا للتعذر . وأما النقل فلا يجوز أن يخفى لمـــا ذكرتم . ألا ترى أن عامة الأحوال مع قوة جملة الاسلام ، وظهور أمره لم يسلم من أن يكون فيها من كان يطعن على النبى — صلى الله عليه وعلى آله — ويروم القدح فى الاسلام .

فهذا يزيد بن معاوية — لعنه الله — لمـــا حمل اليه رأس الحسين ابن على — صلوات الله عليه — جعل يقول :

ليت أشياخى ببدر شهدوا　　جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا ، واستهللوا فــرحا　　ولقالوا : يا يزيد ، لا شـــلل
لست من عتبة ان لم أنتقـــم　　من نبى أحمـــد ما كان فعل

فمن لا يتحاشى أن يقول ذلك ، أى مانع يكون فى زمانه من نقل معارضته القرآن ، وهو السلطان المنتصب للخلافة ؟

ثم الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان على ما روى يظن فى أيام خلافته فى المصحف . وقيل حرقه . ثم أنشأ يقول :

أتوعد كل جبـــــار عنيد　　فهل أنا ذاك جبار عنيد ؟
اذا ما جئت ربك يوم حشر　　فقل : يارب حرقنى الوليد(*)

(*) جاء فى « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى — أن الوليد — لعنه الله — استفتح المصحف يوما .. فقرأ أول ما قرأ الآية الكريمة : **« واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد »** .. فثار — لعنه الله — ومزق المصحف قائلا :

أتوعـد كل جبـار عنيـد　　فهـا أنذا جبـــار عنيـد
اذا ما جئت ربك يوم حشر　　فقل يا رب مزقنى الوليـد

وما نظن مسلما — مهما بلغ فسقه وفجوره — يجرؤ على مثل هذا العمل الفظيع الا أن يكفر بالاسلام ويخرج عليه ..　　« الناشر »

وهو القـــائل :

تلعب بالـــبريد هاشـــمى   بلا وحى أتاه ولا كتاب

فكيف يظن بأن نقل المعارضة للقرآن يخفى فى زمانه ، أو كان يقع الكف عنها ، لولا التعذر . ثم كان فى آخر أيام بنى أمية ، وأول أيام بنى العباس ، مثل ابن المقفع الذى تهوس : وأوهم الأغمار أنه ممن يعارض القرآن ، ولم يتحاش ذلك .

وفى أيام المـــأمون ظهر الالحاد ، وظهر الكلام فى نصرة « المانوية » و « الديصانية » وبالأخيرة صنف « الدامغ » فى « مطاعن القرآن » واختلف فى مصنفه .

وصنف ابن الروندى « الفريد » فى الطعن على نبوة نبينا ــ صلى الله عليه ــ والقدح فى معجزاته ؛ غير خائف ولا متحاش .

وصنف « التاج » فى قدم العالم . و « الزمرد » فى ابطال النبوات ، واذا كانت الأحوال على ما وصفنا ، فكيف يظن : أن معارضة القرآن لو كانت يخفى نقلها ، سيما فى زماننا هــذا . والباطنية قد اتسعت أحوالهم ، وكثر بذلهم الأموال على الاستدعاء الى ما هم عليه من الجحد للتوحيد والنبوات ، فلو وجدوا سبيلا الى ذلك لحصلوه بما لهم من طارف أو تليد .

وبمثل هذه الطريقة : يتبين أن معارضة القرآن لو كانت ممكنة فى شىء من الأعصار التى هى بيننا وبين النبى ــ صلى الله عليه وآله ــ لأتى بها ، ولم يكن دونها مانع ولا حاجز .

فان قيل : فقد حكى عن مسيلمة ، وطليحة الأسدى ، وبالأخير عن ابن المقفع : فصول عدة ادعى أنها معارضة للقرآن فما قولكم فيه ؟

قيل له : أول ما فى هذا أنه مما يدل على أن المعــارضة للقرآن لم تقع ، لأنها لو وقعت لنقلت ، كما نقلت هذه الفصول التى ذكرتها ، ولم يمنع منها مانع ، كما لم يمنع من نقل هذه الفصول مع ما فيها من الركاكة والسخافة فى النظم والوضع .

وجملة الكلام فى هذا : أنها تنقسم قسمين : اما أن تكون كلاما مسترذلا لا ينحط عن كلام المتوسطين ، فى العربية من أهل هذا العصر والأعصار التى كانت قبله . فكيف أن تبلغ مرتبة كلام فصحائهم ما جرى هذا المجرى . لا يخيل على أحد أنه ليس يجوز أن يظن به أنه معارض للقرآن ، كما لا يجوز أن يظن أن أشعار الحبر الوردى تصلح أن تكون معارضة لأشعار امرىء القيس ، والنابغة أو الأعشى ، أو يكون المورد له أخذ ألفاظ القرآن فقدم منها البعض ، وأخر البعض وزاد فيها ونقص منها . ومثل هذا لا يعد معارضة ، لأنه لو عد معارضة لكان لا يتعذر على المفحم اذا عرف وزن الشعر أن يعارض ديوان امرىء القيس وسائر الشعراء الفحول من القدماء والمحدثين — على ما نبينه من بعد — ونحن نذكر تلك الفصول ونبين صحة ما قلناه :

فمن ذلك ما حكى عن مسيلمة الكذاب أنه قال : « والليل الأطخم ، والديب الأدلم ، والجزع الأزلم ، ما هتكت أسيد من محرم » وقال : « والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس » وكان يقول : « والشاء وألوانها ، وأعجبها السود ، وألبانها والشاة السوداء ، واللبن الأبيض ، انه لعجب محض ، وقد حرم المذق ، فما لكم لا تجمعون » وقال : « ضفدع بنت ضفدعين ، نقى ما تنقين ، أعلاك فى الماء ، وأسفلك فى الطين . لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين . لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها . ولكن قريشا قوم يعتدون » .

وقال : « والمدريات زرعا ، والحاصدات حصدا ، والذاريات قمحا ، والطاحنات طحنا ، والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما ، اهالة وسمنا ، لقد فضلتم على الوبر ، وما سبقكم أهل المدر . ربعكم فامنعوه ، والمعتر فأووه ، والباغى فناوؤه » وهذه الفصول أبين سخافة ، وأظهر ركاكة من أن يحتاج الى ذكرها فى كتابنا هذا ، على أنها ليست مما فيه شبهة على أحد سمعها ، لكنا ذكرناها ليتعجب منها المتعجب ، وليعلم أنه لو كانت للقرآن معارضة فى الحقيقة لنقلت ، كما نقل هذا الكلام السخيف الذى لو أراد بعض المتعلمين الذين تكون بضاعتهم فى اللغة مزجاة ، ايراد اسجاع فى هذا المعنى لم يرض لنفسه بمثل هذا .

والرجل — أعنى مسيلمة — وان كان كذابا وقحا ، فلنه كان رجلا من العرب ، ولم يبلغ به جهله الى أن يدعى أنه يعارض بمثل هذا الكلام القرآن ، لأنه لو فعل ذلك كان يفتضح بين قومه ، وهو لم يوردها على أنها معارضة ، وانما كان يوردها على أنها منزلة عليه ، وليس كل ما يقصد أن يدعى فيه أنه منزل من عند الله يمكن أن يقال فيه : انه معارضة للقرآن ، لأنا لا ندعى اعجاز القرآن من حيث أنه منزل من عند الله تعالى فقط ، بل لأوصاف أخر تخصه . ألا ترى أنه لا شك أن التوراة والانجيل والزبور كانت منزلة من عند الله ، وان لم يثبت فيها الاعجاز .

ومن كلام هذا المهرص الكذاب : « ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى » وحكى : « لقد من الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشا ، وأحل لها الزنا » وهذا الكلام ، وان كان سخيفا ، فانه أسف مما تقدم من كلامه ، والعلة فيه : أنه أدخل فيه شيئا من ألفاظ القرآن ، لأنه أخذ الابتداء من قوله : **« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيـــل »**(١) فجعل « الحبلى » مكان « أصحاب الفيل » وكذلك فيما حكى من قوله : « لقـــد من الله على الحبلى » أخـــذه من قول الله عز وجل : **« لقد من الله على المؤمنين »**(٢) فجعل « الحبلى » مكان « المؤمنين » وقوله : « أخرج منها نسمة تسعى » من ألفاظ القرآن الا قوله : « نسمة » فاكتسى هذا الفصل ضربا من الزبرج ، لـــما فيه من ألفاظ القرآن .

واعلم أن الشاعر يدخل لفظة من القرآن فى بيت من الشعر ، أو يدخلها الكاتب فى فصل من كتابه ، والمحاور فى فصل من محاورته . فيكتسب ذلك البيت ، وذلك الفصل من العذوبة والرونق ما يصيره غرة فى سائره ، وهذا من عجيب ما اختص به القرآن وفيه دلالة واضحة : أنه مباين لكلام البشر — والحمد لله — .

وقد رأيت بعض من كان يتعاطى الفصاحة ، ويدعى البلاغة من أهل عصرنا هـــذا يعجب بفصل يحكيه عن طليحة الأســـدى ، وهو

---

(١) أول سورة الفيل .

(٢) آل عمران : ١٦٤

« ما يفعل الله بتعفـير خدودكم ، وفتح أدباركم ، اذكروا الله أعفة قياما » وكان يقول : ما هذا بكلام رذل ، وكان يوشح به ما كتب ، أقدره أنه منطوى عليه •

وهذا الفصل انما صار له يسير من الرونق ، لأنه أدخل فيه شيئا من ألفاظ القرآن ، لأن الله تعالى يقول : « ما يفعل الله بعذابكم »(٣) فأخذ هو أخذا « اذكروا الله أعفة » من قوله تعـالى : « يذكرون الله قياما وقعودا »(٤) ومن قوله تعالى : « اذكروا الله ذكرا كثيرا »(٥) •

على أن هذا القدر ، وبأضعافه لا يمكن أن يعرف حال الكلام ، وحال المتكلم ، كما أن بالبيت الواحد ، وبالبيتين لا يمكن أن يعرف حال الشاعر ، وبالفصل الواحد وبالفصلين وبالثلاثة لا يمكن أن يعرف حال الكاتب والكتابة • وانما يمكن أن يعرف ذلك اذا امتد نفس الكلام ، وظهر التصرف فيه ، ولهذا نقول : ان بهذا القدر من القرآن لا يمكن أن يعرف اعجازه ، لأن هذا القدر من القرآن لا يمكن أن يعرف اعجازه ، لأن هذا القدر وأضعافه • قد يتفق فيه مالا يمكن لصاحبه الاستمرار عليـه •

فأما ما ذكر عن ابن المقفع فى هذا الباب فهو أكثر ، ونحن نذكر طرفا منه وننبه به على نمطه ، فانى رأيت كثيرا من الجهال يدخلون به الشبه على أنفسهم • فمن ذلك : « وأما الذين يزعمون : أن الشك فى غير ما يفعلون ، وتنتهى الثقة الى ما يقولون ، أولئك ممن غضب عليهم ربهم ، انه خبير بما يعملون ، الذين اتخذوا من دونى نصيرا ، أولئك لا يجدون وليا ولا هم ينصرون ، ومنهم من يتخذ أندادا من دون الله رجما بالغيب ، أولئك وراءهم شر ما يظنون » •

فانظروا — رحمكم الله — الى صفاقة هذا الانسان • كيف جاء الى ألفاظ القرآن فحرفها عن مواضعها ، وأوهم أنها من كلامه ، فأفسد

---

(٣) النساء : ١٤٧
(٤) آل عمران : ١٩١
(٥) الأحزاب : ٤١

وضعه ونظمه ، وما أشبهه ، الا بما حكى لى بعض أهل الأدب أنه أنشد قول المتنبىء :

بقائى شاء ليس هم ارتحالا   وحسن الصبر زموا ، لا ، الجمالا

فقال : أخذ قول أبى تمام ، فنسخه ، وفسخه ، ومسخه ، يعنى قولـه :

قالوا : الرحيل • فما شككت بأنه نفسى
عن الدنيـــا تريد رحيـــلا

فأبلغت الحكاية المتنبىء ، فقال : هلا وهبه لقولى :

* وحسن الصبر زموا والجمالا ؟ *

وابن المقفع أسوأ حالا من المتنبىء ، لأنه ليس لكلامه من الحسنات ما يوهب له السيئات • فتأملوا رحمكم الله كيف جاء الى ألفــاظ القرآن، لأن « **غضب عليهم** »[٦] من ألفاظ القرآن ، وأنه « **خبيــر بما يعملون** »[٧] من ألفاظ القرآن • وكذلك قوله : « أولئك لا يجدون وليا ولا هم ينصرون » كله من ألفاظ القرآن ، الا أنه حرف وغير وأفسد اللفظ وسلبه حسنه بتغيير النظم • وكذلك قوله : « ومنهم من يتخذ من دون الله أندادا رجما بالغيب أولئك وراءهم » كل ذلك من ألفــاظ القرآن • وليس له من الزيادة فى هذا الا قوله فى أوله : « يزعمون أن الشك فى غير ما يفعلون » وهذا كلام مستدل من ألفاظ العامة والسوقة ، لأن ارادتهم نفو الشــك عما كانوا يفعلون ، فلم يصرح به ، وانمــا أثبته فى غير ما يفعلون •

ولعمرى ان الفصيح قد يعدل عن التصريح الى التلويح لكن على وجه يكون أبلغ من التصريح ، وبألفاظ تكون أجزل من ألفاظ التصريح ويكون ذلك لغرض صحيح • وذلك مثل قول الله تعالى : « **وانا أو اياكم**

---

(٦) مقتبس من سورة المجادلة : ١٤

(٧) مقتبس من سورة المجادلة : ١٣

لعلى هدى أو فى ضلال مبين »(٨) أراد آنى على الهدى وأنتم فى ضلال مبين، فعدل عن ذلك الى الايجاز والتلويح بلفظ/هو أشرف وأجزل وكان الغرض فى هذا : بيان ذلك بما يكون أجمل ، والتنبيه عليه بما يكون ألطف ، وكلام هذا المختلف لا يحتمل ذلك لأنه أردفه بقوله : « عليهم غضب من ربهم » وهذا نبو فى المعنى الذى له ، يعـدل عن التصريح الى التلويح ومن ذلك قوله تعالى : **« منكم من يريد الدنيـا ومنكم من يريد الآخرة »**(٩) فعاتبهم بألطف عتاب ، وجعل خطابهم أجمل خطاب • ثم عقبه بقوله : **« ولقد عفا عنكم »**فكان عجز الكلام مطابقالصدره ، واستمر الغرض فيهما على منهاج واحد ، ومن زيادته أيضـا قوله : « أولئك وراءهم شر ما يظنون » وهذا وان كان اللفظ لغو فانه أخذه من معنى قول الله تعـالى : **« وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون »**(١٠) وكساه من لفظه الخسيس ما أزال رونقه وبهجته •

ومن كلام هذا الجاهل وأوهم أنه عارض : « قل أعوذ برب الناس المعاذ بصاحب البلد ، مالك البلد ، وبانى البلد ، وساكن البلد من شر العاربة وأهل الطاغية الذى أضل صاحبه ، ومنع جانبه ، وحمى جاره من سكان المدر وخلاف العذر والعرر » تأملوا — رحمكم الله — حال هذا الجاهل فى ادعائه أنه أورد معارضة ، ومن جاء الى كلام فصيح شريف الوضع أو كلام متوسط ، أو مسترذل • فأبدأ كل كلمة منه بكلمة نافرة أو غير نافرة ، هل يكون معارضا ؟ وهل يستحق ذلك أن يسمى معارضة ؟

فأما قوله : « أضل صاحبه ومنع جانبه » الى آخر الفصل : فكلام لا يلاحن بعضه بعضا لأن قوله : « أضل صاحبه » : ذم ، وقوله : « حمى جاره » : مدح • وقوله : « سكان المدر وخلاف العذر والعرر » لا ملاءمة بين بعضه والبعض ، وانما طلب به السجع من أقبح الوجوه • على أن سكان المدر لا مزية لهم فى الشر على غيرهم فلا وجه لتخصيص الاستعاذة من شرهم لولا عمى قلبه •

---

(٨) سبأ : ٢٤ — (٩) آل عمران : ١٥٢

(١٠) الزمر : ٤٧

وقلنا ان هذا الفصل لا يصح بتة على وجه من الوجوه أن يسمى معارضة . لأنه جار مجرى أن يقول الانسان :

« ونظنهم منتبهين وهم نيام » .

ويدعى أنه عارض قوله :

« وتحسبهم أيقاظا وهم رقود »[11] فلا يستحق أن يسمى معارضة بتة ، لأنه أبدل كل لفظة منه بلفظة ، وأتى بألفاظ وضيعة بدل ألفاظ شريفة .

ولئن جاز أن ذلك معارضة فلم لا يكون معارضا لقول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا
لدى وكرها العناب والحشف البالى

بأن يقول :

تخال الوحش فى طل أرضنا
وفى بيتنا : التفاح والعنب البالى

ولم لا يكون معارضا لقوله :

خليلى مرا بى على أم جندب
لنقضى حاجات الفؤاد المعذب

بأن يقول :

حبيبيا سيرا بى على أخت زينب
لنقضى أوتار الفؤاد المعذب ؟

ولم لا يكون معارضا لقول الكميت :

طربت وما شوقا الى البيض أطرب
ولا لعبا منى وذو الشيب يلعب

---

(١١) الكهف : ١٨

بأن يقــول :

لعبت وما ميــلا الى الســمر ألعب
وما لهوا منى وذو السن يطرب ؟

أترى هذا الجاهل لميعرف شيئا من نقائض جرير والفرزدق ولا معارضات امرىء القيس وعلمقة ؟ ولم يتصور كيف كانت تجرى المعارضات بين العرب ؟ وما عندى أنه خفى عنه ذلك لكنه أراد أن يسخر بما أتاه من بعض الجهال أو الأغمار •

على أن كلام ابن المقفع اذا لم يدع أنه يعارض القرآن ليس من هذا الجنس ، بل هو من كلام الفصحاء •

فان قيل : فكيف يجوز أن يجود كلامه اذا قصــد غير معارضة القرآن ، ويسقط اذا أرادها ، إلا أن يقولوا بالصرف •

قيل له : هذا مما نبينه ونوضحه فى الفصل الذى نبين أن الاعجاز تعلق بالنظم والفصاحة جميعا ، وستجده ان شاء الله هناك شافيا كافيا •

ومن كلام هذا الجاهل أعنى ابن المقفع : « ألا ان الذين اتخذوا الها من دون الواحد القهار ، لبئس مايصنعون ، ولا تكونوا كالذين آمنوا ، ولم يثمر ايمانهم ، لظلمهم ، أولئك عليهم غضب من ربهم وهم لا يهتدون » والكلام فى هذا كالكلام فيما تقدم ، الألفاظ كلها ألفاظ القرآن حرفها وأفسدها بالتقديم والتأخير ، والتبديل والتغيير ، ثم جاء الى قوله تعالى : **« الذين آمنوا ، ولم يلبسوا ايمانهم بظلم »**[١٢] فغيره بأن قال : « الذين آمنوا ولم يثمر ايمانهم لظلمهم » فجاء الى ذلك النظم الشريف الرائع فنقله الى النظم العامى • ألا ترى أن قوله تعــالى : **« الذين آمنــوا ولم يلبســوا ايمــانهم بظــلم »** جرى على منهاج ، وطريقة واحدة • فانه جعل الفعل فى الأول والآخر للذين آمنوا فاتسق الكلام أحسن الاتساق ، وانتظم أحسن الانتظام • وهذا الغبى جعل الفعل الأول للذين آمنوا ، والفعل الثانى لايمانهم ، لأنه قال : « لم يثمر ايمانهم » فحصل فى الكلام بعض الاضطراب •

---

(١٢) الأنعام : ٨٢.

ولست أقول : ان هذا القدر لا يحتمل أن يقع فى كلام الفصحاء ، ولكن اذا أتى كلاما فصيحا فرام أخذ معناه بلفظ من عنده يكسوه ، فأقل ما فى بابه أن يساويه ، وان لم يجاوره • فأما أن يسقط دونه فهو من أمارات الخذلان • على أنا قد بينا : أن هذا الجنس من الكلام لا يستحق اسم المعارضة ، ومن أتى به لا يصح أن يسمى معارضا على مذهب العرب والعجم • فان للعجم أيضا معارضات على مقادير لغاتهم ، وضربنا لصحة ما قلناه الأمثال بالأبيات التى أبدلنا كل لفظة منها بلفظة ، فاتضح الكلام فيه بحمد الله ومنه •

ومن كلام هذا الجاهل — وقيل : انه أوهم به معـارضة قول الله تعـالى : « **ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد** »(١٣) — : « تأمل صنيع الله بأهل الشام ، وقد شملتها الآثام ، وكثر فيها الاجرام ، فيومئذ حين أظلتهم الآكام ، والقادمين من السوق بالخيام ، ان ربك صب عليهم سوء العذاب ، انه لا يعجل العقاب ، ولهم الجزاء الأوفى يوم الثواب » •

تأملوا رحمكم الله هذا الفصل وما فيه من الخلل لتعلموا بعد هذا الانسان عما تحراه ، وسقوط كلامه دون الغرض الذى رماه • فان أول الكلام من كلام الكتاب المقلين فى البضاعة ، المتكلفين للصناعة ، وفى كتاب عصرنا من لا يلحق هذا الكلام شـيئا وكلامه • فقوله : « شـملتها الآثـام ، وكثر فيها الاجرام » تطويل لا يفيد آخره ، الا ما أفاد أوله • ولعـل ظانا يظن أنه مثـل قول الله عـز وجل : « **الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد** »(١٤)وليس ذلك كذلك ، لأن الطغيان هو مجاوزة الحد فى الترفع والتكبر ، ومنه قوله تعالى : « **انا لمـا طغى المـاء حملناكم فى الجارية** »(١٥) والخنا والفساد ليسا من ذلك فى شىء •

وهـذا الجاهل أخذ هذا من قول الله تعـالى : « **وأحاطت به خطيئته** »(١٦) فانظروا فى حال الكلامين فى جزالة اللفظ واختصاره مع

(١٣) الفجر : ٦ ، ٧
(١٤) الفجر : ١١ ، ١٢
(١٥) الحاقة : ١١
(١٦) البقرة : ٨١ وعبارة المخطوطة : وأحاطت به سيآته •

أن فيها المعـــانى ليعلم أن ما بين الكلامين ، ما بين الثرى والثريا ، وقوله : « ان ربك صب عليهم سوء العذاب » وقوله : « الجزاء الأوفى » كله من ألفاظ القرآن ، لأنه أفسد الوضع حين عقب « صب عليهم سوء العذاب » بقوله : « انه لا يعجل العقاب » لأنه لا يحسن أن يقال : عذبهم • ثم يقال : لا يعجل العقاب ، لأن الاخبار بأنه لا يعجل العقاب انمـــا يحسن أن يكون توعدا مع المهل ، أو توعدا قبله ، أو بعد ذكر العفو • فأما مع الاخبار بنزول العـــذاب فانه لا يحسن • لكن يد الخذلان تصرفه كيف شاءت ، ولهذا لم يذكر الله عز وجل ترك تعجيل العقاب الا مع ذكر المهل أو العفو ، وهما كقوله تعالى : **« وربك الغفور ذو الرحمة ، لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب • بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا »**(١٧) وكقـــوله : **« ولو يؤاخذ الله النـــاس بظلمهـــم ، ما ترك عليهـــا من دابة ، ولـــكن يؤخـــرهم الى أجـــل مسمى »**(١٨) وكقـــوله : **« ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة »**(١٩) وكقوله تعـــالى : **« وربك الغنى ذو الرحمة ، ان يشـــأ يذهبكم ويستخلف من بعـــدكم ما يشـــاء »** الى قـــوله : **« ان ما توعدون لآت »**(٢٠) •

وقول هذا الجاهل : « ولهم الجزاء الأوفى يوم الثواب » كلام مختل لأن جزاء المخرج لا تعلق له بالثواب • ومن كلام هذا الجاهل بعد هذا الفصل « يا أيها الناس قد نسب أهل العراق الى الشقاق والنفاق ، وفى مائها الزعاق ، ويظهرون طاعتهم للخلاق ، وان ربك هو أعلم بمن حاد عن طريقهم ، وهو أعلم بالمعتدين ، وأوفى للمهتدين » •

أما ابتداء هذا الكلام فهو أسجاع باردة ، لا فائدة فيها وهو من جنس كلام مسيلمة ، ولهذا قال أبو بكر لمـــا بلغه شىء من كلام مسيلمة : « انه كلام لم يخرج من اله » يعنى من عند الله تعـــالى **« ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين »**(٢١)

---

(١٧) الكهف : ٥٨ (١٨) النحل ، ٦١

(١٩) فاطر : ٤٥

(٢٠) الأنعام : ١٣٣ وما بعدها •

(٢١) القلم : ٧ وانظر الأنعام : ١١٧

فأفسد النظم لأن قول الله تعالى اشتمل على قسمة حسنة ، لأنه بين أنه أعلم بمن ضل عن سبيله ، وبمن اهتدى ، وهذا الجاهل غير ذلك ، وأزال حسنه ، وجعله تطويلا غير مفيد ، لأن الحائد عن الطريق والمعتدى واحد ، مع أن فيه ابدال لفظة بلفظة • وقد بينا أن ذلك لا يصح أن يسمى معارضة •

ثم قال هذا الجاهل : « ولئن أكرمه ، وأفاء من النعمة عليه ليتم لها شكره ، ثم يعرف بذلك ربه ، أنه رب عليم ، ورءوف حليم » وهذا كلام كما ترى ركيك من كلام الكتاب الذين لم يتقدموا فى الصناعة ، ولم يؤتوا حظا من البراعة • ولهذا الجاهل كلام كثير يجرى هذا المجرى ، ولا فائدة فى اطالة الكتاب بذكر جميعه بعد أن نبهنا على نمطه وطريقه ، لئلا يغتر به مغتر •

ثم قال بعد فصول من كلامه : « وبقى أن تستوى حالة الكلامين بأن لا يتفاضل الاعتقاد فيهما ، فيعظم أحدهما ، ويصغر الآخر ، ثم تكثر تلاوة أحدهما كما كثرت تلاوة الآخر ، فيستعذب ألفاظ أحدهما ، كما يستعذب ألفاظ الآخر ، ويستفصحه كما استفصح الأول فبالألف يعذب المتلو ، ويستلذ المأكول والمشروب والمنكوح ، وبالتنكر والاستغراب ، ينفر عنه ، ويبعد عن الصواب ، ولتمد به الحنجرة ، كما تمد بغيره » فيقال لهذا الجاهل السخيف : أرأيت لو أن بعض سخفاء الكتاب المتأخرين فى البلاغة كتب كتابا يطن اللفظ ساقط المعنى ، ثم يذكر أنه عارض به رسائل المتقدمين فى صناعة الكتابة ، ثم اعتذر بما اعتذرت به ، فقال : يجب أن لا يتفاضل الاعتقاد فيهما فيعظم كلامه ، ويصغر كلامى ، هل يكون جوابه عند أهل المعرفة بهذا الشأن الا التبسم والاستسخاف لعقله ومعرفته ؟

وأما قوله : « وليكثر من تلاوته كما أكثر من تلاوة الآخر » الى آخر الفصل ، الى ذكره المأكول والمشروب والمنكوح ، كلام جاهل بالعبارات ، أو متجاهل • لأن المعلوم من أحوال الناس وعاداتهم التى لا تكاد تخفى على المراهقين فضلا على البالغين المحصلين : أن الاكثار من الشىء تلاوة ، كانت فيما يتلى ، أو شربا فيما يشرب ، أو غير ذلك بوجب الملال • ويسبب السآمة ، ويصور المتلو والمشروب والمأكول

والمنكوح يصوره بما يستقل ، لهذا يعدل الانسان فى هذه الأمور من شىء الى شىء مستريحا الى الثانى عند الملال من الأول ، ولهذا يستكثر من ألوان الطبيخ • ولهذا يعدل فى النكاح عن الحلال الحاصل الى الحرام المستحدث ، وربما كان من يتمكن الانسان منها أصبح وجها ممن لا يتمكن ، وليس الغرض فيه الا الاستلذاذ للجديد ، فالأمر فيما ذكره اذن على العكس مما قاله •

فان قيل : فنحن نعلم أن بعض أهل البلدان يستلذون من الأطعمة والملابس ما لا يستلذه أهل بلد آخر ، وليس ذلك الا للالف •

قيل له : ذلك يكون اذا اختلفت الأجناس ، كما أن أهل (طبرستان) يستلذون خبز الأرز ، فوق ما يستلذون خبز البر • فأما اذا كان الجنس واحدا ، فلا شك فى مزية المستحدث الجديد • ولهذا قيل فى المثل : « لكل جديد لذة » •

ولهذا قالوا فى القرآن : **« انه لا يخلق ولا يمل على كثرة الرد »** • فجعلوا ذلك من آياته • ولا يكسب الملال اذا كثر ترديده ، ودامت تلاوته • يجرى الأمر فيه على خلاف المعتاد ، على أن ما ذكره لو كان صحيحا لبطل التفاضل بين الأشياء فى ذواتها ، وكان الفضل يرجع الى المعتاد المتقادم ، وكان المكثر لانشاء شعر الحبرزى اذا أنشد فى النادر شعر امرىء القيس ، وكان عارفا بالشعر ، ومحاسنه ومساوئه ، وبالفرق بين الكلام الفصيح وغير الفصيح ، يجب أن يرى شعر الحبرزى على طبقة من شعر امرىء القيس ، وهذا لا يرتكبه الا جاهل ، فكان يجب على هذا أن يكون الذى يكثر عنده الجوارى الزنجيات القبائح ، اذا وجد رومية حسناء أن يكون استلذاذه للزنجيات القباح أشد ، وهذا هوس لا يظنه عاقل •

فأما مد الحنجرة به ، فأى تأثير له فى مواقع الكلام ؟ أما يعلم هذا الجاهل : أن الانسان قد يسمع كثيرا من الأبيات الملحنة من المغنين والقوالين ، ثم لا يخفى عليه اذا كان من أهل الصناعة : الفرق بين جيدها ورديئها وفصيحها ومسترذلها ، ثم لا يخفى عليه الفرق بين الردىء الذى سمعه ملحنا ، وبين الذى لم يسمعه قط ملحنا ؟ فاى

تأثير فى هذا البـــاب لمد الحنجـــرة ؟ لولا أنه كما قال عـــز وجل :
« فانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »(٢٢) •

فان قيل : فهبكم قد عرفتم التفاوت الذى بين القرآن ، وبين كلام هذا الانسان ، وعلمتم أنه لا يصح أن تكون معـــارضة للقرآن للوجوه التى ذكرتموها ، والأمثال التى ضربتموها ، فكيف تعرفه العامة والذين لا يعرفون ما ذكرتم وبينتم ؟

قيل لهم : طريق معرفتهم ، هو أنهم يعـــرفون الأخبـــار التى تتواتر عليهـــم • ان مثلا أهل العراق ، ومن نحا نحوهم ، وكذلك الفرس وأشباههم تقصر فصاحاتهم وبلاغاتهم فى منثور الكلام ومنظومه عن فصاحة العرب من أهل البادية وبلاغاتهم • اذا عرفوا ذلك وعرفوا عجز العرب عن الاتيان بمثل القرآن بما نبينه عرفوا عجز من دونهم ، لأنه لا يجوز أن يعجز عن الشىء من يكون فى الطبقة العليا من التمكن ، ولا يعجـــز عنه من يكون فى الطبقة الدنيـــا فيحصل لهم العلم بهذا الاعتبـــار •

ان ما أتى به هذا الجاهل لا يصح أن يكون معارضا للقرآن • وأن القرآن معجز • والحمد لله رب العالمين على ذلك •

---

(٢٢) الحج : ٤٦

الكلام فى بيان أن الاعراض عن المعارضة انمـا كان للتعذر

فان قيل : ولم ادعيتم أن العرب كفت عن معارضة القرآن لتعذرها عليهم ، وما أنكرتم أن يكونوا كفوا عنها وتركوها لبعض أغراض كانت لهم ، فان الناس قد تصرفهم الصوارف عن كثير مما يتمكنون من فعله ؟

قيل له : قلنا ذلك لأنهم كفوا عن المعارضة وتركوها وعدلوا عن الاشتغال بها مع ما كان من النبى ــ صلى الله عليه وآله ــ من التحدى لهم على ما بيناه مع توفر دواعيهم لتوهين أمره ، واظهار ما كانوا يدعون من افترائه ــ صلى الله عليه ــ وحاشاه من ذلك • وقد علمنا : أن العقلاء اذا دعوا الى أمر يكرهونه ، يهون عليهم لدفعه وابطاله بذل أموالهم وأنفسهم ، وكان من يدعوهم الى ذلك يدعوهم لحجة يبرزها ويدعيها وكانوا متمكنين من ايراد ما يدحضها ويبطلها ، ويكشف عن ضعفها ووهنها من غير ضرر يمسهم ، أو مشقة عظيمة تلحقهم • فلا بد من أن يأتوا به ، ومتى لم يأتوا به ، دل على أنهم غير متمكنين من الاتيان به ، ألا ترى أن واحدا لو جاء وادعى النبوة فى قوم ، وهم له كارهون ، ولتكذيبه مجتهدون • فقال لهم : معجزى أن من كلمته منكم فى هذا اليوم لا يمكنه أن يجيبنى ، ثم أخذ يكلمهم طوال النهار من غير أن يجيبه أحد منهم ، مع وفور بواعثهم على توهين أمره ، وتنفير أصحابه عنه باظهار كذبه • دلنا ذلك على أن جوابه قد تعذر عليهم ، وأن ذلك معجز له ، وهذا مما لا يخيل على أحد أنصف نفسه أنه على ما قلنا •

وجملة هذا الباب : أن كل من علمنا من حاله أنه لا يفعل فعلا ما ، مع توفر الدواعى اليه ، وقوة البواعث عليه ، ومع ارتفاع الموانع عنه ، وفقد الحواجز دونه • يعلم أنه لم يفعله الا لتعذره عليه • ولولا ذلك ، لم يكن لنا طريق من جهة الاكتساب يتوصل به الى العلم بتعذر شىء على أحد • وفيما ذكرناه وأوضحناه دليل على أن معارضة القرآن كانت متعذرة على العرب •

فان قيل : فأنتم بنيتم كلامكم هذا على أن دواعيهم كانت متوفرة الى ما ذكرتموه . فدلوا عليه .

قيـل له : من أوضح ما يدل على قوة دواعى المرء الى أمـر من الأمـور ، يعرف من حاله أنه قد بذل لطلبه ونيله ، والتوصل اليه أعز الأشياء عليه . وقد علمنا أن أعز الأشياء على الانسان : النفس ، والمـال ، والأرحام . ووجدنا مشركى العرب من قريش وغيرهم قد بذلوا الأنفس والأموال ، وقطعوا الارحام لمعاداة رسـول الله — صلى الله عليه — ولادخال الوهن عليه ، وابطال ما كان يدعيه من النبوة ، وبذل هذه الأمور ، لا تصح من العـاقل ، لابتغاء أمر ، وطلب حال . الا اذا كانت دواعيه اليه ، وبواعثه عليه ، تكون قد بلغت فى القوة مبلغا عظيما ، حتى قاربت حد الالجاء ، وان لم يكن بلغته . على أن الأسباب المقوية للدواعى والبواعث كانت حاصلة ، فلا بد من حصول قوتها لأن أقوى الدواعى أن ينظر الانسان الى نظرائه فى النسب ، ويدعى عليهم الرياسة ، وأنه يجب لهم الانقياد له ، والخضوع لأوامره ونواهيه فيمـا يحكم عليهم ولهم فى أنفسـهم وأموالهم وأهاليهم وذراريهم ، مع ذمه من خالفه منهم فلم يتبعه ، ولم ينقد له ، وتكفيره اياهم ، وذم أديانهم ، وما كان عليه آباؤهم وأسلافهم من غير رياسة كانت له عليهم ، ولا زيادة فى مال أو جاه أو ملك يتميز به منهم ، بل يكون فى القوم من يزيد عليه فى كثير من الأحوال ، ثم تكون أحواله مع ذلك فى ضمان القوة . وآخذة فى المزيد ، وأحوال القوم آخذة فى جانب التراجع ، ماضية فى حيز التهافت مع حصول تلقيهم بالامكان لجميع ما ادعاه ، ودعاهم اليه وشدة امتعاضهم لذلك مع أن القوم يعرفون بالعصبية ، وشدة الحمية . والقرآن مما كانوا يعتقدون أن عليهم فيه سبة وعارا ، وكل ما ذكرناه كانت أحوال القوم مع رسول الله — صلى الله عليه — فدل ذلك على قوة دواعيهم الى ما ذكرنا ، ولم يجز مع ذلك أن لا ينفع منه معارضة القرآن ، لولا تعذرها عليهم .

فان قيل : ما أنكرتم أن يكون القوم خفى عليهم أن معارضة القرآن أبلغ الأشياء فى ابطال دعواه وازالته عما كان يتوخاه ، فاعرضوا عنها الى ما سواها ، واشتغلوا بما عداها .

قيل له : هذا لا يجوزه من عرف أحوالهم ، لأنهم كانوا أعرف الأمم بمواقع المخاطبات ، ومذاهب المعارضات ، اذ تلك من عاداتهم السالفة ، وسجاياهم الحالفة . ولا يجوز أن يكون خفى عليهم ، أن معارضته لو تمكنوا منها تكون أبلغ الأشياء فى توصلهم الى مرادهم فيه ، لأنه — صلى الله عليه وآله — لم يكن يدعى ما كان يدعيه لتمكنه من مال أو سلطان أو اقتدار أو تعزز بشريعة يصدرون عن أمره فيما يمثله لهم من محاربة عدو أو معاونة ولى ، وانما كان يدعى أنه رسول الله — صلى الله عليه — وأن شعاره ودثاره الصدق ومجانبة الكذب ، ومن يكون كذلك لا يخفى على العقلاء أن أبلغ الأشياء فى تبديل حاله ، وتفريق أصحابه ورجاله عنه اظهار كذبه فيما يدعيه ، ويقوله .

وهب أن ذلك يخفى على الواحد والاثنين لغفلة تعرض — مع تعذر ذلك — كيف يجوز أن يخفى ذلك على العدد الكثير والجم الغفير ؟ وهب أن ذلك يخفى مدة من الزمان يسيرة كيف يجوز أن يخفى ذلك ثلاثا وعشرين سنة ؟ وهب أنهم ظنوا فى أول الأمر أنهم يقمعونه بالحرب والقتال . كيف يظنون ذلك بعد ما كشفت لهم تلك الحروب عن قوة أمره ، وضعف أمرهم ، بل قتل كثير من صناديدهم وساداتهم حربا وصبرا ، وسبى كثير من ذراريهم ، ونفى كثير منهم عن أوطانهم ؟

وهذا أوضح من أن يحتاج له الى تطويل الكلام .

فان قيل : ما أنكرتم أن يكــون ذلك خفى عليهم ، لأنهم كانوا اخوان الحروب ، وأصحاب الغارات ، ولم يتواتر أن ضربوا فى الجدل ، وطرائقه بسهم ، ولا ثبت لهم فى ذلك قدم ، ولم يكن النظر فى الديانات ، والبحث عن صحيحها وسقيمها ، والتنقير عن الطرق المؤدية الى الفصل بين الحجج والشبه من عاداتهم .

قيل له : هذا ما لا يجوز أن يخفى عليهم ، لأن علمهم بالمعارضات وطرقها كان أقوى علومهم ، ومعرفتهم بها أكثر معارفهم ، وما يجرى هذا المجــرى يكون العلم به ضروريا ، ثم العلم بأن من ادعى حالا من الأحوال واعتصم لصحته بأمر من الأمور ، فأقوى الاشياء فى ايضاح كذبه ، والابانة عن افترائه وتقوله ، هو تبيين فساد ما اعتصم به ، وسقوط ما التجأ لتصحيح دعواه اليه من العلوم الضرورية التى يشترك

فيها العقلاء ، والمراهقون الذين قارنوا كمال العقل ، وان لم يكونوا بلغوه ، ولهذا ترى المختلفين فى قيمة سلعة اذا ذكر المغالى بها سلعة على صفة ، يجب أن يغالى بقيمتها من أجل تلك الصـفة التى تحـد المخالف له فى ذلك أن يطعن فى تلك الصفة ، وينازع فيها ، ولا يشتغل بغير ذلك . وتجد الصبيين اذا ادعى أحدهما أمرا ، أحسن صراعا من الآخر لوجه يورده ترى المبارى له ينازعه فى تلك الصفة يحـاول ايراد ما يمنعه من الاحتجاج بها ، ثم تجد أحوال أصحاب المهن من الصناعات ، والمشتغلين بالزراعات يستوون فيما ذكرناه ، ويتبارون فيما حكيناه ، فاذا ثبت ذلك بأن ما ادعوا خفاءه على العرب من أحوال المعارضات باطل ، لا يدعيه عاقل .

على أنهم بعد مهاجرة النبى — صلى الله عليه — الى المدينة قد خالطوا أهل الكتاب ، واستعانوا بهم ولهذا انضم قريش وغطفان بعضها الى بعض ، وانضم اليهم اليهود الذين كانوا حـول المدينة ، يوم الأحزاب ، واجتمعوا وتناصروا ، وكان الساعى فى ذلك والجامع لشملهم ، والمؤلف بينهم « حيى بن أخطب » وهو القائل لرسول الله — صلى الله عليه — يوم قريظة حين قدم لضرب عنقه : « يا محمد ما لمت نفسى فى عداوتك »

واليهود كانوا يتعاطون النظر فى الديانات ، وكذلك النصارى ، فهلا تهيأ لهم من ذلك ما خفى على مشركى العـرب ؟ وهلا اهتم بها — أعنى اليهود والنصارى — اذ كان فيهم الفصحاء والبلغاء وأرباب الألسن ، لولا علمهم بتعذرها عليهم .

على أن ما روى عن الوليد بن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ، وأمية ابن خلف فيما تقدم ذكره ، يدل على أن القوم كانوا فطنوا لذلك ولم يكن خفى عليهم ، وكانوا قد صرفوا هممهم الى الاشتغال به ، فبان أن الذى أوجب كفهم هو التعذر . وانما كان لسهو عرض لهم ، وخطأ فى التدبير اتفق عليهم . فقد يعرض السهو فيما يكون العلم به ضرورة ، ويتفق الخطأ والذهاب عن الرأى فى كثير من التدبير .

ولهذا تجد الخطأ يكثر فى تدبير العقلاء فى الحروب والسياسات والأمور العامة والخاصة .

قيل له : ان الذى يجرى هذا المجرى من الخطأ والانحراف عن الصواب ان اتفق يتفق للواحد والاثنين ، والمرة بعد المرة فأما أن يكون العددالكثير من العقلاء ، تمر عليهم السنون ، وتكر عليهم الأعوام ، وهم على ضرب من السهو فيما يكون العلم به ضرورة • ولا يتنبهون عليه ، ولا يتنبه عليه واحد منهم ، على مر الزمان ، وتطاول الأعوام ، فذلك مما يستحيل ، ولا يجوز توهمه •

فان قيل : ان القوم كانت لهم صوارف صرفتهم عن الاشتغال بالمعارضة • فقابلت تلك الصوارف تلك الدواعى التى دعتهم ، ولا يمتنع فى الدواعى والبواعث أن يقابلها الصوارف ، فلا يحصل الفعل الذى دعت الدواعى اليه ، وان كان ممكنا غير متعذر •

قيل له : لا سبب الى ادعاء صوارف مجهولة ، ولا صوارف غير معلومة •• لأن ذلك يؤدى الى أن لا يمكن الفصل بين ما يتعذر فعله علينا ، وما لا يتعذر • فاذا ثبت ذلك • فالصوارف المعلومة لا تخلو من وجوه نذكرها ، اما أن تكون طلبتهم الراحة ، وفرارهم من التعب الذى يلحقهم بالاتيان بالمعارضة أو ايثارهم الابقاء عليه — صلى الله عليه — حشمة له ، وكراهة لمكاشفته ، واستشعارهم خوفه ، وخشيته • واستهانتهم به ، واشتغالهم بالحروب ، أو ظنهم أن غير المعارضة أجدى عليهم ، وأدنى الى مرادهم •

ولا يصح أن يقال : ان القوم مالوا الى طلب الراحة ، من الاشتغال بالمعارضة ، لأنهم قد باشروا بمعاداته — صلى الله عليه — أمورا ، هى أكثر تعبا وأشد نصبا ، وأعظم خطرا ، من المعارضة • فانهم بذلوا الأموال والمهج ، وحاربوا حتى قتلوا وقتلوا وفرقوا كلمة العشيرة ، وقطعوا الأرحام القريبة ، وواصلوا أولى الأسباب البعيدة ، ولا يخفى على أحد من العقلاء : أن المعارضة لو أمكنتهم كانت تكون أقوى مشقة ، وأقرب متناولا ، وأيسر مطلبا ، وأذهب مع الراحة ، وأدنى الى السلامة •

ولا يصح أن يقال : انهم آثروا الابقاء على رسول الله — صلى الله عليه — واحتشموه وكرهوا مكاشفته ، لأن القوم لم يدعوا من

قبح معاملته — عليه السلام — بابا الا قرعوه ، بل ولجوه ، حتى حملوا أختانه على طلاق بناته — صلى الله عليه — فقالوا : نشغله بهن حتى لا يتفرغ الى ما هو فيه ، فأجابهم الى ذلك عتبة وعتيبة ابنا أبى لهب ، وردهم أبو العاص بن الربيع ، وقالوا لأبى طالب : ندفع اليك فتى قريش وأصبحهم وأفصحهم : عمارة بن الوليد بن المغيرة لتتبناه ، وتدفع الينا محمدا فنقتله • فقال أبو طالب : بئس الرأى رأيتم لى ، آخذ ولدكم للتربية ، وأسلم ولدى للقتـــل ؟ وكتبوا الصحيفة على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا يؤوهم ، ولا ينكحوهم ، ولا ينكحوا اليهم ، وأحلوا كثيرا من أصحابه — صلى الله عليه — الى المهاجرة الى الحبشة والى المدينة ، واجتمعوا فى دار الندوة يدبرون عليه ، كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله تعالى :« **واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك ، أو يقتلوك ، أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير المـــاكرين** »(١) •

وهذا يسير من كثير مما عاملوه به — صلى الله عليه — بل طل من وابل ، بل وشل من بحر • فكيف يظن بهم أنهم آثروا الابقاء عليه ؟

ولا يصح أن يقال : ان القوم تركوا المعارضة خوفا عليه ولأصحابه ، وخشية لهم ، لأن جميع ما قدمنا يدل على أن القوم لم يخافوه ، ولم يحذروا جانبه • ولا يصح أن يقال : انهم أعرضوا عن حديث المعارضة ، اســـتهانة به — صلى الله عليه — وقلة اكتراث بأحواله ، لأن جميع ما قدمنـــاه يبين أن القوم كانوا مهتمين بأمره ، بل كانوا قـــد جعلوا الاشتغال أوكد مهماتهم ، ثم الحروب التى جرت بينهم وبينه — صلى الله عليه — بعد مهاجرته الى المدينة ، توضح جميع ما قلناه من أنهم لم يحتشموه ، ولم يخافوه خوفا يصرفهم عن ايحاشه ، ولم يستهينوا به استهانة دعتهم الى ترك الفكر فيه ، والانشغال بأحواله •

ولا يصح أن يقال : ان اشتغالهم بالحروب صرفهم عن المعارضة ، وأقطعهم دونها ، وصدهم عنها لأنه كان بين مبعثه — صلى الله عليه — وأول وقعة عظيمة ، وقعت بينه وبينهم وهى وقعة بدر نحوا من خمسة عشر سنة • فأين كانوا طول هذه المدة ؟ ثم كان بين وقعة بدر ووقعة

---

(١) الأنفال : ٣٠ وانظر آل عمران : ٥٤

أحد نحو سنة ، ثم من بعد ذلك أيضا لم تكن الوقائع بحيث لا تنفس ، ولا ترجيىء من الأعنة ، وكثير من تلك الوقائع هم الذين كانوا يبتدؤنها . فهل عدلوا عنها الى المعارضة لو كانت ممكنة لهم ؟ على أن الحروب لا تمنع من المعارضات . وهذا واضح .

ولا يصح أن يقال : انه خفى عليهم أن المعارضة أجدى عليهم وأدنى الى ما طلبوه من توهين أمره ، لما بيناه من قبل أن ذلك مما لا يجوز أن يخفى على المراهقين فضلا عن العقلاء ، وأن العلم بذلك من علوم الضرورة .

فان قيل : ما أنكرتم أن تكون الدواعى دعتهم الى تكذيبه وابطال دعواه ، وتوهين أمره دون معارضة اذ كان ذلك غرضهم ومرادهم . فمن أين لكم أن الدواعى دعتهم الى المعارضة ؟

قيل : قد علمنا أن الداعى الى الشرع داع الى أبلغ ما به يتوصل اليه سبحانه ، اذا كان ذلك من أيسر الأمور وأسهلها فى التوصل اليه ، ألا ترى أن من دعاه عطشه الى شرب الماء ، فانه يدعوه الى استدعائه ، ان كان ذلك أخف وأيسر أو استعبابه ان كان ذلك أدنى وأسهل ، أو اشترائه ان كان ذلك أهون وأقرب . فاذا ثبت ذلك ثبت أن الداعى لهم الى ابطال أمره وتكذيب دعواه ، وافساد حاله — صلى الله عليه — كان داعيا لهم الى المعارضة لعلمهم بأنهم لو أتوا بها كانت أبلغ الأشياء فى التوصل الى مرادهم ، مع أنها أسهل الأمور فى ذلك وأيسرها ، ويمكن أن يورد هاهناأسئلة ضعيفة تركنا ذكرها ، لوجهين . أحدهما : ما كان من كراهتنا لتطويل الكتاب . والثانى : أن ما قدمناه من الابتداءات والأجوبة يأتى عليها ، اذا تأملها المتأمل ، ونظر فيها الناظر .

على أن القرآن لابد من أن يكون قد وقع على وجه يكون بوقوعه عليه ناقضا للعادة ، أو يكون وقع خلاف ذلك الوجه بأن يكون وقع كما يقع سائر الكلام المعتاد ، فلا بد من أن تكون العرب عارفة بذلك . لأن أحوال الكلام لم تكن تخفى عليهم ، فان كانوا عرفوه ناقضا للعادة ، فقد بان أنهم تركوا معارضته لتعذرها عليهم ، وان عرفوه جاريا مجرى الكلام

المعتاد ، فلا وجه من أجله يكونون تاركين لمعارضته ، وإذا لم يعارضوه • فقد صح أنهم تركوها للتعذر ، لوقوع القرآن على وجه يكون ناقضا للعادة ، ولا يصح أن يقال انهم شكوا فى حال ، لأن علمهم بمثل هذا علم ضرورة ، على أنهم لو شكوا كان أقل ما يكون منهم أن يجربوا أنفسهم ، ليحصل لهم العلم به بذلك فيعود الأمر الى ما قلناه ، من أنه لا بد من أن يكونوا عرفوا ذلك ، وتحققوه ، ولا يصح أن يقال : تركوا معارضته ، لأنهم وجدوه كسائر الكلام المعتاد الذى كان يجرى بينهم دائمـا فى محاوراتهم ومخاطباتهم ، لأن العلم بأنه بخـلاف ذلك علم ضرورى • ولأن ذلك لو كان كذلك لجرى مجرى أن يدعى النبوة ، ويتحداهم بأنه يأكل ويشرب ويقوم ويقعد ويتصرف كما يتصرف غيره ، ويجعل ذلك معجزته ــ صلى الله عليه ــ وهذا لا يجوز أن يقع من العاقل الذى يكون غرضه أن يعظم فى الصدق ، ويعتقد فيه أنه ممن يجب أن يطاع ، وأن يأتمر الخلق لأوامره ، وينزجروا عند زواجره ، لأن ذلك مما يجرى مجرى التسوية بالنفس اليه يؤدى الى أن يسخر منه ويستهزأ به ، ويسقط بايراده من العيون ، وتنحط منزلته • لأن ذلك ممـا ينفر عنه أصحابه ، ويمكن أعداءه من التسلق عليه ، ولأن ذلك لو كان كذلك لاحتج به الأعداء وقرعوه ، وقرعوا أصحابه • وهذا يوضح بطلان قول من يتعلق بذلك •

الكلام فى بيان أن القرآن يجب أن يكون معجزا اذا تعذرت معارضته

فان قيل : فلم قلتم ان تعذر المعارضة اذا ثبت يكون القرآن معجزا ؟

قيل له : لأنه قد ثبت أن المعجز هو ما يظهر على بعض الناس مما يتعذر الاتيان بمثله على جميع البشر ، لحسنه أو لصفة تخصه ، فاذا ثبت ذلك ، ثبت أن الاتيان بمثل القرآن قد تعذر على جميع البشر ، وثبت أنه معجز ، وأنه جار مجرى أحياء الموتى ، وفلق البحر ، وقلب العصا حية ، والمشى على الماء ٠

فان قيل : ولم ادعيتم تعذره على جميع البشر ٠ وانما بينتم حال العرب ، وتعذره عليهم ؟

قيل له : قد علمنا أن البشر أجمع ثلاث طبقات ٠

أحدها : عوام الفرس ، والهند والروم والزنج ، ومن جرى مجراهم من سائر الأمم ، الذين لا علم لهم بشىء من لغات العرب بتة ، ولا سبيل لهم الى نظم سطر واحد منها على وجه من الوجوه ٠

والثانية : هم الذين تعلموا اللغة وتكلفوا معرفتها ، وهم طبقات ٠ فمنهم من لم يتعلق منها الا باليسير الذى لا تأثير له ، ومنهم من تجاوز ذلك الا أنه لم يبلغ مبلغا يعد به فى الفصحاء ، ولا يتأتى له التصرف فى شىء من أقسام الكلام على وجه يعد فصاحة وبلاغة ٠ ومنهم من تجاوز ذلك الى أن كاد يناطح فصحاء العرب ، ويباريهم فى أقسام المنظوم ، وأصناف المنثور ٠

والثالثة : هم فصحاء العرب الذين حصلت لهم مزايا الفصاحة طبعا لا تكلفا ، وسجية لا تعملا ، ولا اشكال على أحد فى أن الاتيان بمثل القرآن متعذر على الطبقة الأولى ، الذين لا معرفة لهم بشىء من لغات العرب ، والطبقة الذين يلونهم ، وهم الذين أخذوا منها يسيرا لا يؤبه لمثله ٠ والطبقة الذين يجاوزونهم ، الا أنهم لم يلحقوا بشأو

الفصحاء ، ولم يحلوا بواديهم ، وهؤلاء لا يتعذر عليهم صياغة بيت من الشعر لكن لا يعد فى الفصاحة ، وانشاء رسالة ، أو خطبة لكن لا يحكم لهم بالبلاغة . وانما يقع الاشتباه فى حالة الطبقتين الآخريين ، وهم الذين بلغوا من هؤلاء مرتبة الفصحاء ، ولحقوا بدرجة البلغاء ، وتصرفوا فى أقسام الكلام ، ثم فصحاء العرب الذين جاوزوا الفصاحة والبـلاغة طبيعة وجبلة .

وقد بينا تعذر الاتيان به على هاتين الطبقتين بما تقدم بما لا فائدة فى اعادته ، فاذا ثبت ذلك وثبت أن جميع البشر لا يعدون الأقسام التى ذكرناها ، ثبت تعذره على جميع البشر ، واذا ثبت تعذره على جميع البشر ثبت أنه معجز على ما بيناه . على أنه اذا ثبت أنه قد تعذر على فصحاء العرب ، وهم الطبقة العالية فى هذا الباب فتعذره على الطبقة التى هى دونهم ، وهم سائر الفصحاء مما لا شبهة فيه . على أنه يمكننا أن نعرف تعذره على هؤلاء بمثل ما أمكن تعذره على العرب لأن الأزمنة كلها لم تخل ممن كان يعادى النبى — صلى الله عليه وآله — ويناوىء الاسلام . اما اعتقادا أو تقربا الى من كان يعتقـد ذلك ، أو تكسبا به ، حتى استفرغوا فى ذلك جهدهم ، واستنفذوا وسعهم على ما تقدم طرف من ذكرهم .

فاذا لم يأتوا به صح تعذره عليهم . ولا يجب أن يظن ظان أن المتأخرين أشـد تمكنا فى هذا البـاب من المتقدمين ، من حيث فرعوا التحسين والتطبيق ، وعطف أعجاز الكلام على صدره ، والاستطراد ، والتشبيه ، والاستعارة ، وما جرى مجرى هذا مما يعد فصاحة . وذلك أن المتقدمين كانوا أعرف بجميع هذه المحاسن من المتأخرين ، وكانوا أشد تمكنا من ايرادها مواردها ، ووضعها فى مواضعها ، وان لم يكونوا وضعوا هذه الأسماء ، وكانوا يجرون فيها على طبائعهم من غير تكلف لها ولا تعمل . وذلك مما يزيد الكلام حسنا ويكسبه رونقا ، والمعرفة بهذه الأمور على حدها يعرفه المتأخرون ، ووضع الأسماء لها مما لا يصير الانسان به أفصح ولا أشعر ولا أخطب . وانمـا يصلح به الانسان الفاسد ، ويضم المتشعب ، ويسدد المختل .

لهذا تجد من يعرف كل ما ذكرنا ونعتنا ، ويتصوره ويتحققه ، ويفصل بين غثه وسمينه ، ومستحسنه ومسترذله . ثم اذا أراد أن

يعمل قصيدة ، أو يبتدىء خطبة ، أو ينشىء رسالة ، عجز عن انشائها .
والمتقدم الذى لم يحصل له العلم بهذه الأسماء والأوصاف . وهذا يجرى
مجرى العلم بالعروض وألقابه . ألا ترى أن التقدم فى ذلك لا يوجبه
التقدم فى الشعر . ألا ترى أن الشعراء المتقدمين من جاهلى أو مخضرمى
أو اسلامى ، كان قبل « الخليل » لم يعرف شيئا من ذلك ، ثم من جاء
بعدهم لم يلحق شأوهم من حيث عرف ذلك ، بل ان ينشأ بعدهم من
ضرب فى جنس الشعر بسهم فلطبع أوتى ، لا لمعرفة بهذه الأمور ،
فبان بجميع ما بينا أن المتأخر الذى تكلف العلم باللغة ، وتعلم المحاسن
والمساوىء بالتعمل ، لا يجب أن يوفى فى هذا البـــاب المقصود على
المتقدمين من فصحاء العرب الذين جروا على طريقة الفصاحة فى منظوم
كلامهم ومنثوره ، طبعا وسجية ، ولهذا تجد فيمن يعد فى الشعر مفلقا من
اذا ترسل اختل اختلالا ظاهرا ، وفى المتقدم فى الرسائل ، من اذا حاول
النظم بعد بعدا متفاوتا ، وهذا يكشف أن التكلف والتعمل لا يبلغان
المرء طبقة الفصحاء ، ولا يلحقانه شأو البلغاء ، ولهذا تجد المكثر فى
اللغة والعلم بأقسام الفصاحة والمعرفة بمحاسن النظم والنثر ومساوئهما
اذا لم يكن له طبع فى الشعر والترسل يسقط اذا حاول الشعر أو الترسل
عن درجة المطبوع فيهما وان كان مقلا فى جميع ذلك وبضاعته منها
مزجاة سقوطا ظاهرا أو يهبط عن رتبته هبوطا بينا ، كالخليل بن أحمد ،
ومن نحا نحوه من العلماء الذين لم يكونوا أولى طبع .

فان قيل : لو كان القرآن معجزا لأنه لم يعارض ولم يؤت بمثله لوجب أن يكون المجسطى وأقليدس والعروض كل واحد منه معجزا يدل على نبوة من أتى به . واذ قد ثبت بطلان كون هذه الكتب معجزا ، فيجب أن يبطل كون القرآن معجزا على ما ادعيتموه .

قيل له : هذا كلام من لم يعرف وجه استدلالنا فحرمه ، ولم
يذكره على جهته ، وألزم عليه مالا يلزم ، ونحن نبين ذلك بعون الله
عز وجل ، ونكشف عن سقوط هذا السؤال .

اعلم . أنا لم نقل ان القرآن معجز لأنه لم يؤت بمثله قط ، بل لأنه تحدى به ، ولم يؤت بمثله ، مع سائر الشروط التى ذكرناها ، وكتاب
المجسطى وأقليدس ، وما جرى مجراهما من الكتب ، لا يصح أن يقع

التحدى به ، لأنه ان تعــذر على غير من أتى به يكون تعــذره لأحد وجهين :

اما أن يكون قد استنفذ الطرق ، فلم يبق هناك طريق آخر لذلك الشىء ، وما جرى هذا المجرى الاتيان به مستحيل لا تصح القدرة عليه ، وما لا تصح القدرة عليه لا يصح التحدى به ، ألا ترى أن انسانا لو أتى بشعر مركب من هذه الحروف التى هى ثمان وعشرون ، ثم تحدى به فقال : ائتوا بمثله من غير هذه الحروف لم يصح التحدى به ، لأنه ليس فى المقدور ، وكذلك لو قال : انى أضرب واحدا فى واحدا فيكون واحدا • أو اثنين فى واحد ، فيكون اثنين • واثنين فى اثنين فيكون أربعة ، واثنين فى ثلاثة فيكون ستة • واثنين فى أربعة فيكون ثمانية ، واثنين فى خمسة فيكون عشرة ، وثلاثة فى ثلاثة فيكون تسعة • وثلاثة فى أربعة فيكون اثنا عشر • وثلاثة فى خمسة فيكون خمسة عشر ، وأربعة فى أربعة فيكون ستة عشر • وأربعة فى خمسة فيكون عشرين • وخمسة فى خمسة ، فيكون خمسة وعشرين ، ثم تحدى ، وقال : اضربوا بعض هذا العدد ببعض ، وأتوا بكامل غير ما أتيت به ، كان ذلك لا يصح لأن ما تحدى به يكون مستحيلا ، أو جرى مجرى أن يفعل حركة فى جسم فيقول : افعلوا فى غير جسم أو جوهر •

أو يكون التعذر الآن غيره • لم نعمل فيه العكس ، ولم نمتحن ولم نتعلم ، وهذا أيضا لا يصح التحدى به ، لأن ذلك يجرى مجرى تعذر الصياغة على النجار ، والنجارة على الخياط •

ألا ترى أن كل من أفكر فيه فكره ، وتعمل له تعمله • يأتى منه مثل ما يأتى به المتحدى حتى لا يكون بينهما من التفاوت الا مقــدار ما يكون بين الصانعين من الذكاء والبلادة • فاذا ثبت ما بيناه ، وثبت أن المجسطى وأقليدس والعروض ، وما أشبههما من الكتب يمكن التوصل اليه ، بالفكر والتعمل والتعلم والامتحان ، ثبت أنه مما لا يصح التحدى به ، واذا ثبت ذلك ثبت أنه لا يصح أن يلزم كونه معجزا على قولنا : ان القرآن معجز • لأن الاتيان بأسلوب من الكلام فى أعلى طبقات الفصاحة أو فى الطبقة العالية بالفكر والتعمل مما لا يصح على وجه من الوجوه • بل لابد فيه من طبع لا طريق اليه للتكلف والتعمل •

ألا ترى — ولا نشك — أن الخليل بن أحمد كان أكثر فى اللغة والعلم بأوزان الشعر وعيوبه ومحاسنه من امرىء القيس لأن امرىء القيس كان الظاهر من أمره أنه كان يعرف لغة قومه ، والقوم الذين قاربوهم ، والخليل تعلم اللغة حتى أحاط بها ، ومع ذلك فلا يشك أن الخليل كان لا يمكنه أن يقول من الشعر ما يماثل شعر امرىء القيس أو يقاربه • ولهذا نرى ما بيننا المكثر من علم اللغة ، ومحاسن الشعر ومساوئه اذا لم يكن مطبوعا فى الشعر لا يمكنه أن يأتى من الشعر مثلما يأتى به المطبوع الذى لا يبلغ علمه باللغة ومحاسن الشعر ومساوئه معشاره ، بل ربما لم يمكنه أن ينظم بيتا واحدا الا بجهد عظيم ، وتعب شديد • ثم اذا أتى به أتى به فى غاية الوحشة ونهاية السقوط • وهكذا حال انشاء الرسائل والخطب والتوسع فى المحاورات •

فان قيل : ان المجسطى وان كان يمكن أن يتوصل اليه بالامتحان والفكر والتعلم فقد كان فى مبادئه مالا يمكن ذلك فيه ، ولا طريق للتوصل اليه بالامتحان والتعمل •

قيل له : هذا ان صح فقد قالوا هم : ان ابتداءه كان من (هرمس) وأن هرمس هو ادريس النبى — صلى الله عليه — وان كان فيه ما سبيله هذا السبيل فيجب أن يكون معجزا يدل على نبوة من أتى به • ولهذا قال كثير من العلماء فى علم النجوم وعلم الطب : انهما كانا فى الأصل مما أتت به الأنبياء — صلوات الله عليهم — وأنه لا سبيل للخلق الى الاتيان بمثله • فهذا مما يجب أن ينظر فيه • الا أن سؤال القوم قد سقط لأنه اذا صح وثبت ما ادعوه وجب أن يكون ذلك القدر منه معجزا •

على أن المجسطى واقليدس وما أشبههما من الكتب لو صح التحدى به لم يلزمنا أن نقول : انه معجز • على قولنا : ان القرآن معجز • لأنا لم نعلم أن القرآن معجز بأن صح التحدى به ، وانما عملنا ذلك لأن النبى — صلى الله عليه وعلى آله — أتى به قوما ، هم فى الفصاحة والمعرفة بأساليب الكلام مثله أو دونه بيسير فتحداهم به وقرعهم بالعجز عن الاتيان بمثله ، وادعى عليهم أنهم له فى حكم العبيد فى نفوذ أحكامه فيهم ، وأنهم يلزمهم مفارقة ما كانوا عليه من الدين وتكفيرهم لم يفارقه والانقياد له ولأوامره ، والقوم له كارهون وفى

تكذيبه جاهدون ، وظهرت قوة دواعيهم الى كل ما دعى الى افساد أمره وتوهين حاله واظهار كذبه ولم يأتوا بمثله • فدلنا ذلك : على أنه كان متعذرا عليهم ولم يثبت فى المجسطى وما جرى مجراه شىء من ذلك لأنه لم يثبت أنه أتى قوما مثله فى تلك الصناعة وتحداهم بالعجز عن الاتيان بمثله ، وجعله لنفسه حجة عليهم فى أنهم يلزمهم الجرى على أحكامه والتصرف تحت أوامره ونواهيه مع كراهة القوم له ولأحواله ووفور بواعثهم الى افساد أمره والابانة عن كذبه • وأنهم لم يأتوا بمثله مع تطاول الزمان على تلك الأحوال • فاذا لم يثبت شىء من ذلك فكيف يلزمنا أن نقول : انه كان معجزا ؟ وماله • قلنا : ان القرآن معجز لم يحصل له •

فان قيل : قد علمنا أن تفرد الواحد بضرب من الفضل حتى يذكر به ، ويرؤس بتحصيله ، مما يحرك طبع غيره على الاتيان بمثله ، فيجرى ذلك مجرى التحدى •

قيل له : هذا لا يقوله من عرف أحوال الناس وعاداتهم ، **لأنا نعلم من أحوال كثير من العلماء** الذين يتقدمون فى كثير من العلم ، **انهم لم يكن لهم دواعى الى تصنيف الكتب فى العلوم التى برعوا فيها** ، بل ربما لم يجد الواحد منهم ، اذا علم أن غيره قد كفاه المؤنة فى ذلك ، وأتى بما كان مراده كان ذلك صارفا له عن الاشتغال به ، وان جاز أيضا أن يتفق ذلك • ما سأل عنه السائل ، لكن ذلك لا يمكن الابانة بعلم أن للقوم أحوالا ، كأحوال من عادى رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله — من كفار قريش ، وسائر العرب على ما بيناه • ومتى ما مرت الأحوال على ذلك ، فلا بد من الاتيان بمثل ما أتى به من كان معهم فى مثل حال النبى — صلى الله عليه وعلى آله — الا أن يتعذر ذلك عليهم • فأما مقدار ما سأل عنه السائل • فلا يجب من سائرهم أن يقع الاتيان بمثل ما أتى به بعضهم ، وان كان ممكنا لهم •

فان قيل : فاذا لم يعلموا تلك الأحوال فشكوا فى كونه معجزا •

قيل له : الوجه الأول يمنعنا من الشك ، ويوجب القطع على أنه ليس بمعجز ، وأنه يجرى مجرى سائر الصناعات والمهن ، **لأنا قد بينا أن التحدى مما لا يصح كما لا يصح ذلك فى الصناعات والمهن •**

فان قيل : فما تنكرون على من قال : أن القرآن هو من هذه الحروف وجنسها مقدور للبشر ، ولا يصح ان يكون المعجز جنسه فى مقدور العباد لأنه يؤدى الى التناقض ، لأن من شأن المعجزات أن يتعذر على العباد ، وما كان جنسه مقدورا لهم ، فهو متأتى منهم • والتأتى ينافى التعذر ، واذا كان ذلك كذلك لم يصح أن يكون القرآن معجزا •

قيل له : هذا الذى ادعيت من التناقض على الوجه الذى ظننت ظاهر السقوط ، **لأن جنس الشىء ، وان كان مقدورا للعباد ، فانه لا يجب أن يصح فعل ذلك الشىء منهم على كل وجه ، بل لا يمتنع أن يتعذر فعله على بعض ألوجوه ، وان صح فعله على وجه آخر** ، وهذا لا يؤدى الى التناقض ، لأنه من الوجه الذى يتأتى لا يتعذر ، ومن الوجه الذى يتعذر لا يتأتى ، وانما يتعذر ما يتعذر بما يكون جنسه مقدورا للعباد ، لأن القادر ربما احتاج لايقاعه على وجه مخصوص الى كونه عالمـــا ، أو فى حكم العالم ، أو يحتاج الى الآلة ، وما يجرى مجرى الآلة ، فاذا قصد الآلة فيما يحتاج لفعله على وجه مخصوص الى الآلة ، أو القلم فيما يحتاج لفعله على وجه مخصوص الى كونه عالمـــا تعذر فعله على ذلك الوجه ، وان كان جنسه مقدورا •

ألا ترى أن الفعل المحكم ، وان كان جنسه مقدورا لمن ليس بعالم فانه يتعذر عليه ، ولا يتأتى مثله ، ألا ترى أن هذه الحروف أجمع مقدورة للناس أجمع ، ومع هذا فلا يصح من أحد ايقاعها على وجه يكون متكلما بلغة العرب اذا لم يكن عالمـــا بلغتهم ، وكذلك لا يصح ايقاعها من الأعرابى على وجه يكون متكلما بلغة الفرس ، اذا لم يكن عالمـــا بلغتهم ، وكذلك حكم الصـــناعات أجمع كالكـــتابة والصـــناعة وغيرهما ، لأن جنس ذلك أجمع مقدور للجميع ، ثم ايقاعها على وجه الاتقان والاحكام يتعذر على من لم يكن عالمـــا بتلك الصناعة ، وكذلك الآلة أيضا • ألا ترى أن الخياط يتعذر عليه الخياطة مع كونه قادرا عليها ، وعالمـــا بها اذا فقد الابرة ، وكذلك الصانع اذا فقد المطرقة ، وسائر الآلات التى يحتاج اليها ، ولهذا يتعذر علينا الطيران ، وان كنا نقدر على جنسه ، لأن جنسه انما هو الأكوان ، وانما يصح منا لفقدنا الآلة التى هى الريش والجناح ، ونظائره أكثر من أن تعد وتحصى •

فاذا صح ذلك وثبت وصح سقوط قول من قال انه يتناقض كون الشيء مقدورا لنا ، متعذرا فعله علينا ، على وجه مخصوص فاذا ثبت ذلك جاز أن يكون القرآن معجزا يتعذر فعل مثله على جميع البشر ، وان كان جنسه مقدورا لنا يكشف ذلك : أن فلق البحر جنسه مقدور لنا ، وان كان يتعذر فعله على ذلك الوجه المخصوص على جميع البشر ، ألا ترى أنه تفريق أجزاء الماء على وجه مخصوص ، واحداث أكوان مخصوصة ، وذلك جنسه مقدور للبشر ، ألا ترى الله عز وجل لو بعث نبيا وجعل معجزته أنه ينقل بعض الجبال الراسيات عن موضعه لصح ذلك ، وان كان جنس نقله مقدورا لنا ، لأن نقله انما هو أكوان تحدث على وجوه مخصوصة ، وانما المراعى فى هذا الباب أنه يحصل أمر نعلم أنه يتعذر فعل مثله على جميع البشر سواء كان التعذر للجنس أو للصفة • ألا ترى أنه لا فرق بين فلق البحر ، وبين قلب العصا حية فى هذا الباب ، وان كان تعذر فلق البحر للصفة ، وتعذر قلب العصا حية للجنس •

فان قيل : فلم لا يجوز أن يكون ما يدخل تحت مقدور العباد معجزا ، لأن المشاهد له يجوز أن يكون ذلك من فعل بعض مردة الشياطين ، أو من فعل بعض من يعصى من الملائكة ، لأن العلم بأن الملائكة لا تعصى ، انما هو بطريق السمع • ونحن بعد فى اثبات السمع ؟

قيل له : لا يجب للناظر أن يشك فيه ، بل يجب القطع على أن الله عز وجل يمنع منه • وذلك أنه لو حصل لكان شبهة لا يمكن حلها • وما جرى من الشبه هذا المجرى يجب على الله عز وجل المنع منها •

فان قيل : ولم قلتم : أن ذلك يكون شبهة لا يمكن حلها ، بل ما أنكرتم أن يكون ذلك حجة لمن قال انه لا يجوز أن يكون المعجز مما يكون جنسه فى مقدور العباد ؟

قيل له : لأن هذا الجنس من الشبهة يصح ايراده فيما ليس يكون جنسه فى مقدور العباد ، بأن يقال يجوز أن يكون بعض الناس ظفر بشجرة اذا قطع غصنها ، وألقى على وجه مخصوص يصير حية ، ويكون ذلك عادة ، ويكون ظفر بشىء اذا مسح به الميت صار حيا من طريق

العادة ، ويجرى ذلك مجرى الخواص التى تحكى فى أشياء ، ألا ترى أن من لم يشاهد حجر المغناطيس ، ولم يسمع به اذا شاهده يحرك الحديد بغير مماسته يجوز كون ذلك معجزا ، وكذلك ما يحكى من الحجر المسمى : « باغض الخل » فقد حكى أنه اذا أرسل على اناء فيه خل انحرف ، وسقط خارج الاناء ، ولم يسقط فى الخل ، وكذلك نظائر كثيرة تحكى وتذكر فى الخواص ، وكل ذلك جائز من طريق العقل ، ولا جواب عن ذلك ، ان تعلق به البرهمى ، وحاول التوصل به الى ابطال النبوات رأسا ، الا ما ذكرناه من أن ذلك لو كان لكان شبهة لا مخلص منها فيجب على الله عز وجل المنع منها •

فان قيل : ما تنكرون على البرهمى ان ادعى أن ذلك ليس بشبهة ، بل هو حجة ، ويوجب ابطال النبوات ؟

قيل له : جوابه أنا نبين أن البعثة يجوز أن تصير واجبة بأن يعلم الله عز وجل أنها لطف للمكلفين ، فاذا ثبت ذلك فلو كانت واجبة لم يكن لها طريق الا المعجز ، فكل ما أدى الى ابطال المعجزات أجمع ، فيجب على الله المنع منه •

فان قيل : بين هذه الأشياء التى ذكرتم ، وبين ما يكون جنسه مقدورا للعباد ، أن هذه الأشياء لو وقعت عند ادعاء الكاذب النبوة ، لكان الله هو الفاعل لها على وجه يقبح ، والله عز وجل لا يفعل القبيح ، وما يكون جنسه تحت مقدور العباد لو وقع لوقع من مردة الشياطين ، ولا يمتنع وقوع القبائح منهم •

قيل له : لا فرق فى هذا الباب بين فعل القبيح والانصراف عن فعل الواجب ، لأن الله تعالى كما لا يجوز أن يفعل القبيح ، لايجوز أن يدع فعل الواجب ، لأن كل واحد منهما لا يكون الا من محتاج أو جاهل ، أو من يكون بالصفتين جميعا • ويتعالى الله عن ذلك ، واذا كان هذا هكذا ، فلا فصل فى أن يفعل تلك الأشياء عند دعوى الكاذب مع قبحها ، وأن هذا انصراف عن فعل الواجب ، وذلك فعل القبيح ، ولا فصل بينهما ، وان كل واحد منهما لا يجوز على الله عز وجل • على أن هذا أيضا يرجع الى أنه عز وجل لو أجرى الأمر على ذلك يكون قد انصرف

عن الفعل الواجب ، لأنه عز وجل ان كان أجرى العادة بتلك الأمور أن يفعلها ، فانه لا يجوز أن يفعلها عند دعوى الكاذب ، وذلك يجرى مجرى القبيح ، وانما كان يجب على القديم عز وجل ، لو كان الأمر على ما ذكرتم أحد أمرين ، اما أن يمنعه التمكن منه ، أو يدفع ذلك ويظهره بلطائفه ، لئلا يصير شبهة ، لا يمكن حلها ، فلو لم يفعل ذلك لكان قد عاد الأمر الى أنه لم يفعل ما وجب عليه — تعالى الله عن ذلك — •

فان قيل : ما أنكرتم على من قال لكم : يجوز أن يكون النبى — صلى الله عليه وعلى آله — أخذ هذا القول من نبى كان أتى به ، وقبل ذلك النبى ، وأخفى حاله ، وادعى النبوة به من غير أن كان صادقا فيما ادعى فيه •

قيل له : هذا سؤال قد أجاب بعض العلماء المتقدمين عنه بجوابين : أحدهما : أنه قال : « قد علمنا ضرورة أن النبى — صلى الله عليه — هو الذى أتى به دون من سواه ، كما علمنا فى شعر كثير من الشعراء ، وكتب كثير من المصنفين • وفى هذا سقوط هذا السؤال • **والجواب الثانى : أن ذلك لو كان ، لكان شبهة لا يمكن حلها** ، وما جرى هذا المجرى فيجب على الله عز وجل المنع منه • فيعلم أنه لم يكن » •

ويمكن أن يجاب عنه بأن يقال له : ان ذلك لو كان كذلك ، لكان ذلك النبى ممن قد بعثه الله ، وكلفه أداء الرسالة • ولو كان ذلك كذلك لوجب على الله عز وجل أن يحفظه الى أن يبلغ ويؤدى الرسالة ، ولو كان بلغ وأدى لكان ذلك لا يخفى •

والجواب المعتمد عندى : غير هذه الأجوبة ، وهو أن يقال لمن قال ذلك : فى القرآن كثير من أقاصيص أحوال رسول الله — صلى الله عليه — وأحوال الصحابة — رحمهم الله — وأحوال أعدائه ، مثل ما ذكر سبحانه فى السورة التى يذكر فيها الأحزاب من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، اذ جاءتكم جنود »(١) الى آخر القصص ،

---

(١) الأحزاب : ٩

وفى هذه السورة ذكر (زيد بن حارثة) وما قال له رسول الله ـ صلى الله عليه ـ فى شأن زوجته ، وما كان من رسول الله ـ صلى الله عليه ـ من التزوج حيث يقول : « واذ تقول للذى أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه »(٢) الى آخر القصة • وفى السورة التى يذكر فيها الأنفال قصة (بدر) من قوله : « واذ يعدكم الله احدى الطائفتين : أنها لكم »(٣) الى آخر القصة • وفى هذه السورة قصة الأسارى ، والمفارقات التى جرت • وفى السورة التى يذكر فيها آل عمران قصة (بدر) وقصة (أحد) •

وفى السورة التى يذكر فيها التوبة وقصة (حنين) وقصة (الغار) ولو تتبعنا هذا فى جميع القرآن لطال الكتاب به • ومن المحال أن تكون هذه الأقاصيص بعينها كانت اتفقت لبعض الأنبياء غير نبينا ـ صلى الله عليه ـ بمكة والمدينة • ولئن جاز أن يتفق ذلك ، لوجب أن يكون نقله ظاهرا ، وهذا من أوضح ما يقال فى اسقاط هذا السؤال •

فان قيل : فهل يجوز أن يكون مثل القرآن مقدورا للجن أو للملائكة؟

قيل له : لا سبيل لنا من طريق النظر الى المنع من ذلك ، لأنا لا نعرف أحوال الملائكة ـ عليهم السلام ـ والجن • الا أنا من طريق السمع • علمنا أنه ليس فى مقدور الجن •

فأما الملائكة ـ عليهم السلام ـ فلا يعرف ذلك من حالهم ، ولو لم نعرف أحوالهم نحن أيضا لم يقدح ذلك فى كونه معجزا ، لأنا اذا عرفنا تعذره على أمر يخفى • كفى فى كونه معجزا • على ما مضى القول فيه •

فأما ما ذهب اليه قوم من أنا قد سمعنا من أحوال الجن ، وأشعارهم ما يمكننا الاستدلال به على أنهم على الاتيان بمثله عاجزون • كنحو ما يحكى عن عمرو الجنى من قوله :

أشجاك تشتت شعب الجن • فأنت له أرق وصب ؟

الى آخر القصيدة •

---

(٢) الأحزاب : ٣٧

(٣) الأنفال : ٧

وما يحكى من قوله :

من معذب جذل جاد القريض له ... حبر يجير لنا بيتا على دار

وما يحكى عن بعضهم :

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

وما روى عن سواد بن قارب من الأبيات التى يحكيها عن بعض الجن وهى :

عجبت للجن وألعابها ... وركبها العيس بأقتابها

الى آخر الأبيات . حكايات لم تعرف صحتها ، بل ليس لشىء منها سند ، لا ضعيف ولا قوى . الا ما يحكى عن سواد بن قارب ، وبمثل هذا لا يقع العلم .

والثانى : أن هذه الأبيات ، وما جرى مجراها . لو علمنا على التحقيق أنها من قول الجن ، لم يمكنا أن نعلم بهذا القدر من أحوال جميعهم فصار الاشتغال به مما لا يجدى ، والاعتماد على قول الله عز وجل : « **قل لئن اجتمعت الانس والجن ، على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** »[٤] وعلى اجماع الأمة على ذلك .

* * *

دليل آخر على أن القرآن معجز : ومن الدليل على ذلك : أن النبى — صلى الله عليه وعلى آله — مهما شك فى شىء من أحواله ، فلا شك فى صحة عقله ، وأصالة ذاته ، وشدة حصافته ، ووفور ذاتيته . قد علم ذلك المصدق به ، والمكذب له ، لأن الحال فى ذلك أظهر من أن يجوز أن يرتاب فيه عاقل .

على أن المصدق به يعلم ذلك من حيث يعلم أن الله عز وجل لا يجوز أن يبعث الى خلقه من لم يكن على تلك الصفة ، والمكذب له يعلم ذلك

(٤) الاسراء : ٨٨

من حيث يظن أنه دبر أحوال نفسه وأحوال أصحابه ، حتى تم له ما تم ، وقد تلى هو — صلى الله عليه وعلى آله — على أعدائه ، وأوليائه على ما تقدم بيانه : « **وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا ، فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ، ان كنتم صادقين • فأن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا • فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة** »(٥) وتلى عليهم : « **وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله** »(٦) وقوله : « **أم يقولون افتراه • قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله ، ان كنتم صادقين** »(٧) وتلى عليهم : « **قل لئن اجتمعت الانس والجن ، على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** »(٨) •

وقد علمنا أن العاقل اذا ادعى أمرا ، لا يكون مبناه الا على الصدق ، ومجانبة الكذب ، ويشتد حرصه على تصحيحه ، حتى يتحمل له المشاق ويركب له الأخطار ، ويعاديه على ذلك قوم ألباء عقلاء ، يرجعون الى الحصافة التامة ، والتمييز الشديد ، سيما اذا كان ما يدعيه لا يتم الا بما يحصل فى النفوس من تعظيمه ، وحشمته ، لصدق لهجته ، ووفور وقاره وهيبته ، فلا يجوز مع سلامة الأحوال أن يورد على العدو الكاشح، والولى المناصح ، مالا يأمن أن يظهر فيه كذبه فى يومه أو غده ، أو بعد مدة قصيرة أو طويلة ، حتى يفتضح بذلك عند الجميع ، ويحتج به عليه أعداؤه ، وينفر عنه أصحابه ، لأن ذلك يجرى مجرى التعرض بتشويه الانسان لنفسه بين أعدائه وأوليائه ، مع التماسه منهم تعظيمه وتوقيره ، واكباره واجلاله مع سلامة الأحوال • وما جرى هذا المجرى ، نعلم قطعا أنه لا يقع على وجه من الوجوه •

فاذا ثبتت هذه الجملة فتلاوته — صلى الله عليه — هذه الآيات عليهم لا تخلو من أن تكون من تلقاء نفسه ، أو بأمر علام الغيوب • ولا يجوز أن يظن عاقل أنه كان يتلوها عليهم من تلقاء نفسه ، لأنه تلاها على قوم هم مثله ، أومقاربون له فى المعرفة بأحوال الكلام وأساليبه ، وبأحوال الفصاحة ، ولم يكن يجوز أن يأمن أن يأتى عدة منهم ، كل واحد

---

(٥) البقرة : ٢٢ ، ٢٣
(٦) يونس : ٣٧
(٧) يونس : ٣٨
(٨) الاسراء : ٨٨

منهم بمثله ، اما فى الوقت ، واما فى مدة قصيرة أو طويلة فيظهر كذبه ويبين تقوله ، ويتسلق به أعداؤه ، ويخذله أولياؤه •

فاذا فسد ذلك ، صح أنه وارد من عند علام الغيوب تبارك وتعالى، واذا صح أنه من عنده عز وجل ، صح أنه معجز •

فان قيل : أكثر ما ذكرتموه يكون تغريرا بالجاه ، ومن طلب مثل الأمر الذى طلبه فغير ممتنع أن يغرر بنفسه ، فضـــلا عن جاهه ، لأن التغرير بالنفس أعظم من التغرير بالجاه •

قيل له : التغرير بالنفس أيسر عنـــد من طلب معـــالى الأمور ، من التغرير بالجاه ، لهذا تجد كثيرا من الناس يغرر بنفســـه فى الحروب للأنفة ، وكذلك تجد كثيرا ممن له علو الهمة ، ويؤثر اعانة النفس على التشويه بها • على أن التغرير بالنفس أو بالجاه ان اختاره العاقل فليس يختاره الا اذا لم يكن منه بد فى الأمر الذى يطلبه • فأما اذا كان يعلم أنه يجد منه بدا ، أو يغلب فى ظنه ، وكان الذى يغلب فى الظن : أن المحذور واقع ، فانه لا يجوز أن يختاره بتة •

ومن المعلوم : أن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله عز وجل كان النبى ــ صلى الله عليـــه وعلى آله ــ مســتغنيا عن هـــذه الآيات المخصوصة ، وأنه لم يكن يتلوها عليهم ، لأن كثيرا منهم ، كان قد أسلم وآمن بسائر ما ظهر عليه من الآيات ــ على ما نبينه بعد ، هذا ان يسر الله سبحانه ، وأعان عليه ــ وكان فى حكم المعلوم : أنه لو لم يكن معجزا ولم يكن من عند الله أنه كان يحصل منهم الاتيان بمثله ، لا محالة • ولو وقع لعاد الأمر الى ما كان يكرهه ، ولم يكن له فى ظاهر الحال فيها فائدة كثيرة ، لأن العرب كانت عارفة بحال القرآن ، وفائدة التحدى ، وكانت تحمله بعده ــ صلى الله عليه وعلى آله ــ لســـائر الناس ، وما يجرى هذا المجرى لا يجوز أن يختاره العاقل مع سلامة الأحوال ، فثبت أنهـــا كانت من عند الله عز وجل • على أن ما نعرفه من حكم التحدى ، وأنه كان لا بد من حصول المعارضة من القوم ، ولم يتعذر عليهم ، معلوم لـــكل عاقل ، ومعلوم أيضا : أحوال القوم ، وأحواله ــ صلى الله عليه وعلى آله ــ بكمال عقـــله ، فلولا أن القرآن من عنـــد الله عز وجل ، كان

لا يجوز أن يتحدى ذلك التحدى ، لعلمه بأنه يؤتى بمثله فى أقرب مدة ، كما أن انسانا لو جاء الى أعدائه ، وطلب الترأس عليهم ، والتحكم بما شاء فيهم ، وأن يكون أولى بأنفسهم منهم ، وقال : دلالتى على ما أدعى : أنى أكلمكم اليوم طول نهارى ، فلا يمكن لأحد منكم أن يجيبنى ، فمن المعلوم اذا كانت الأحوال سليمة ، أن لا يدع أحدا منهم أن يجيبه ، وأن يكون هو لا يفعل ذلك اذا كان عاقلا سليما ، سيما اذا كان مبنى أمره على الصدق ، ومجانبة الكذب .

وهذه كانت حال النبى — صلى الله عليه — مع العرب فيما تحداهم به ، لولا أنه من عند الله عز وجل .

فان قيل : ما تنكرون على من قال لكم : ان ذلك كان خطأ من جهة الرأى على ما قلتم ، وأن الأولى كان لا يأتى به ، الا أن الحازم قد يزل ، والمصيب قد يخطىء ، والمحلق قد يسف ، واذا كان ذلك كذلك ،لم يجب أن يكون ذلك من عند الله عز وجل ، وجاز أن يكون من عنده ، اتفق على سبيل الخطأ كما يتفق من الناس ، ثم اتسق الأمر على مراده ، فلم يعارض الاتفاق ، كما يتفق فى كثير من الأمور ، أن يخطىء فيه الانسان، فيجرى الأمر مع خطئه على مراده على سبيل الاتفاق .

قيل له : ان الخطأ اذا عظم وفحش حتى يشترك فى العلم به المميز المحصل ، ، والغمر الذى لم يحكم التجارب ، بل المراهق الذى لم يبلغ بعد الحلم ، لم يجز أن يقع من العاقل المميز الذى له فى التحصيل والتنقير عن الأمور أو فى الحظوظ ، ألا ترى أن من يريد تأديب ولده وتهذيبه ويردعه عما لا يحسن ، وحمله على طريق الصلاح يجوز أن يمسه بمقارع ، فيقع الخطأ فيه ، ويتجاوز الغرض المطلوب حتى يوهن بعض أعضائه ، ولكن لا يجوز أن يبلغ به الخطأ مع كمال عقله ، وسلامة أحواله، حتى يضربه بالسيف ضربة يعلم ، أو يغلب على الظن أنها تأتى عليه ، وكذلك من يداوى نفسه يجوز أن يخطىء فيرسل على بعض أعضائه العلق ، فيزيد ذلك فى مرضه ، وألمه . ولكن لا يجوز مع كمال العقل أن يخطىء فيرسل الأفعى على بعض أعضائه على سبيل التداوى . وكذلك يجوز أن يجنى على نفسه ، بتناول ما يضره من الأدوية ، على سبيل

الخطأ ، ولكن لا يجوز أن يخطىء فيتناول (الببش) مع علمه به وبصفته وفعله • ونظائر هذا أكثر من أن تعد وتحصى •

فاذا صح ذلك وثبت ، فقد علمنا : أن ايراد هذه الآيات لو لم تكن من عند الله عز وجل لكان من الخطأ العظيم الفاحش الذى لا يجوز وقوع مثله من كامل العقل ، لأنه ـ صلى الله عليه وآله ـ أتى قوما هم نظراؤه فى النسب ، وأشكاله فى اللسان ، وأمثاله فى المعرفة بمجارى الأمور ، فدعاهم الى دين كرهوه ، وعادوه عليه وناصبوه ، ولم يدعوا ممكنا فى مناوأته الا أتوه ، وهو يعلم أن أمره مبنى على صدق اللهجة ، ومجانبة الكذب والتنزه عنه ، وأن يسير الكذب لو ظهر منه لأدى الى افساد حاله ، وتوهين أمره ، ومكن منه أعداءه ، ونفر عنه أولياءه ، وهدم ما أسسه ، ونشر ما ضمه ، ونقض ما شاده • وهو مع ذلك قد ابتدأ أمره يستتب ، وحاله ينتظم ، وقد آمن به قوم بما ظهر من سائر آياته ، وصار أصحابه فى الزيادة •

فاذا كانت أحواله جارية على ما مثلنا ، ماضية على ما وصفنا ، فمن الخطأ العظيم الفاحش ، الذى لا ينفع مثله من العقلاء أن يأتى بأمر أقل ما فيه أن يغلب على الظن ان لم يكن معلوما مقطوعا به أن يفضحه فى أقرب مدة ، وأرخى زمان ، ويفسد حاله ، وتبطل دعوته ، ويظهر كذبه •

فاذا ثبت ما ذكرناه صح وبان : أن هذا القرآن لم يكن من عنده ـ صلى الله عليه ـ وانما كان من عند علام الغيوب جل وتعالى ، وعلى أن هذا التحدى لم يقع منه مرة واحدة ، أو فى سورة واحدة ، فينسب الى الاتفاق ، والغفلة • بل كرره ـ صلى الله عليه وعلى آله ـ حالا بعد حال ، وأورده فى سور كثيرة ، وأمر أصحابه بتلاوته فى جميع القرآن الى أن اختار الله عز وجل له دار كرامته ، لم يتلوم فيه ، ولم تضعف نفسه ، ـ صلى الله عليه ـ وما جرى هذا المجرى لا يجوز أن ينسب الى أنه اتفق على سبيل الغلط والخطأ ، واذا لم يجز ذلك وبان فساده ، صح ما قلناه من أنه من عند الله عز وجل •

فان قيل : ما تنكرون على من قال لكم: ان عدد من كان يكمل لمعارضة القرآن من العرب كان محصورا ، لأن من المعلوم : أن كل واحد منهم لم يكن يكمل للاتيان بالكلام الفصيح منظوما كان أو منثورا ، ومتى كان ذلك كذلك ، فيجـوز أن يكون النبى — صـلى الله عليه — كان واطأهم على أن يكفوا عن معارضته ، وأن يكون القوم جعلوه على ثقة من ذلك حتى وثق بما عاهدوه عليه واعتمدوه لمـا كان من تمكينه اياهم من أغراض كانت لهم ، وأطماعه لهـم فى رياسات تحصـل لهم ، فتحداهم لذلك بانشراح صدر ، وقوة نفس •

قيل له: هذا كلام من لا يعرف أحوال العرب وأحوال النبى — صلى الله عليه وآله — لأن العرب كانوا فى ديار متباعدة الأطراف كتهامة ، وسائر أرض الحجاز الى اليمن وشـجر وعمان ، ونجـد والشام ، وكان الفصحاء منهم متفرقين بحسب تفرق بلدانهم ، وتنائى أوطانهم • والنبى — صلى الله عليه — يومئـذ كان فى حكم المنفرد الوحيـد اذ لم يكن يسـاعده على أمره ، الا من كان يؤمن به ويصـدقه ، ولم يكن — صلى الله عليه — واجدا سـعة من المـال ، ولا متمكنا من الرجال ، بل كان شريدا طريدا ، قد جفاه أهله ، فكيف كان يظن مع هذه الأحوال من تجميع الرجال ، وجمع كلمتهم ، مع تراخى الديار ، وتباعد مزارهم ، وعـدمه — صلى الله عليه — الرسـل الذين يوجههم اليهـم ، بل أى رغبة كانت فيه لطلاب الدنيا وأحوالها ، على أنه لو كان مثل كسرى فى كثرة أمواله ، وانبساط ملكه ، ووفور حاله ، وعظم هيبته ، مع ما كان يتعلق به من الرغبة والرهبة كان لا يتم له ذلك ، بل كان يتعذر عليـه جمعهم على ذلك ، وتقريرهم عليه ، فكيف يظن العاقل أنه تم لرسول الله — صلى الله عليه وآله — ذلك •

على أن مثل هذا التواطىء مما لا يصح وقوعه فى العرف ، ومجرى العادة ، وبه يسـتدل على صـحة الأخبار المتواترة ولولا تعـذر ذلك واستحالته من طريق العادة ، لكان يجوز أن يشك فى كثير فى مخـبر الأخبار المتواترة ، وهذا أظهر من أن يحتاج الى اطالة الكلام فيه • على أن ذلك لو كان ، لكان لايجوز أن ينكتم ، بل كان يظهر ظهورا تاما على ما تقدم بيانه ، فى باب : التحدى • لأن الدواعى تدعو الى نشر مثله ، والبواعث تبعث على اذاعته • والأغراض تتوفر فى ذلك وتختلف •

على أنه من أين كان يثق بأن من واطأه — لو أمكن ذلك ، وكان الطريق اليه مستجيبا — يفى له بذلك ؟ وكيف كان يأمن أن يتغير رأيه ، فينقض ما بذله حتى يفتضح بذلك ، ويفسد عليه أموره ، ويظهر كذبه ، وهذا ظاهر الفساد • فبان بهذه الوجوه التى بيناها سقوط ما سألوا عنه فى هذا الباب •

فان قيل : ما تنكرون على من قال لكم : ان النبى — صلى الله عليه — يجوز أن يكون ظن أن الاتيان بمثل هذا القرآن يتعذر على قومه من حيث علم أحوالهم ، ومجارى أمورهم ، فأقدم على التحدى ، لما غلب من ذلك فى ظنه ، لأن العاقل الحصيف قد يقدم على الأمر المظنون بما تقدم على الأمر المعلوم ، وفى كون ما ذكرناه جائزا خارجا من خبر الامتناع ما يبطل دعواهم أنه يجب أن يكون من عند الله عز وجل •

قيل له : هذا الظن : ظن لا أمارة عليه ، بل لا يجوز حصوله للعاقل المتميز ، لأن خلافه هو المعلوم • فالمتعلم أن ما يأتى به الانسان من أى جنس كان ، وأى باب كان فانه من المعلوم : أنه لا يتعذر الاتيان بمثله على من كان على مثل صفته فى ذلك الشىء • ونحن نعلم أن أولئك العرب كانوا مثل النبى — صلى الله عليه وآله — فى المعرفة بأحوال الكلام ، وطرقه ، وجيده ورديئه ، وفصيحه ومتوسطه ، أو مقاربين له فى ذلك • ومن كان كذلك • فمن المعلوم أنه لا يتعذر عليه الاتيان بمثل ما أتى به ، والعلم بهذا طريقه الضرورة ، فلا يصح أن يقال : انه — صلى الله عليه — يجوز أن يكون عدمه ، واذا كان ذلك معلوما فلا يجوز أنيظن العاقل خلافه ، لأن ذلك يصير من ظنون السودوس ، الزائلين عن كمال العقل ، ونحن بينا دليلنا هذا ، على أن النبى — صلى الله عليه — كان كامل العقل ، وافر التحصيل ، صحيح التمييز ، على أن النبى — صلى الله عليه — لم يتحد به قومه الذين هم قرابته فقط ، بل عم بالتحدى جميع العرب ، بل جميع البشر ، فلو جاز أن يظن الانسان أنه — صلى الله عليه وآله — ظن ذلك بقومه لمعرفته بكثير من أحوالهم ، وبواطن أمرهم على بعد ذلك ، فكيف يظن أنه ظن ذلك بسائر العرب مع كونه متباعدا عن ديارهم ، متنائيا عن ضبط أحوالهم ، وفيهم مثل : لبيد بن ربيعة ، وكعب بن زهير ، الذى جاءه — صلى الله عليه — والأعشى ، وحسان ، وغيرهم من الفصحاء المشهورين •

واذا ثبت أن الأحوال كانت على ما ذكرناه ، صح ووضح أنه — صلى الله عليه وآله — لم يكن يجوز أن يظن ذلك ، لو كان القول من عنده ، اذ كان يجب أن يكون المعلوم بخلاف ذلك • وفى بطلان ذلك دليل على أن النبى — صلى الله عليه — كان عالما بتعذر ذلك عليهم ، لكونه من عند الله عز وجل •

فان قيل : يجوز أن يكون — صلى الله عليه وعلى آله — ظن أن القوم يكفون عن الاشتغال بالاتيان بمثله ، وان لم يكن متعذرا عليهم، فبنى أمر التحدى عليه •

قيل له : هذا الظن حصوله للعاقل أبعد وأشد استحالة من الظن الذى بعد التحدى عنه ، أولا : لأنا قد بينا فيما تقدم أنه معلوم بكمال العقل : أن من أتى قوما هم أمثاله ونظراؤه فى النسب والمحل ، وادعى رئاسته عليهم ، وأنهم يلزمهم الانقياد له ، وقبول طاعته ، وهم له كارهون ، قد أظهروا له البغضاء والعداوة ، واحتج عليهم بأمر يمكنهم مقابلته بمثله من غير ضرر يلحقهم ، فانه لا يجوز منهم الكف عن ذلك على وجه من الوجوه •

يكشف ما قلنا فى جواب السؤال وما قبله : أنا نعلم أن واحدا من علماء عصرنا هذا من فقيه أو متكلم ، أو أديب أو متطبب اذا كان فى بلد فيه وفيما حوله عدة من نظرائه فيما يتعاطاه أو مقاربين له مع ظهور بعضهم له ، وكراهتهم رياسته عليهم وانتصابهم لعداوته ، وركوبهم الصعب والذلول فى ذلك • فانه لا يجوز متى كان عاقلا لا آفة به أن يظن أنه يطلب الرئاسة عليهم وتصريفهم على أوامره ونواهيه بأن يحتج به عليهم ويتحداهم به ، وهم متمكنون من مقابلته بمثل ما احتج وأورد بأهون سعى ، فلا يقع منهم ، ولا يختارون فعله ، بل يكفون عنه •

واذا ثبت ذلك ، صح أن ما ذكروه من جواز حصول مثل ذلك الظن باطل وأنه — صلى الله عليه — انما تحداهم بما أورده عليهم بأمر علام الغيوب ، ومع العلم أنه متعذر عليهم •

فان قيل : فجوزوا أن يكون النبى — صلى الله عليه وعلى آله — عرف ذلك من جهة بعض الأنبياء ، وأن يكون وقع اليه أنه أخبر

عن حاله ، وحال القوم معه بأن يكفون عن معارضته ، فاعتمد ذلك ، وبنى أمر التحدى عليه لعلمه بصحته ، وأن أصل ذلك الخبر من عند الله عز وجل ٠

قيل له : هذا الذى ذكرت لو كان ، يزيد أمره ـ صلى الله عليه ـ قوة رغبة ، وتأكيدا ، وكان ذلك ضربا من التبشير به ، وذلك أن ذلك النبى لو أخبر أن القوم يكفون عن معارضته ، وأحوالهم على ما وصفنا ٠ لكان لا يخلو ذلك الكف من أن يكون منهم على سبيل الاختيار ، ولأن الاتيان بها كان متعذرا عليهم ، ولأن الله عز وجل صرفهم عنها ببعض لطائفه ٠ وقد ثبت أن الكف على سبيل الاختيار منهم مما يستحيل ، ولا يصح كونه فلم يبق الا أنه كان للتعذر أو للصرف ، وأيهما كان ٠ وجب كونه معجزا ، دالا على نبوته ٠ فتقدم خبر نبى — ان تقدم — يكون بشارة له بأن الله عز وجل بعثه نبيا ، ويظهر عليه العلم الذى يدل على نبوته ٠

فان قيل : فاذا ثبت أنه من عند الله عز وجل ٠ فما الذى يدل على أنه معجز ؟ لأن التوراة والانجيل ، وان كانا منزلين من عند الله ، فلا يجب كونهما معجزا ؟

قيل له : اذا ثبت بما بيناه تعذر مثله على الناس ثبت كونه معجزا كما بيناه فى الدليل الأول ٠

فان قيل : اذا كان هذا الدليل لا يتم الا بذكر التحدى ، وبيان تعذر مثله ، وعليه بنى الدليل الأول ، فلم جعلتم هذا دليلا ثانيا ؟

قيل له : هذان الشرطان ، وان جمعا الدليلين ، فلكل واحد منهما شرط يخصه ، لأن الدليل الأول لا يتم الا بأن يعلم أن المعارضة لم تقع ، وهذا لا يجب أن يشترط فى الدليل الثانى ، لأن الدليل الثانى يصح أن يستدل به ٠

وقيل : النظر فى أن المعارضة وقعت ، أو لم تقع حين يكون حصول العلم بأن المعارضة لم تقع بعد استكمال النظر فى الدليل ، ووقوع العلم به ٠ والدليل الأول ليس من شروطه أن نبين أن كامل العقلاء ، لا يجوز أن يقع منه من تلقاء نفسه مثل هذا التحدى ، ولا يجب اشتراطه

فى الدليل الأول . والدليل الثانى لا يتم الا باشتراطه لأنه مبنى عليه . واذا كان لكل واحد من الدليلين شرط يخصه — ولا يتم الدليل الا بشرطه — لما صح كونهما دليلين ، وأن جمعتهما شروط أخر .

* * *

دليل آخر على أن القرآن معجز : ومن الدليل على ذلك : أن النبى — صلى الله عليه — ابتدأ الاتيان بهذا القرآن على غاية الاحكام والاتقان ، وقد ثبت جريان العادة : أن كل أمر يقع على وجه لا يصح وقوعه عليه الا بعلوم تحصل للفاعل له لا يصح وقوعه ابتداء على غاية الاحكام والاتقان ، وأن بلوغه الغاية يتعذر الا على مر الدهور والأعصار ، وتعاطى جماعة فجماعة له . وأنه لا فرق فى ذلك من شىء من الأمور التى هى منظوم الكلام ومنثوره ، أو ما يتعلق بالتنجيم أو الطب أو الفقه أو النحو أو الصناعات التى هى النساخة أو الصياغة أو البناء أو ما أشبه ذلك .

فاذا ثبت ذلك وثبت وقوع القرآن على الوجه الذى بيناه ثبت أنه وقع على وجه انتقضت به العادة ، وما وقع على وجه تنتقض به العادة ، وجب كونه معجزا ، وجرى مجرى قلب العصا حية ، واحياء الموتى والمشىء على الماء والهواء .

فان قيل : ولم ادعيتم أن القرآن وقع على غاية الاحكام والاتقان ؟

قيل له : قد علمنا ذلك . كما علمنا فى غيره مما بلغ الغاية فى بابه ، وذلك كما علمنا أن التنجيم بلغ الغاية فى أيام بطليموس ، وأن الهندسة قد بلغت الغاية فى أيام أقليدس ، وأن الطب بلغ الغاية فى أيام جالينوس ، وأن الشعر بلغ الغاية فى أيام امرىء القيس ، والنابغة وزهير والأعشى ، وأن النحو بلغ الغاية فى أيام سيبويه والخليل ، وأن الخط بلغ الغاية فى أيام ابن مقلة(٩) ، وكذلك سائر الصناعات والمهن ، وكان الطريق الى الجميع : أنا قد علمنا من حال كل واحد ممن تعاطاه ، بأن كل من حاوله ، وتعاطى مثله اما أن يكون قصر عنه قصورا بينا ، وبعد بعدا

---

(٩) قال الشاعر :

يخطط مولانا خطوط ابن مقلة فينظمها نظم اللآلىء فى السلك
فهذا له بهجة الخط وحده وهذا له بهجة الخط والملك

متفاوتا ، أو قاربه أو زاد عليه شيئا زيادة كانت يسيرة لا يؤبه لمثلها . فدلنا ذلك على أن جميع ما ذكرناه وقع على غاية الاحكام والاتقان فى بابه فى الأوقات التى ذكرناها .

فاذا ثبت ذلك وثبت أن القرآن لما أتى به النبى — صلى الله عليه — حاول كثير من الناس الاتيان بمثله فقصروا عنه قصورا ظاهرا ، وسقطوا دونه سقوطا فاحشا ، عرفه من أنصح نفسه ، ولم يجحد ما تصوره . فأما من عاند وتواقح ، فانه ادعى المقاربة ، وأوهم الأغمار المماثلة ، ولم يدع أحد أنه يبرز عليه ، ويطلب وراءه أمرا للمزيد ، لوضوح الأمر فى بلوغه الغاية ، ولحوقه درجة النهاية ، فكان وقوعه على غاية الاحكام والاتقان ، أوضح من سائر ما ذكرناه ، لأن عامة ذلك قد زيدت عليه زيادات على مقدار احتمال الصنعة ، والقرآن ارتفع عن ذلك ارتفاعا حسم المطامع عن ابتغاء المماثلة ، فكيف ابتغاء الزيادة ، فصح بذلك ما ادعيناه ، ووضح ما ذكرناه .

على أنه لو ثبت أن وراء غاية القرآن غاية يترتب وقوعها مزيدا يطلب . لم يقدح ذلك فى استدلالنا هذا . لأنا قد علمنا أنه لما حصل ووقع لم يكن وقوعه على أدنى مراتب الكلام وأضعف وجوهه ، بل كان متجاوزا لذلك شأوا بعيدا ، وأمدا مديدا .

وهذا القدر كاف فى وقوعه على وجه انتقضت به العادة . على أنا نقول لهذا السائل : ان كنت تعرف شيئا من الأشياء بلغ الغاية فى مجرى العادة فأبن عنه لنوضح بمثله أن ما ادعيناه فى حال القرآن أوضح من ذلك ، ولسنا نريد بالغايات التى ذكرناها فى هذه المواضع أجمع ، الغاية التى لا تكون فى المقدور أو المعلوم ، ما يزيد عليها . وانما نريد ما يسمى غاية ، ويعد نهاية فى مثله ، من طريق العادة ، فليكن ذلك مقصورا عند الناظر فى كلامنا هذا . فان المدار عليه ، والغرض ينتهى ليه .

فان قيل : ما تنكرون على من قال لكم : ان ما ادعيتموه من النبى — صلى الله عليه — ابتداء ، الاتيان به لا يصح ، لأن الفصاحة لم يكن هو — صلى الله عليه — ابتدأها ، بل كانت متقادمة العهد ، متداولة العرب ، قد استمرت عليها الأعصار ، وتصرفت فيها الأفكار ؟

قيل له : لسنا نزعم أن الذى اختص به القرآن هو الفصاحة فقط ، حتى يلزمنا ما ذكرتموه ، وانما نقول : ان الذى اختص به هو **هذا النظم المخصوص ، والأسلوب المتميز** واقعا فى أعلى طبقات الفصاحة واذا كان هذا هكذا ، ولم يعرف للعرب قبله ــ صلى الله عليه ــ هذا النظم المتميز عن غيره ، صح ما قلناه من أنه ابتدأ به على الغاية فى معناه .

فان قيل : الى ماذا تشيرون بقولكم : هــذا النظم المخصوص ، والأسلوب المتميز ، فانا لا نعقل فيه أمرا زائدا على الكلام المعتاد ، ولم نعرف تميزا الا بالفصاحة ؟

قيل له : نريد بذلك ما نعرفه ، ويعرفه كل متأمل كلام العرب ، لأن كلامهم أجمع لايخلو من أن يكون موزونا أو غير موزون . فالموزون تختلف أجناسه ، ويتميز قصيره عن رجزه ، وكل ذلك مما يعرفه أهله ، ومــا ليس بموزون منه ينقســم أربعة أقسام . منهــا نظم الخطب وطريقتها ، ومنها نظم الترسل ومنهاجه ، ومنها اسجاع الكهنة ، ومنها المحاورات التى تجرى بين الناس ، ملفوظا بها ومكتوبا فى منافع الدين والدنيا ، ومضارهما ، وما ينطوى على الجد والهزل ، ووجدنا أسلوب القرآن ونظمه مفارقا لهذه الأساليب أجمع ، لأنه ليس من نظم الخطب ، ولا الرسائل ولا اسجاع الكهان ، ولا المحاورات ، يعرفه كل من تأمله ، ممن ليس له أيسر حظ من المعرفة لكلام العرب .

فأما بيان أن الاعجاز تعلق بهذا الأسلوب المخصوص واقعا فى أعلى طبقات الفصاحة ، فسيجىء بعد الفراغ من ايضاح هذا الدليل ، ان يسر الله عز وجل ، وسنفرد له فصلا ، فانه باب عظيم لا يستغنى عنه .

فان قيل : ما تنكرون على من قال لكم : يجوز أن يكون النبى ــ صلى الله عليه وآله ــ أدار القرآن فى نفسه ، نحوا من خمسة وعشرين سنة ، من حين بلغ الى أن بعث حتى رتبه ونقحه وهذبه ، ثم أظهره على ما هو عليه من الغاية ؟

قيل له : ذلك مما لا يصح . لأن القرآن ليس دون الأشــعار ، والرسائل . وقد علمنا : أن الشعر لم يبلغ الغاية فى هذا القدر من الزمان . ولا برجل واحد ، وكذلك الرسائل ، وكذلك سائر الصناعات ،

وأن العادة جارية بأن كل من ابتدأ صناعة ، وابتكرها لا يتسع لبلوغ آخرها فى مقدار عمره ، وأنها لا تبلغ الغاية الا بأزمنة تتصل ، وبجماعات يقتدى بعضهم ببعض ، ويستعين بعضهم بخواطر بعض ، ويبنى الخالف على ما أسسه السالف • فوضح بذلك سقوط هذا السؤال •

فان قيل : ان الخليل بن أحمد ، ابتدأ العروض فأورده على غايته ، ولم يدل ذلك عندهم على انتقاض العادة ، فما أنكرتم أن يكون القرآن مثل ذلك ؟

قيل له : ان العروض هو ضرب من تقطيع الأصوات وترتيبه ، وقد سبقه بذلك صاحب المسيقى ، وبلغ الغاية فيه •

وقد سمعنا من كان يعرف اللغة السريانية يذكر أن للأشعار المعمولة على ذلك اللسان عروضا قد عمل ، ويجوز أن يكون الخليل بنى على تلك الطريقة ، ولا يكون له الا بتتبع أشعار العرب ، وعد أجناسها ، وردها الى الوزن مقتفيا به ما ذكرناه • ثم قد سقط عنه أوزان وأضرب • منها الوزن المسمى : « ركض الخليل » وقد جاء عليه الشعر المنسوب الى عمر الجنى • وهو :

أشـــجاك تشتيت شعب الجن   فأنت لـــه أرق وصـــب ؟

وهى قصيدة طويلة •

وفى المحدثين من عمل على ذلك ، فقال قصيدة طويلة أولها :

أنســـيت أفعالهم الســـمحا   فأراك تذكـــرهم لهجـــا

وسقط عنه أيضا ضرب من الوزن المسمى بالمنشرح[١٠] ، وهو

---

(١٠) بحر المنسرح ـ بالسين ، والمؤلف كتبه بالشين ـ : اما أن يكون تاما ، واما أن يكون منهوكا ، فالمنسرح التام : عروضه صحيحة ، وضربه : اما مطوى ، واما مقطوع • مثل :

١ ـ أرسلت نفسى على سجيتها ❊ وقلت ما قلت غير محتشم

مستفعلن ـ مفعولات ـ مستفعلن •• الخ • والضرب جاء على : مستعلن ، حذف رابعه الساكن حذفا لازما ، فهو مطوى •

٢ ـ لو كنت يوم الوداع شاهدنا ❊ وهن يضرمن لوعد الوجد

والضرب ـ وهو الشطر الثانى ـ جاء على : مستفعل • فهو متطوع =

أن يقع فى القافية (مفعولات) بدل (مفتعلن) وقد جاء على ذلك أشعار كثيرة ، وتتبع هذا مما يخرجنا عن غرض كتابنا هذا ، وفيما أشرنا اليه كفاية •

فبان بما ذكرناه : أنه لا يصح أن يقال : ان الخليل أورد ذلك ابتداء على الغاية ، كما أورد النبى — صلى الله عليه — القرآن مبتدئا به ، ومبتكرا له على الغاية فى معناه ، فسقطت المعارضة •

فان قيل : ما تنكرون على من قال لكم : يجوز أن تكون أكثر هذه الصناعات لم تبلغ الغاية برجل واحد ، لأن العناية بها لم تتم ، والدواعى اليها لم تقو ، والبواعث عليها لم تتوفر • واذا كان كذلك جاز أن تكون دواعى النبى — صلى الله عليه وآله — الى ايراد القرآن على هـذه الصفة توفرت وبواعثه عليه قويت ، فأتى به ، وان لم يتفق لأحد قبله ما جرى هذا المجرى ، ومتى جوزتم ذلك بطل ما اعتمدتموه ، من أنه وقع على وجه انتقضت به العادة ؟

قيل له : هذا الذى ذكرتموه مما لا نجيزه ، لأن تجويز مثله يؤدى الى أن يلتبس ما هو متعذر ، بما لا يتعذر ، والى أن لا يكون بينهما فرق • وقد ثبت الفرق بينهما ، فوجب بطلان هذا السؤال ، ألا ترى أن ذلك لو جاز لجاز لقائل أن يقول : جوزوا أن يكون واحد من الأطباء لم تقو عنايته ، ولم تتوفر بواعثه ، حتى يبلغ الى حيث يحيى الموتى ، ويبرىء الأكمه والأبرص ، وأنه لا يستحيل أن يبلغ بعض الاطبـاء بعنايته ، ووفور دواعيه ، وقوة بواعثه ، ولجاز للآخر أن يقول : جوزوا أن يكون أحدا من السحرة المشعبذين لم تبلغ به قوة دواعيه ، وبواعثه الى أن يبلغ مبلغا ، ثم ان قلب العصا حية ، ضرب من الحيل ، وأنه من الجائز المتوهم أن يبلغه بعض السحرة والمشعبذين ، وكذلك يجوز ذلك

=

والمنسرح المنهوك : عروضه وضربه ، يكونان موقوفين ، أو مكسوفين •

مثـــل :

١ — صبرا بنى عبد الدار

مستفعلن — مفعولات

٢ — وسؤددا ومجدا

مستفعلن — مفعولات

فى سائر الصناعات ، فلما علمنا بطلان قول من يجيز ذلك ، ويشك فيه ، وجب بطلان ما سأل عنه السائل فى هذا الباب •

فان قيل : الفرق بين ما ذكرتم ، وبين ما سألنا عنه ظاهر ، لأن الذى ذكرتموه ليس جنسه ، فى مقدور العباد ، وما سألنا عنه جنسه فى مقدور العبـــاد •

قيل له : عن هذا جوابان :

أحدهما : أنا عرفنا الفرق بين ما يكون جنسه فى مقدور العباد ، وبين مالا يكون جنسه فى مقدورهم • بأن عرفنا ما قلناه : أن جنسه ليس فى مقدور العباد علينا على كل وجه ، وسؤالكم هذا يؤدى الى أن لا يصح لنا العلم بالفرق بين ما يتعذر علينا ، وبين ما لا يتعذر • وذلك يؤدي الى أن يفسد علينا الطريق الذى به نعرف الفرق بين ما يكون جنسه فى مقدور العباد ، ومالا يكون • وكل سؤال يؤدى الى افساد مالا يتم ذلك السؤال الا به يجب أن يكون فاسدا •

والجواب الثانى : أنه لا فرق فى هذا الباب بين ما يكون جنسه فى مقدور العباد ، وبين مالا يكون جنسه فى مقدورهم • ألا ترى أنا كما لا يجوز أن يبلغ الانسان بقوة دواعيه ، ووفور بواعثه ، وشدة عنايته الى أن يحتال حتى يطير كالنسر أو العقاب ، وان كان الطيران جنسه فى مقدورنا لأن ذلك ليس أكثر من أكوان واقعة على وجوه مخصوصة ، وكذلك لا يجوز أن يحصل الانسان بشىء من ذلك الى أن ينقل بعض الجبال الراسيات عن مواضعها ، وان كان جنسه فى مقدورنا ، ونظائره أكثر من أن تحصى •

فبان أن القول بما يؤدى الى أن يلتبس ما يتعذر بما لا يتعذر ، مما لا يصح ، ويجب بطلانه ، وسواء قيل ذلك فيما يكون جنسه تحت مقدورنا ، أو لم يكن • على أن الذى قالوه لو كان صحيحا لأدى الى أن لا تقع الثقة بشىء من المعجزات ، وما جرى هذا المجرى من الشبه التى لا يمكن حلها • يجب على القديم عز وجل المنع منه ، على ما سلف القول فيه • فكان يجب عليه عز وجل أن لا يقع ايراد مثله ابتداء الغاية ، أو يمنع أن يأتى به المتخرص على وجه ينقض العادة •

فان قيل : هذا الذى بنيتم استدلالكم عليه فاسد ، لأنه يؤدى الى أن السبق الى الشىء يوجب كونه معجزا وقد علمنا فساده ، لأن أمورا كثيرة تتجاوز الاحصاء والعد ، قد وقع اليها السبق ، كالصناعات والمهن وما يجرى مجراها ، وكثير من العلوم ، وليس يكون شىء من ذلك معجــزا •

قيل له : من تأمل كلامنا لم يسأل هذا الســؤال ، لأنا لم نقل : ان الابتداء بالقرآن فقط ، يدل على أنه معجز ، وانما قلنا : انه وقع على وجه انتقضت به العادة • لأن العادة جارية بأن الأمر المبتدأ به لا يجوز وقوعه على الغاية فى الباب المقصود اليه ، وأوضحنا ذلك ، وكشفنا عن صحة ما قلناه •

ثم قلنا : وقد وقع القرآن ابتداء على الغاية فى المعنى المقصود اليه فوجب أن يكون وقوعه على وجه يوجب نقض العادة ، وذلك يوجب كونه معجزا • وليس هذا من السبق المجرد الى الأمر فى شىء • بل هو جار مجرى من لا يحفظ اليوم شيئا من القرآن ، ثم يجده فى اليوم الثانى حافظا له وللقراءات ولوجوه القراءات ، فى أنه يجب أن يكون معجزا لأن حفظه وقع على وجه انتقضت به العادة • ولا يلزم على ذلك القول بأن مجرد الحفظ للقرآن وللقراءات ووجوهها معجز ، وكذلك القول فى سائر الحروف والصناعات وأصناف العلوم • فوضح سقوط هذا السؤال عما اعتمدناه فى هذا الباب •

فان قيل : دليلكم هذا يقضى جواز وقوع الاتيان بمثل القرآن على مر الأعصار ، وامتداد الأزمان •لأنكم انما قلتم : أن مثله لا يجوز الابتداء به • والدليلان المتقدمان يقضى كل واحد منهما : أن الاتيــان بمثله لا يصح ، وعلى هذا أن صح واحد من الدليلين المتقدمين ، فيجب فساد هــذا الدليل ، وان صح هذا الدليــل ، وجب فســاد الدليلين المتقدمين ، فيجب فســاد هذا • وأنتم قد اعتمــدتم الأدلة الثــلاثة وصححتموها • وذلك متعذر •

قيل له : هذا غلط ظاهر وقلة تأمل • لترتيب أدلتنا • لأن الدليلين يوجبان أن الاتيان بمثل القرآن لا يصح ، ولا يجوز • وان كان قد

حكى عن قوم : أنهم ذهبوا الى أن التحدى وقع خاصا فى ذلك العصر ، وأنه ان أتى بمثل القرآن بعد ذلك لم يقدح فى كونه معجزا .

والدليل الثالث : لم يتضمن جواز الاتيان بمثله بعد ذلك ، وان كان لم يتضمن وجوب تعذر الاتيان بمثله كما تضمنه الدليلين فلا تناقض بينه وبين الدليلين المتقدمين فلم امتنع أن يشتمل جميعها على صحته كما ظنه السائل ؟ .

ومثال ذلك : أن المستدل على حدوث الأجسام بأنها لم تسبق الأعراض الحادثة ، يصح له مع ذلك أن يستدل على حدوثها بأنها لم تسبق الأحوال المتجددة . ويصح الاعتماد على الدليلين . وان كان الدليل الأول يتضمن اثبات أعيان حادثة ، والدليل الثانى لا يتضمنه ، لأن الدليل الثانى وان لم يتضمن اثبات أعراض حادثة فلم يتضمن أيضا نفيها ، ولم يمتنع أن يكون كل واحد منهما دليلا صحيحا مستقلا بنفسه .

فكذلك أدلتنا فى اعجاز القرآن وان كان بعضها يتضمن وجوب مالا يتضمن وجوبه بعضها اذ لا يتضمن نفيه .

يوضح ذلك : أن القرآن لا يمتنع أن يكون معجزا لوجهين . أحدهما : لا يتم الا بأن يتعذر الاتيان بمثله على جميع البشر الى آخر الدهر . والوجه الثانى : يتم تعذر ذلك مع تراخى الزمان أو لم يتعذر ؟

الكلام فى بيان ماله كان معجزا

اعلم أن ما فيه من الاخبار عن الغيوب لا اشكال فى كونه معجزا لأن مثله لا يجوز أن يصدر الا عن علام الغيوب ، وسنفرد لذلك كلاما بعون الله ، وأما ماله كان معجزا من غير هذا الوجه ، فقد اختلف فيه ، على ما نبينه . وهذا الاختلاف لا يقدح فى الدليلين اللذين قدمنا ذكرهما ، لأن واحدا منهما لم يبن على وجه مخصوص ، مما اختلف فيه .

وانما بنينا الدليل الثالث فقط على وجه مخصوص ، مما اختلف فيه ، لأنه مبنى على أنه صار معجزا للنظم المخصوص واقعا فى أعلى طبقات الفصاحة على ما مضى القول فيه ، فأى وجه من الوجوه التى اختلف فيها صح لم يقدح فيما قدمناه من الدليلين . وذلك أنهما مبنيان على أنه قد تعذر على العرب الاتيان بمثله ، على وجه انتقضت به العادة فلأى وجه كان التعذر لم يؤثر ذلك فى كونه معجزا ، ألا ترى أن نبيا من الأنبياء لو أتى بما يتعذر الاتيان بمثله على جميع البشر علمنا أنه معجز ، وان شككنا أنه تعذر لجنسه أو صفته أو لأية صفة كانت من صفاته ، أو لأن الخلق أجمع صرفوا عنه ، على أى وجه حصل الصرف ، لأن الذى يتم به كونه معجزا هو حصول التعذر على وجه تنتقض به العادة ، فكذلك ما قلناه فى وجوه اعجاز القرآن .

فان قيل : ما تنكرون على من قال لكم : اذا كان كل واحد منكم يطعن فى الوجه الذى يعتمده صاحبه فى بيان الوجه الذى كان له القرآن معجزا ، ويبين فساده ، فليس يثبت شىء من تلك الوجوه ، واذا بطلت تلك الوجوه أجمع لم يصح كونه معجزا ، لأنه لا يكون معجزا الا لوجه يخصه .

قيل له : الصحيح لا يفسد لطعن من يطعن فيه ، أو يحاول افساده ، فاذا ثبت ذلك لم يجب فساد تلك الوجوه أجمع ، ولم يمنع أن يكون فى جملتها وجه صحيح لا يؤثر فيه طعن من يطعن . واذا ثبت ذلك صح ما ادعيناه من كونه معجزا على ما بيناه . وان اختلف فى الوجه الذى له كان معجزا .

ونعود الى ذكر الوجوه التى ادعى أن اعجاز القرآن يتعلق بها ، ونبين ما نعتمده منها • اعلم أن من الناس من ذهب الى أن القـــرآن لم يتعذر الاتيان بمثله ، لشىء من أوصافه • **وانما الاعجاز هو الصرف** •
ومنهم من قال : ان **الاعجاز هو الفصاحة المجردة** ، وأنها قد بلغت الحد الذى يتعذر الاتيان بمثلها على جميع البشر ، وهذا قول الأكثرين من المتكلمين •

ومنهم من ذهب الى أن الاعجـــاز : **انما هو فى النظم المخصوص** الذى يميز به القرآن عما سواه •

ومنهم من ذهب الى أن الاعجاز فيهما جميعا ، أعنى النظم مع الفصاحة البالغة أعلى طبقات الفصاحة ، وهذا هو الذى يصح عندى ، ويتضح لدى •

على أن من قال بالصرف لابد له من الرجوع الى بعض هـــذه الوجوه ، لأن الصرف عنده لم يقع عن جميع الكلام ، وانما وقع عن كلام له صفة مخصوصة ، وتلك الصفة لابد من أن تكون هى : الأسلوب أو الفصاحة ، أو هما جميعا •

والكلام فى الصرف يأتى بعد هذا الموضع • والذى يبين صحة ما اخترناه ، وادعينا صحته ، أنه لا يخلو من أن يكون الاعجاز فيه تعلق بالأسلوب المجرد ، أو الفصاحة المجردة ، أو بهما جميعا ، ولا يصح ادعاء من يدعى تعلقه بالنظم أى الأسلوب فقط ، لأنا نعلم ضرورة أن تميز نظم القرآن عن سائر أساليب الكلام المنثور كأسلوب الخطب ، وأسلوب الرســائل ، وأسلوب كلام الكهنة وأسجاعهم ، وأســـلوب المحاورات ، ليس أكثر من تميز بعض الأساليب عن بعض •

وقد علمنا أن من يقدم فى بعض هذه الأساليب حتى بلغ فيها الغاية • لا يجوز أن يتعـــذر عليه الأسلوب الآخر ، حتى لا يمكنه أن يأتى بشىء منه ، وان لم يمكنه التصرف فيه ، وبلوغ الغاية ، كما أمكنه فى النظم الآخر •

يبين ذلك : أن الخطيب المصقع ، وان تعذر عليه انشاء الرسائل على الغاية التى يطلب لها ، فليس يتعذر عليه جملة ، بل لابد من أن

يتمكن من انشائها فى الطبقة الدنيا أو الوسطى ، وكذلك من تقدم فى صناعة الرسائل ، هذه حكمة في الخطب • وكذلك المقدم فى المحاورات ، المتناهى فيها • فاذا ثبت ما بيناه ووضح أن من تقدم وبرع فى بعض هذه الأساليب حتى فاق نظراءه ، وقرع أكفاءه ، لا يتعذر عليه الاتيان بأسلوب القرآن فى الطبقة الدنيا ، فصح بما بيناه أنه لا يمكن أن يقال : ان الاعجاز تعلق بمجرد النظم •

ولا يمكن أن يقال : تعلق بمجرد الفصاحة ، لأن ذلك لا يتم الا بأن تعلم أن القرآن قد بلغ فى الفصاحة مبلغا ، تجاوزت الحد الذى يتمكن منها البشر تجاوزا انتقضت به العادة ، ولا يمكن ادعاء هذا العلم ، لأنه لا يخلو من أن يكون ضرورة أو مكتسبا ، ولا يجوز أن يكون ضروريا ، لأن ذلك لو كان كذلك لاشترك فيه جميع من له قدم فى اللغة وحظ من العلم بمواقع كلام العرب ، والأمر بخلاف ذلك ، لأن مثل ذلك فى التمييز فيه ، وفى غيره من الكلام ، وفى سائر الصناعات يجب أن يكون طريقه الضرورة •

فاذا ثبت بما بيناه أن ادعاءالتعذر فى كل واحد من الأمرين لا يمكن ولا يصح ، ثبت أن الاعجاز تعلق بمجموعها ، لأنا قد علمنا تعذر الاتيان بمثله على العرب بما أثبتناه وأوضحناه فى كتابنا هذا ، والصفتان جرتا مجرى واحدا ، أعنى النظم والفصاحة فى الميـــل الى التعذر ، فوجب القول : بأنه تعذر الاتيان بمثل القرآن فى الصفتين جميعا ، فصح ما ذهبنا اليه •

فان قيل : ما تنكرون على من قال لكم : انا وان لم نعـلم الآن ضرورة أن القرآن قـد باين سـائر كلام العرب فى الفصـاحة مباينة انتقضت بهـا العادة ، فانا نجوز أن يكون العرب الذين كانت المعرفة لهم بذلك جبلة وطبيعة ، عرفوا ذلك ضرورة

قيل له : تجويز ذلك لا يؤيد صحة ما ادعيتموه ، لأن الذى بنى عليه الدليل ، لا يغنى فيه التجويز ، وانما يجب أن تثبت فيه الصحة على القطع حتى يصح الدليل الذى بنى عليه ، وأنتم لم تثبتوا صحته ولا يستقيم سؤالكم •

فان قيـــل : ما أنكرتم أن يكون من تأمل قول الله عز وجـــل : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى ، وغيض المـاء ، وقضى الأمر ، واســتوت على الجودى ، وقيـــل : بعدا للقوم الظالمين »[1] وقوله سبحانه : « والنجم اذا هوى ، ما ضـــل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى »[2] وقوله عز وجل : « فى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب »[3] • عرف ما ادعيناه : من أن فصاحة القرآن ، وقعت على وجه انتقضت به العـــادة •

قيل له : نحن لا ننكر أن ألفاظ هذه الآيات جزلة واقعة فى أعلى طبقات الفصاحة من جهة الجزالة ، الا أن بين أن يكون الكلام كذلك ، وبين أن تنتهى فصاحته الى حيث تنتقض العادة : بون ، وهذه الآيات لا يكاد يذكرها الا المتـــكلم الذى لا يتصور من أقسام الفصـــاحة الا جزالة اللفظ •

وذلك لعمرى قسم منها عظيم الموقع ، وان كانت أقسام الفصاحة كثيرة متنوعة على ما نذكرها ونبينها بعد الفراغ من هذا الفصل ، وانما صار هذا القسم يشترك فى العلم به من خفت بضاعته فى معرفة كلام العرب ، أو توفرت ، لأن لها حلاوة تدرك من جهة السمع ، كما أن للألوان المخصوصة كالصفرة والخضرة ، ونحوهما : حلاوة ، تدرك من جهة البصر ، وكذلك ما يختص سائر الحواس ، وليس كذلك سائر أقسام الصناعات ، لأن العلم بها مفتقر الى العلم بطرائق العرب فى منظوم كلامهم ، ومنثوره ، وجهات تصرفهم فيها ، وكثير من أحوال لغاتهم وعاداتهم فى ايرادها •

وهذه أبواب لا يستقل بمعرفتها من لم يكن مطبوعا عليها ، الا أن ينال منها حظا جزيلا ، وقسما وافرا •

فان قيـــل : ما تنكرون على من قال لكم : ان النبى — صلى الله عليه — قد تحدى بالقرآن ، وعلمنا ذلك من حاله ، ولم يثبت أن النظم

---

(١) هود : ٤٤ — (٢) النجم : ١ — ٤

(٣) الواقعة : ٢٨ — ٣١

كان مقصودا بالتحدي ، واذا لم يثبت ذلك ، ثبت أنه لابد من وجه يكون هو المقصود بالتحدى ، ثبت أن ذلك الوجه هو الفصاحة فقط ، فبطل قول من يقول : ان النظم مقصود بالتحدى ؟

قيل له : لا فصل بينكم وبين من قال : لم يثبت ان الفصاحة مقصودة بالتحدى ، واذا لم يثبت ذلك فكان لا بد من وجه يكون هو المقصود بالتحدى ، وعليه ثبت أن ذلك الوجه هو النظم فقط ، وذلك أن القرآن له هذا النظم المخصوص والفصاحة المخصوصة ، وقد وقع التحدى به ، وثبت عجز البشر عن الاتيان بمثله ، فلم يكن ادعاء تعلق العجز بأحد الأمرين أولى من ادعاء تعلقه بالآخر ، فيجب أن يقال : انه متعلق بهما أو يقال : انه لا يتعلق بواحد منهما ، ولا يصح القول بأنه لا يتعلق بواحد منهما ، لأنه لابد من وجه به يتعلق الاعجاز ، ويكون هو المقصود بالتحدى ، فاذا ثبت ذلك فيجب تعلق الإعجاز بالأمرين ، وأن يكونا جميعا مقصودين بالتحدى على ما ذهبنا اليه . على أنا قد عرفنا من حال كل من ادعى أنه يعارض القرآن أو يأتى بما يقاربه نحو مسيلمة وطليحة وابن المقفع ، على اختلاف أحوالهم ، طلب الأسلوب والفصاحة معا ، ولم يكن فيهم من كان يأتى بشعر أو خطبة فيدعى أنه قد أتى بما يقاربه ، فدل ذلك على أنهم أجمعون عرفوا أن المقصود بالتحدى هو النظم والفصاحة معا . فدل ذلك على صحة ما قلناه .

على أن قوله عز وجل : « **فأتوا بسورة من مثله** »(٤) وقوله عز وجل : « **فأتوا بعشر سور مثله مفتريات** »(٥) يدل على أن النظم مقصود بالتحدى ، لأن اسم السورة لا ينطلق على الشعر ، ولا الخطبة ولا الرسالة ولا اسجاع الكهنة ، ولا المحاضرة ، وانما ينطلق على ماله هذا النظم المخصوص . فاذا كان كذلك كان قوله : « **قل فأتوا بسورة** » جاريا مجرى أن يقول : فأتوا بجملة لها هذا النظم المخصوص ، فبان صحة ما ادعيناه من تعلق الاعجاز بالنظم مع الفصاحة .

---

(٤) البقرة : ٢٣

(٥) هود : ١٣

فان قيل : اذا ثبت أن هذا النظم المخصوص لم تكن العرب تعرفه ، ولا جرت عادتها باستعماله ، فمن أين ادعيتم : أن اسم السورة يتناوله دون سائر أجناس الكلام ؟

قيل له : هذا الاسم جارى مجرى الأسماء الشرعية ، لأنه لم تكن العرب تستعمله فى جمل شتى من أجناس الكلام ، وانما استعمل ذلك بعد نزول القـــرآن ، الا أنه لمـــا قال عز وجل : **« بســـورة من مثله »** وقال : **« عشر سور مثله مفتريات »** صح أنه يجوز استعماله فيما يجانس نظمه من الكلام • وهذه دلالة قوية يجوز أن تعتمد ابتداء فى بيان أن النظم مقصود بالتحدى ، واذا ثبت ذلك ثبت تعلق الاعجاز بالنظم على ما قلناه •

فان قيل : ما تنكرون على من قال لكم : ان الاعجاز تعلق بالنظم فقط ؟

قيل : قد تقدم بيان فساد قول من يقول ذلك • لأنا بينا أن مثل هذا النظم لا يجوز أن يتعذر على من لا يتعذر عليه سائر أجناس النظم ، وذلك يسقط هذا السؤال ، ولا يصح أيضا سؤال من يسأل فيقول : اذا لم يكن النظم معجزا ، فيجب أن تكون الفصاحة هى المعجزة ، ولا سؤال من يسأل فيقول : ان الفصاحة قد انتقضت بها العادة ، فلا وجه لضم الأسلوب اليها ، لأنا قد بينا أن الاعجاز بهما تعلق ، وأنه لا سبيل لنا الى العلم بأن فصاحة القرآن قد بلغت الى حد انتقضت به العادة ، وبينا أن الاعجاز بهما تعلق ، أعنى النظم والفصاحة • وأن ذلك جارى مجرى العلة ذات وصفين ، فى أن كل واحد من الوصفين لا يتعلق الحكم به على الانفراد •

فان قيل : فاذا قلتم : ان النظم على الانفراد غير متعـــذر على البشر ، وكذلك الفصاحة على الانفراد غير متعذرة على البشر ، فكيف يصح أن تقولوا : يتعذر عليهم الجمع بينهما ، وهذا يؤدى الى القول بأن الاتيان بمثل القرآن لا يتعذر على البشر ؟

قيل له : معاذ الله من ذلك • فان القول الذى قلناه ، لا يؤدى الى ما ذكرتم على ما نبينه ونوضحه • وذلك أن الذى من أجله أن

لا يتعذر النظم هو العلم الذى يحصل به وهو العلم بأن كل كلمة اذا وقعت عقيب أى كلمة أعقب هذا : النظم أو غيره من نظم أجناس الكلام موزونه أو منثوره ، ويتعذر ما يتعذر من ذلك لفقد هذا العلم ، وكذلك الذى من أجله أن لا تتعذر الفصاحة هو أن يعلم أن كل كلمة اذا وقعت عقيب أى كلمة ، وما جرى مجراها من تبديل حرف عن حرف أو كلمة عن كلمة خرج الكلام فصيحا ٠

وجملة هذا العلم هى علوم ضرورية وان كانت لا تحصل الا بالممارسة كالعلم بالمهن والصناعات ٠ ثم العلم بما اذا أتى به كان فصاحة فى الطبقة الدنيا أو الوسطى أو العليا فى نظم مخصوص علم ثالث[٦] ٠ وهو أيضا اذا حصل حصل ضرورة ٠ واذا كان هذا هكذا لم يمتنع أن يكون الله عز وجل لم يجمع لأحد من البشر بين هذه العلوم الثلاثة ٠ أحدها : هو العلم بما به يكون هذا النظم واقعا فى أعلى طبقات الفصاحة ٠ واذا لم يمتنع ذلك لم يمتنع أن يتعذر على جميع البشر الاتيان بمثل القرآن لفقد أحد العلوم الثلاثة ، وان حصل العلمان ٠

يكشف هذه الجملة : أنا نعلم أن الكاتب الذى يكتب الرسائل فى أعلى طبقات الفصاحة اذا عدل عنها الى الشعر ربما لم يمكنه أن يأتى به فى أعلى طبقات الفصاحة ، وكذلك الشاعر المفلق ربما أمكنه فى الشعر أن يرتقى الى أعلى طبقات الفصاحة ، فاذا أخذ يكتب الرسائل هبط عن مرتقاه ٠

وعلم أن هذا الخطيب المصقع ، أو المحاور الفصيح قد يعدل الواحد منهما عما هو نهاية فيه الى غيره ، فلا يمكنه بلوغ النهاية فيه ٠ فوضح بما ذكرنا : أن العلم بايقاع الفصاحة فى نظم مخصوص علم ثالث غير العلم بالنظم ، والعلم بالفصاحة ٠ فلم يمتنع أن يتعذر ما ذكرنا لفقد ذلك العلم ٠ وهذه العلوم هى التى يعبر عنها بالطبع فيقال : فلان مطبوع فى كذا ، غير مطبوع فى كذا ٠ والمرجع به الى العلوم التى ذكرناها ٠

---

(٦) يقصد بالعلوم الثلاثة : ١ ـ الأسلوب ٢ ـ والفصاحة ٣ ـ وفن اختيار الكلمات ٠

فان قيل : اذا ثبت أن هذا النظم المخصوص لم تكن العرب تعرفه ، ولا جرت عادتها باستعماله ، فمن أين ادعيتم : أن اسم السورة يتناوله دون سائر أجناس الكلام ؟

قيل له : هذا الاسم جارى مجرى الأسماء الشرعية ، لأنه لم تكن العرب تستعمله فى جمل شتى من أجناس الكلام ، وانما استعمل ذلك بعد نزول القــرآن ، الا أنه لمـا قال عز وجل : « **بســورة من مثله** » وقال : « **عشر سور مثله مفتريات** » صح أنه يجوز استعماله فيما يجانس نظمه من الكلام • وهذه دلالة قوية يجوز أن تعتمد ابتداء فى بيان أن النظم مقصود بالتحدى ، واذا ثبت ذلك ثبت تعلق الاعجاز بالنظم على ما قلناه •

فان قيل : ما تنكرون على من قال لكم : ان الاعجاز تعلق بالنظم فقط ؟

قيل : قد تقدم بيان فساد قول من يقول ذلك • لأنا بينا أن مثل هذا النظم لا يجوز أن يتعذر على من لا يتعذر عليه سائر أجناس النظم ، وذلك يسقط هذا السؤال ، ولا يصح أيضا سؤال من يسأل فيقول : اذا لم يكن النظم معجزا ، فيجب أن تكون الفصاحة هى المعجزة ، ولا سؤال من يسأل فيقول : ان الفصاحة قد انتقضت بها العادة ، فلا وجه لضم الأسلوب اليها ، لأنا قد بينا أن الاعجاز بهما تعلق ، وأنه لا سبيل لنا الى العلم بأن فصاحة القرآن قد بلغت الى حد انتقضت به العادة ، وبينا أن الاعجاز بهما تعلق ، أعنى النظم والفصاحة • وأن ذلك جارى مجرى العلة ذات وصفين ، فى أن كل واحد من الوصفين لا يتعلق الحكم به على الانفراد •

فان قيل : فاذا قلتم : ان النظم على الانفراد غير متعــذر على البشر ، وكذلك الفصاحة على الانفراد غير متعذرة على البشر ، فكيف يصح أن تقولوا : يتعذر عليهم الجمع بينهما ، وهذا يؤدى الى القول بأن الاتيان بمثل القرآن لا يتعذر على البشر ؟

قيل له : معاذ الله من ذلك • فان القول الذى قلناه ، لا يؤدى الى ما ذكرتم على ما نبينه ونوضحه • وذلك أن الذى من أجله أن

لا يتعذر النظم هو العلم الذى يحصل به وهو العلم بأن كل كلمة اذا وقعت عقيب أى كلمة أعقب هذا : النظم أو غيره من نظم أجناس الكلام موزونه أو منثوره ، ويتعذر ما يتعذر من ذلك لفقد هذا العلم ، وكذلك الذى من أجله أن لا تتعذر الفصاحة هو أن يعلم أن كل كلمة اذا وقعت عقيب أى كلمة ، وما جرى مجراها من تبديل حرف عن حرف أو كلمة عن كلمة خرج الكلام فصيحا .

وجملة هذا العلم هى علوم ضرورية وان كانت لا تحصل الا بالممارسة كالعلم بالمهن والصناعات . ثم العلم بما اذا أتى به كان فصاحة فى الطبقة الدنيا أو الوسطى أو العليا فى نظم مخصوص علم ثالث(٦) . وهو أيضا اذا حصل حصل ضرورة . واذا كان هذا هكذا لم يمتنع أن يكون الله عز وجل لم يجمع لأحد من البشر بين هذه العلوم الثلاثة . أحدها : هو العلم بما به يكون هذا النظم واقعا فى أعلى طبقات الفصاحة . واذا لم يمتنع ذلك لم يمتنع أن يتعذر على جميع البشر الاتيان بمثل القرآن لفقد أحد العلوم الثلاثة ، وان حصل العلمان .

يكشف هذه الجملة : أنا نعلم أن الكاتب الذى يكتب الرسائل فى أعلى طبقات الفصاحة اذا عدل عنها الى الشعر ربما لم يمكنه أن يأتى به فى أعلى طبقات الفصاحة ، وكذلك الشاعر المفلق ربما أمكنه فى الشعر أن يرتقى الى أعلى طبقات الفصاحة ، فاذا أخذ يكتب الرسائل هبط عن مرتقاه .

وعلم أن هذا الخطيب المصقع ، أو المحاور الفصيح قد يعدل الواحد منهما عما هو نهاية فيه الى غيره ، فلا يمكنه بلوغ النهاية فيه . فوضح بما ذكرنا : أن العلم بايقاع الفصاحة فى نظم مخصوص علم ثالث غير العلم بالنظم ، والعلم بالفصاحة . فلم يمتنع أن يتعذر ما ذكرنا لفقد ذلك العلم . وهذه العلوم هى التى يعبر عنها بالطبع فيقال : فلان مطبوع فى كذا ، غير مطبوع فى كذا . والمرجع به الى العلوم التى ذكرناها .

---

(٦) يقصد بالعلوم الثلاثة : ١ — الأسلوب ٢ — والفصاحة ٣ — وفن اختيار الكلمات .

يكشف ذلك : أنا نعرف من حال الخليل والأصمعى ومن جرى مجراهما أنهم كانوا يعرفون الفصاحة ، ولم تتعذر عليهم • وكانوا يعرفون وزن الشعر ولم يكن يتعذر • ومع هذا نعلم أن واحدا منهم لم يكن يمكنه أن يأتى بمثل أشعار امرىء القيس ، والنابغة ، والأعشى ومن دونهم من فحول الشعراء ، وليس السبب فيه الا ما ذكرناه ، ولهذا تجد من يتفاصح فى كثير من أجناس النظم ، اذا طلب نظم القرآن سقط دون غرضه وهبط دون مرتقاه ، وليس ذلك الا أنه يفقد العلم الذى معه يصح ايقاع الفصاحة فى هذا النظم المخصوص •

فان قيل : ما تنكرون على من قال لكم : اذا كان هذا النظم لم يكن عرف قبل النبى — صلى الله عليه — فما أنكرتم أن يكون معجزا على الانفراد لأنه بالاتيان به يكون ناقضا للعادة ؟

قيل له : ليس معنى قولنا فى المعجز : انه ناقض للعادة • أنه أتى به من غير أن كان مثله قبل ذلك الوقت • لأن السبق الى الشىء لا يوجب كونه معجزا ، ألا ترى أن كثيرا من الصناعات قد ابتدئت ، ووقع السبق اليها من أقوام ، ولا يصح ادعاء المعجز فى شىء • وانما نريد بقولنا : انه ناقض للعادة ، أن مثله يتعذر على جميع البشر • والعادة المنقوضة استمرار الحال فى تعذره على ما قلنا •

فأما قول من يقول : ان الاعجاز فى الصرف فى جملة القرآن ، فهو عندى بعيد جدا • لأن الصرف عن الشىء يمكن أن يدعى اذا علم أنه مقدور عليه ، غير متعذر وجود مثله ، ممن ادعى أنه مصروف عنه • وليس هاهنا ما يبين أن الاتيان بمثل القرآن كان ممكنا للعرب غير متعذر عليهم ، بل قد ذهبنا على خلاف ذلك ، فبان سقوط من ادعاه •

وأيضا القول بذلك يؤدى الى أن يعرف الفرق بين ما يتعذر على الناس ، وبين مالا يتعذر ، لأنه لو جاز لهم أن يقولوا : ان العرب صرفوا عن الاتيان بمثل القرآن ، وان لم يثبت تأتيه منهم لجاز أن يقال : ان الناس صرفوا عن فعل الأجسام والألوان والحياة والقدرة ، وان لم يثبت أن شيئا منه متأت منهم ، وهذا واضح السقوط • وكذلك القول فى الصرف عن القرآن •

وأما سؤال من يسأل من أهل هذه المقالة • فيقول : اذا كان الانسان قادرا على أن يقول : « الحمــد لله » ويتــأتى منه أن يقول : « رب العالمين » وغير متعذر عليه أن يأتى على جميع القرآن ، فما الذى يمنعه عن الاتيان بمثله ؟ ومتى يحصل التعذر ؟ أعند أول كلمة ؟ أو عند الثانية ؟ أو الثالثة ؟ أو ما بعدها ؟ وذلك مما لا يصح ، فثبت أن الاعجاز هو الصرف ، فانه من ركيك السؤال ، لأنا قد بينا فيما تقدم : ان انشاء الخطبة أو الشعر أو الرسالة أو نظم القرآن فى أعلى طبقات الفصاحة يحتاج الى علم زائد على العلم بالنظم والفصاحة ، وذلك العلم الزائد هو الذى يعبر عنه بالطبع ، فلا وجه لهذا السؤال •

على أنا نوضح سقوطه ، بأن نقول لهذا السائل : أليس قد علمت أن كل أحد ممن يعرف لغة العرب يمكنه أن يقول(٧) : « افانك » ويمكنه أن يقول : « كالليل » ويمكنه أن يقول : « الذى » ولا يتعذر عليه أن يقول : « هو مدركى » ويتأتى منه أن يقول : « وان خلت » ويتأتى منه أن يقول : « أن المنتأى » ولا يتعذر عليه أن يقول : « عنك واسع » •

أفترى أن كل من يعرف لغة العرب يمكنه أن يأتى بمثل قول النــابغة :

فانك كالليل الذى هو مدركى   وان خلت أن المنتأى عنك واسع(٨)

فيقال له : متى يحصل المتعذر عليه عند أول لفظة ؟ أو عند الثانية ؟ أو عند الثالثة ؟ أو بعدها؟ ثم يلزم ذلك فى جميع أشعار العرب وخطبهم ، وهذا فساد أظهر من أن يحتاج الى الاطناب ، ولا بد لهذا السائل من الرجوع الى ما تقدم من جوابنا •

ولهذا قالوا : ان الشاعر المفلق : هو الذى يرمى قريحته بالبيت بعد البيت • والمتوسط : من يأتى بالمصراع بعد المصراع • والمتكلف :

---

(٧) يشير الى قول الشاعر ـ وهو النابغة :

فانك كالليل الذى هو مدركى   وان خلت أن المنتأى عنك واسع

(٨) فى الأصل : عنه واسع •

من يأتى بالكلمة بعد الكلمة حتى يؤلفها شعرا • وليس الفاصل بين الشاعر الأول والثانى أو الثالث الا العلوم التى أشرنا اليها المعبر عنها بالطبع ، وهكذا أحوال الخطباء والمترسلين عنهم ، منهم من يستجيب طبعه الى أن يأتى بالفصول بعد الفصول ، والاسجاع بعد الاسجاع ، يكاد يتسلسل عليه ماء العذوبة ، ويبعد عن التكلف والتعسف ، ومنهم من يؤلف الكلمة الى الكلمة والسجع الى السجع متعمدا أن تنادى على نفسها بأنها متكلفة متعسفة ، وليس الفاصل بينهم الا الطبع • وعلى أن الاعجاز لو كان من جهة الصرف ، لكان الصرف هو المعجز ، ولم يكن القرآن معجزا • وهذا خلاف ما يعلم من دين المسلمين ، لأن المسلمين مجمعون على أن الله عز وجل جعل القرآن معجزا لنبيه ـ صلى الله عليه وآله ـ •

ويدل على ما قلناه أيضا من كون القرآن معجزا فى نفسه : ما حكى الله عز وجل حيث يقول : **« ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : ان هذا الا سحر يؤثر »**(٩) •

وما ذكر من اجتماع أبى جهل ، وعتبة بن ربيعة ، فى ملأ من قريش يتعجبون من القرآن حين قالوا : نحتاج الى رجل يعرف الشعر ، ويعرف كلام الكهنة • فقال عتبة بن ربيعة : أنا لذلك ، ومضى الى رسول الله ـ صلى الله عليه ـ فتلا عليه قول الله عز وجل : **« حم • تنزيل من الرحمن الرحيم »**(١٠) حتى مر فى السورة • وانتهى الى قوله : **«فان أعرضوا • فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود»**(١١) فقام مرعوبا مدهوشا • وقال : سمعت الشعر ، وسمعت كلام الكهنة ، وما هذا شيئا من ذلك ، والى سائر ما ذكر من غيرهم فى أمر القرآن ، فلو كان القرآن أمرا لا يتعذر مثله على العرب ، وانما صرفوا ؛ كان لا يتعجب منه المتعجب ، ولايحار فيه الحائر ، وانما كان يكون التعجب والحيرة فى صرفهم • ألا ترى أن نبيا لو قال : معجزتى : أن أكلمكم اليوم الى المساء بما تكرهون ، فلا يمكن أحدا منكم أن يجيبنى لأنكم تصرفون عنه ، كان الاعجاز فى صرفهم هو الذى يكون أعجوبة •

---

(٩) المدثر : ٢١ ـ ٢٤
(١٠) فصلت : ١ ، ٢
(١١) فصلت : ١٣

وقد يحار من يحار دون مخاطبته المعهودة لهم ، كذلك يجب أن يكون حال القرآن والصرف على أوضاعهم لو كانت صحيحة ، وفى حرى الأحوال على خلاف ذلك دلالة على فساد قولهم •

فأما السور القصار ، فليس يبعد عندى أن يقال : انهم صرفوا عن الاتيان بمثلها ، اذ ليس يظهر لنا فى نظمها وفصاحتها ما يمكن أن نقول : ان الاعجاز يعلق فيه • وهــذا فيه نظر • والله أسأل حسن التوفيق •

ونحن نبين الآن فصاحة القرآن وشرف موقعه ، ومصادفة نظمه على طبقات الفصاحة ، اذ به يتم ما اعتمدناه وبنينا كلامنا عليه • والله الموفق والمعين •

هذا ولست أطمع فى أن أذكر جميع مزاياه وعجائبه ، وما اختص به من دقائق المعانى ، وعلو رتبته فى الفصاحة ، ومباينته عامة كلام العرب مما يوجب شرفه ويدل على بلوغه ذروة البلاغة ، وغارب الفصاحة التى أذكر يسيرا من كثير ، وغيضا من فيض ، على ما يحضرنى فى الحال ، منبها به على ما سواه مستعينا بالله عز وجل ، ومستمدا من فضله ، وراغبا اليه عز وجل أن يكتبه فى صحفنا ، اذا الصحف نشرت ، واذا السماء كشطت ، ويبيض وجوهنا ، يوم تبيض وجوه ، وتسود وجوه • حسبى الله وكفى •

الكلام فى بيان أن القرآن فى أعلى طبقات الفصاحة

اعلم : أن هذا لا يتم الا بأن نبين جملا من أقسام الفصاحة ، ثم نبين أن نظم القرآن مشتمل عليها ، ونبين مزايا القرآن فيها ، ونلحق بذلك ما يكشف عن غرضنا فى هذا الباب كشفا يوضحه ، ولا يبقى معه لمرتاد الحق شبهة ، بعون الله عز وجل ، وحسن توفيقه .

اعلم . أن أصل الفصاحة : هو الابانة عن المعنى المقصود بحسن البيان . وهذا معنى ما حكى الله عز وجل عن موسى ــ صلى الله عليه ــ **« وأخى هارون هو أفصح منى لسانا »**(١) أى أحسن بيانا .

فمن أقسام الفصاحة أن يكون الكلام مركبا من اللغات الفاشية فى العرب التى لم يسترذلها أحد منهم نحو « عنعنة تميم » و «كشكشة ربيعة » وذلك أن قوما من تميم تجعل الهمزة المفتوحة عينا ، وأنشد الخليل فيه :

❋ وجيها موشك عن يصدع الكبدا ❋

أراد : أن يصدع

وقوم من ربيعة يقولون للمرأة : عليش وأليش وبش . يريدون : عليك واليك وبك . فيجعلون الكاف شينا ، وينشدون :

فعيناش عيناها ، وجيدش جيدها
سوى أن عظم الساق منش دقيق(٢)

قال الخليل : من ترك عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ، فهم الفصحاء.

ومن ذلك ما حكى عن قوم من العرب أنهم يكسرون النون ، التى تدخل على الفعل المستقبل فيقول : ونذهب ، ونخرج . ومن ذلك جر

---

(١) القصص : ٣٤

(٢) يريد :

فعيناك عيناها ، وجيدك جيدها ❋ سوى أن عظم الساق منك دقيق

الاسم لمجاورة المجرور ، وان لم يكن ذلك حقه كقولهم (جحر ضب خرب) ولذلك ذهب نحاة البصرة الى أنه لا يجوز أن يتأول قول الله عز وجل : « **وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم** »[٣] اذا قرىء بجر اللام فيقال : ان ذلك لمجاورة المجرور •

فأصل الفصاحة أن يسلم الكلام من ذلك ، وأشباهه ، وقد سلم كل القرآن من أوله الى آخره • فهذا باب من الفصاحة • ولهذا اقرأ (أبو عمر) : « **ان هذين لساحران** »[٤] ولم يتأوله على لغة من يجعل المنصوب للألف ، فيقول : (خدر جلاها واخلع نعلاها) ومثل ذلك :

ان أباها وأبا أباها   قـــد بلغا فى المجد غايتاها

وفيمن قرأ بالألف من حمله على أن (ان) بمعنى (نعم) وكره تأويله على الوجه الأول لمـــا قلناه •

ومن أقسام الفصاحة : أن يكون الكلام مؤلفا من لغات ترتفع عن المبتذل السوقى وتنحط عن المستفل الحوشى • ولهذا نجد أشعار الفصحاء المجيدين نحو امرىء القيس ، والنابغة وزهير والأعشى ، جارية على هذه الطريقة لا يكاد يوجد فيها الحوشى المستفل ، الا أن تتفق ندرا ، وانما يكثر ذلك فى كلام الأجلاف من العرب والمتكلفين نحو : الشماخ ، ورؤبة، ومن نحا نحوهما • فأما السوقى المبتذل فقل ما يتفق فى كلام أهل البادية، وانما يكثر ذلك فى كلام المولدين ، وأشعارهم والقرآن من أوله الى آخره مؤلف من النمط المختار فى هذا الباب • فهذان القســمان من الفصـــاحة قد استمرا فى جميع القرآن بحمد الله ومنه •

ومن أقســـام الفصـــاحة : جزالة اللفـــظ ، وهى موجودة فى جـــل القرآن وجمهوره ، وان لم يوجد فى جميعه ــ كما قلناه ــ فى القسمين الأولين ، لأنه ليس فى قـــوة الطويل الذى يصرف على معانى مختلفة ، ومقاصـــد متباينة ، وأغراض متمايزة ، كالأوامر والنواهى والزواجـــر والمواعظ والوعد والوعيد والقصص والمثل أن يكون جميعه مؤلفا من ألفاظ جزلة ، لأن جزالته تكون لتأليفه من حروف مخصوصة ، والكـــلام

---

(٣) المـــائدة : ٦

(٤) طه : ٦٣ ولفظ الآية : « **قالوا ان هذان لساحران ••** » •

مبنى من الأسماء والأفعال والحروف ، وفى الكثير من الاسماء والافعال والحروف ما لم يؤلف من الحروف التى تقتضى الجزالة ، والفصيح اذا صار الى تلك الأسماء والأفعـــال والحروف ، فلا بد من ايرادها على ما هى عليه ، اذا كان متكلما بكلام العرب •

ولهذا لا يمكن فى شىء من أشعار فحول الشعراء ، وكلام البلغاء أن يكون من أوله الى آخره مؤلفا من ألفاظ جزلة •

فأما العذوبة فهى أمكن لأنها تكون بالتلاؤم وأن لا تكون الكلمة مؤلفة من حروف متنافرة وذلك أمكن من الجزالة ، وقد يكون ذلك بتلاؤم الحركات والسكنات كمـــا يكون بتلاؤم الحروف ، وأما مواضـــعها من القرآن فأكثر من أن يأتى عليها الاحصاء والعد ونحن نذكر منها مواضع ننبه بها على ما سواها • من ذلك قوله عز وجل : « **كمثل الذى استوقد نارا فلمـــا أضـــاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون** »(٥) وقوله : « **يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا** »(٦) وفى هذه الآية من وجوه الفصاحة سوى الجزالة ما نبينه فى موضعه •

وكقوله : « **الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج** »(٧) وكقوله عز وجل : « **ولكم فى القصاص حياة** »(٨) •

وقوله : « **والحرمات قصاص** »(٩) •

وقوله عز وجل : « **فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين** »(١٠) وقوله « **ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** »(١١)• وقوله : « **وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم •قالوا : يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة • قال : انكم**

---

(٥) البقرة : ١٧
(٦) البقرة : ٢٠
(٧) البقرة : ١٩٧
(٨) البقرة : ١٧٩
(٩) البقرة : ١٩٤
(١٠) البقرة : ١٩٣
(١١) الأعراف : ١٣٧

قوم تجهلون »[١٢] وكقوله : « **خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين »**[١٣] وقولهعز وجل : « **فانسلخ منها • فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين »**[١٤] وكقوله عز وجل : « **كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير »**[١٥] وهذه السورة أكثر ألفاظها من ألفاظ الجزالة مع العذوبة • وفيها : « **وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر »**[١٦] وفيها : « **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد ، وما ظلمناهم ، ولكن ظلموا أنفسهم »**[١٧] ومن ذلك عامة سورة القصص وهو من الفصاحة العجيبة ، لأن أول هذه السورة فى اقتصاص أحوال موسى — صلى الله عليه — من مولده الى مبعثه الى قصده فرعون ، مبلغا ما أرسل به اليه ، وذلك مما يصعب جدا فى اقتصاص أحوال بعينها لأنه لابد من ضعف يعرض فيما جرى مجراه ، فاذا أردت أن تتحقق ذلك فتأمل كلام الفصحاء اذا قصدوا هذا القصد ، ومن ذلك عامة « **حم** » السجدة • تأملها ، تجدها على ما قلناه • ومن ذلك: «**والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وماغوى**»[١٨] وما بعدها من الآيات •

ومن ذلك قوله عز وجل : « **أمن جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا • أاله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون »**[١٩] ومن ذلك فى السور القصار قوله : « **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل • وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول »**[٢٠] وقوله عز وجل : « **والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا »**[٢١] •

وتتبع هذا مما يتعذر ، فان أكثر القرآن على هذا ، ونحن اذا بينا سائر أقسام الفصاحة ننبه فى أثنائها أيضا على ما فيها من الجزالة ، وان

---

(١٢) الأعراف : ١٣٨
(١٣) الأعراف : ١٩٩
(١٤) الأعراف : ١٧٥
(١٥) هود : ١
(١٦) هود : ٤٤
(١٧) هود : ١٠٠ ، ١٠١
(١٨) النجم : ١ ، ٢
(١٩) النمل : ٦١
(٢٠) سورة الفيل •
(٢١) العاديات : ١ — ٥

هذا باب عام فيه • وان كان بعض الألفاظ يزيد على بعض ، وفى هــذا المعنى — أعنى فى الجزالة والعذوبة — ومن أقسام الفصاحة: الاستعارات والتشبيهات ، واحداهما قريبة من الأخرى ، وان كان بينهما فصــل ، وذلك : أن التشبيه هو أن يذكر الشىء باسمه ، ويشبهه بغيره • كقولك : « زيد مثل الأسد شجاعة ، وكالريح جودا ، وكالبدر حسنا » •

والاستعارة أن تنقل اليه اسم الشىء المشبه به ، وذلك كقولك (حمار) اذا وصفته بالبلادة ، أو (كلب) اذا وصفته بالخساسة ، والاستعارات والتشبيهات فى القرآن كثيرة حســنة واقعة موقعها لحســنها ، وشرف موضعها • ونحن نذكر منها جملا ننبه بها على ما سواها ، لأن استيفاءها مما يطول ويتعذر • فمن ذلك قوله عز وجل : **« مثلهم كمثــل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ، ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون »**(٢٢) فشبه المنافقين الذى أظهروا الايمان ، وانتفعوا به بين المسلمين بمن استوقد نارا ، حتى أضاءت ما حوله ، وشبه أحوالهم عند الموت ، وبعد الموت فى أنهم لا ينتفعون بما أظهروه من الايمان ، ثم **« ذهب الله بنــورهم »** حتى بقــوا فى **« ظلمــات لا يبصرون »** ثم استعار لهم عز وجل اسم الأصم والأبكم ، وضم الاعمى ، فقال : **«صم بكم عمى فهم لايرجعون»** فهم فى اعراضهم عن استماع الحق بمنزلة الصم الذين لا يسمعون ، وفى تركهم النطق بالحق على ما أمرهم الله عز وجل ودعاهم اليه ، بمنزلة الخرس الذين لا ينطقون •

ثم قال عز وجــل : **« أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعــد وبرق »**(٢٣) الى آخر الآية ، فشبههم فى حيرتهم وتبلدهم واضطراب أمورهم ، وحرج صدورهم بمن يكون فى ظلمات ورعد وبرق ، ثم ذكر هذا المعنى بقوله عز وجل : **« ومن يرد الله أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ، كأنما يصعد فى السماء »**(٢٤) ثم زاد فى وصف أحوالهم فقال : **« يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه ، واذا أظلم**

---

(٢٢) البقرة : ١٧ وما بعدها •
(٢٣) البقرة : ١٩
(٢٤) الأنعام : ١٢٥

عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب»(٢٥) ثم رد عز وجل هذا المعنى — أعنى تأثير البرق فى الأبصار فى غير هذه الألفاظ ، فقال : « **يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار** »(٢٦) وهذا من الفصاحة العجيبة والبلاغة التامة أن يرد معنى واحدا بألفاظ مختلفة تجمعها الفصاحة ، ثم عاد عز وجل الى ذكر من بدأ بذكرهم ، فقال : « **والله محيط بالكافرين** » وهذا قسم من الفصاحة ، وهو أن يجرى ذكر شىء ، ثم يتجاوز الى ذكر غيره ، ثم يعطفه عليه، ويعاد ذكره ، أعنى المذكور أولا مثل قول جرير :

متى كان الخيام بذى طلوح ؟   سقيت الغيث أيتها الخيام

فجمعت هذه الآية أنواع الفصاحة منها الجزالة فى اللفظ مع التشبيهات والاستعارة الواقعة ، والعطف آخر الكلام على أوله ..

ومن الأمثال الحسنة والتشبيهات الواقعة ما ذكره عز وجل من قوله عز وجل : « **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة** »(٢٧) الى قوله : « **يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** » فشبه عز وجل من أنفقوا ابتغاء لوجه الله ، وطلبا لثوابه الرادع ، بما يحصل لهم من الربح بحبة ، وبمن له جنة بربوة ، آتت أكلها ضعفين ، وشبه من أحبط ثواب انفاقه بطلب الرياء والسمعة بصفوان عليه تراب اذا أصابه الوابل ، وبمن له جنة ، وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت . وكلها تشبيهات ، وأمثال واقعة ، بألفاظ جزلة .

ومن الاستعارة الحسنة قوله عز وجل : « **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** »(٢٨) وقوله : « **واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين**»(٢٩) فجمع بين الآية : الاستعارة الحسنة ، والجزالة البالغة ، والعذوبة اللطيفة .

وأخذ هذا المعنى الكميت فقال :

خفضت لهم منى جناحى مودة   الى كنف . عطفاه أهل ومرحب

---

(٢٥) البقرة : ٢٠   (٢٦) النور : ٤٣
(٢٧) البقرة : ٢٦١ وما بعدها .   (٢٨) الاسراء : ٢٤
(٢٩) الشعراء : ٢١٥

فأخذ اللفظ والمعنى • ولكن لم يرزق تلك العذوبة الصافية ، وذلك المـاء المتسلسل على أن هذه اللفظة فى غرة هذا البيت مع ما بها ، والباقى كما يرى ، ومن الاستعارة الحسنة العذبة مع الجزالة قوله عز وجل « **واشتعل الرأس شيبا** »(٣٠) فاستعار للبياض اسم الاشتعال مصبوبا فى قالبه ، مقصورا عليه وهذا من الفصاحة البالغة •

ومن ذلك قوله عز وجل : « **الله نور السموات والأرض** »(٣١) الى آخر الآية ، فسمى نفسه باسم النور لمـا كان عز وجل ، هو خالق النور ومنشئه ، مع ما فيه من النفع العظيم لأهل السموات والأرض ، وهذا من الاستعارة الحسنة ، ومن تسمية الفاعل بفعله • ومنه قول الشاعر :

تراعى اذا غفلت ، حتى اذا ادكرت ❊ فانمـا هى اقبـال وادبار

وعلى هذا تأول من قرأ : « **انه عمل غير صالح** »(٣٢) برفع اللام وفتح الميم ، ثم شبه نوره بالمصباح ، فقال : « **مثل نوره كمشكاة فيهـا مصباح ، المصباح فى زجاجة** »(٣٣) ثم شبه الزجاجة بالكوكب ، فقال : « **الزجاجة كأنها كوكب درى** » وهو أضوأ الكواكب ، ثم عاد الى ذكر المصباح ، وهذا يسـمى الالتفات ، فقال : « **يوقد من شـجرة مباركة زيتونة** » الى قوله : « **يهـدى الله لنوره من يشاء** » فعـاد الى ذكر النور ، وهذا أيضا مما يسمى الالتفات ، وهو أن يجرى ذكر شىء ، ثم يتجاوز الى غيره ، ثم يذكر ثانيا ، كما قال جرير : —

متى كان الخيـام بذى طلوح ❊ سقيت الغيث أيتهـا الخيام

فجمعت هذه الآيات وجوها من الفصاحة منها جزالة اللفظ ، ومنها الاستعارة ، ومنها تشبيه بعد تشبيه ومنها الالتفات بعد الالتفات •

ومن التشبيه الواقع قوله عز وجل بعد هذه الآية : « **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجد الله عنده ، فوفاه حسابه** »(٣٤) •

---

(٣٠) مريم : ٤
(٣١) النور : ٣٥
(٣٢) هود : ٤٦
(٣٣) النور : ٣٥
(٣٤) النور : ٣٩

لما كانت أعمالهم محبطة لا نفع فيها فى الآخرة ، شبهها بالسراب الذى لا نفع فيه ، ولأنه مما يظن الناظر أنه ماء ، وكذلك الكافر لما يظن أن له نفعا فى عمله ، شبهه أيضا به ، فهذان وجهان من التشبيه وفيه تشبيه ثالث ، وهو انكشاف حال كل واحد منهما عن أنه لا نفع فيه لراجيه ، وفيه تشبيه آخر ، وهو تشبيه الكافر بالظمآن ، وتشبيه ظنه بظنه ، وتشبيه خيبته بخيبته عند شدة حاجته اليه ، وقوة تعويله عليه ، فقد جمعت الآية هذه الوجوه من التشبيهات مع جزالة اللفظ ، وحسن المعنى ، وقد عد من محاسن امرىء القيس : أنه جمع بين تشبيهين فى بيت واحد حيث يقول : —

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها :العناب،والحشف البالى

ومن التشبيه الحسن فى هذا المعنى : قوله : **« مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف »**(٣٥) ومن الاستعارة فى هذا المعنى : **« وقدمنا الى ما عملوا من عمل ، فجعلناه هباء منثورا »**(٣٦) فعبر عن فعله عز وجل بالقدوم ، وعن أعمالهم بالهباء المنثور .

ومن التشبيه الحسن قوله عز وجل : **« ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا »**(٣٧) ، ومن التشبيه قوله تعالى : **« كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما »** (٣٨) ومن ذلك قوله عز وجل : **« كأنهم بنيان مرصوص »**(٣٩) ومنه قوله عز وجل : **« فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق »**(٤٠) .

ومن الاستعارة قوله عز وجل : **« نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم »**(٤١) فسماهن حرثا ، لأن النسل يخرج منهن ، كما يخرج الزرع من الأرض .

---

(٣٥) ابراهيم : ١٩
(٣٦) الفرقان : ٢٣
(٣٧) الانسان : ١٨
(٣٨) يونس : ٢٧
(٣٩) الصف : ٤
(٤٠) الحج : ٣١
(٤١) البقرة : ٢٢٣

ومن ذلك قوله عز وجل : « **ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه** »[٤٢] أى تترخصوا ، فسمى الترخص اغماضا ، لأن الانسان يصرف بصره ، عما لايحب أن يراه ، ويقف على حقيقته •

ومن ذلك قوله عز وجل : « **كلما أوقدوا نارا للحرب ، أطفأها الله** »[٤٣] أرادكلما أهاجوا شرا • وأمثال هذا فى القرآن أكثر من أن تعد وتحصى ، وهى عادة العرب فى مخاطباتها ، ومحاوراتها ، وأشعارها وخطبها ، ولم نطول الكتاب بذكرما ورد عنهم فى هذا الباب لشهرته واستفاضته •

ومن أقسام الفصاحة : الايجاز • وذلك ينقسم الى قسمين ، قد يكون بتقليل الحروف مع استيفاء المعنى ، وقد يكون بالحذف ، والحذف على أنحاء شتى ، ونحن نبينه على جميع ذلك بذكر بعضه اذ استيفاء جميعه مما يطول • فمن الايجاز بتقليل الحروف قوله عز وجل : « **وله كل شىء** »[٤٤] ومن ذلك قوله عز وجل : « **أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها** »[٤٥] قلل الحروف فى هذا الموضع ، لما أراد الايجاز ، وبسط حيث أراد البسط فى هذا المعنى فقال : « **انا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا، فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا** »[٤٦] وقال أيضا: « **خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين** »[٤٧] •

فانظر — رحمك الله — الى شرف هذا الكلام ، فانه أوجز هذا الايجاز ، وذكر للانسان حالتين احداهما : أضعف الحالات ، والأخرى : أقواها • ثم نبه على ما بينهما • فجمع فى الآية وجهين من الايجاز • أحدهما : تقليل الحروف • والثانى: حذف الوسائط بين الحالتين ، مع جزالة اللفظ ، وحسن المعنى ، ثم أراد عز وجل بسط هذا المعنى قال : « **ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة**

---

(٤٢) البقرة : ٢٦٧ — (٤٣) المائدة : ٦٤
(٤٤) النمل : ٩١ — (٤٥) النازعات : ٣١ ـ ٣٢
(٤٦) عبس : ٢٥ ـ ٣١ — (٤٧) النحل : ٤

عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين »(٤٨) •

وهذا باب كبير من الفصاحة ، لأن البليغ هو الذى يبسط الكلام ، اذا شاء بسطه من غير خطل ، ويرخى عنان الخطاب ، ويمتطى ظهر الاطناب ، ويوجز اذا شاء الايجاز من غير تحيف للمعنى •

وحكى عن بعض الفصحاء أنه وصف كاتبا بالبلاغة • فقال : « ان أخذ طوبارا(٤٩) ملأه ، وان أخذ شبرا كفاه » يريد أنه كان يبسط اذا شاء ، ويوجز اذا شاء •

ومن هذا الباب قوله عز وجل : **« اذا أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شىء أتت عليه الا جعلته كالرميم »**(٥٠) فأراد عز وجل هذا الايجاز ، ثم لما أراد أن يزيد هذه الصفة يسيرا مع البسط ، قال : **« كذبت عاد ، فكيف كان عذابى ونذر ؟ انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا ، فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر »**(٥١) ثم لما أراد أن يزيد على ذلك فى البسط قال عز من قائل : **« فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ؟ »**(٥٢) ثم لما أراد عز وجل البسط التام بسط فى السورة التى يذكر فيها هودا — صلى الله عليه — والسورة التى يذكر فيها الأعراف ، والسورة التى يذكر فيها الشعراء ، وعلى هذا أوجز ذكر ثمود ، فقال عز وجل : **« فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية »**(٥٣) ثم بسط ذلك فى سائر المواضع ، ومن ذلك قوله عز وجل : **« وما بكم من نعمة فمن الله »**(٥٤) •

---

(٤٨) المؤمنون : ١٢ — ١٤

(٤٩) الطوبار : الورق الطويل الذى يطوى •

(٥٠) الذاريات : ٤١ ، ٤٢

(٥١) القمر : ١٨ — ٢٠

(٥٢) الحاقة : ٦ — ٨

(٥٣) الحاقة : ٥

(٥٤) النحل : ٥٣

فانظر رحمك الله الى هذا الايجاز مع استيفاء المعنى ، تعلم أنه أبلغ ما يمكن فى بابه ، ثم زاد عز وجل بسطه يسيرا ، فقال : **« وسخر لكم ما فى السموات ومافى الأرض جميعـا منه »**(٥٥) ، وقال أيضـا : **« وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة »**(٥٦) ثم بسط عز وجل ذكر الآية ونعمه فى السورة التى يذكر فيها النحل من قوله : **« والأنعام خلقها ، لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون »**(٥٧) •

الىقوله : **«وبالنجم هم يهتدون»**(٥٨) ثم من قوله : **«والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها »**(٥٩) الى قوله : **«أفبالباطل يؤمنون ، وبنعمـة الله هم يكفرون ؟ »**(٦٠) ومن قوله عز وجـل : **« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا »**(٦١) الى قوله : **« كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون »**(٦٢) وعامة هذه السورة فى ذكر نعم الله عز وجل •

ومن ذلك قـوله عـز وجـل :**« ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »**(٦٣) وقوله : **« خذ العفو وأمر بالعـرف ، وأعرض عن الجاهلين »**(٦٤) فدل عز وجـل بهاتين الآيتين على حسن العشرة بأوجز اللفظ ثم ضبط ذلك فى السورة التى يذكر فيها الحجرات أتم بسط • ومن الاختصار الحسن قوله عز وجل : **« يحسبون كل صـيحة عليهم »**(٦٥) وقـد طلب هـذا المعنى بعض الشعراء فقال :

ولو أنهـا عصـفورة لحسـبتها مسومة
تدعـو عبيـدا وأرنمـا

وقال آخر :

مازلت تحسب كل شىء بعـدهم
خيـلا تـكر عليـكم ورجـالا

---

(٥٥) الجاثية : ١٣
(٥٦) لقمان : ٢٠
(٥٧) النحل : ٥
(٥٨) النحل : ١٦
(٥٩) النحل : ٦٥
(٦٠) النحل : ٧٢
(٦١) النحل : ٧٨
(٦٢) النحل : ٨١
(٦٣) فصلت : ٣٤
(٦٤) الأعراف : ١٩٩
(٦٥) المنافقون : ٤

وقال آخر :

أرانى الخـــوف عـــدتهم ألوفـــا
وكان القـــوم خمســـا فى ثلاث

فلم يتفق لهم هذا الاختصار ولا هذه العذوبة •

وسمعت بعض أهل الأدب يحكى أن شاعرين كانا يتهاجيان فقال أحدهما فى صاحبه :

* يحسب كل صيحة عليه •• *

فكاع الآخر عنه ، وضعفت نفسه اعجابا بهذا البيت ، احساسا من نفسه بالعجز عن مثله الى أن عرف أنه أخذه من القرآن ، فتجرأ عليه ، وعادت له قوته ، وأخذ فى مهاجاته •

ومن ذلك قوله عز وجل : **«ولكم فى القصاص حياة»**(٦٦) وقد أخذ هذا بعضهم فقال : « وبعض القتل أحيا للجميع » وقال غيره : « القتل أنفى للقتل » فلم يقع من ذلك موقع قوله : **«ولكم فى القصاص حيــاة »** وتتبع مثل هذا مما يطول •

وأما القسم الثانى من الاختصار ، فهو الذى يكون بالحذف ، وذلك يتنوع أنواعا كثيرة • فمن ذلك أن تحذف المضاف ، ويقام المضاف اليه مقامه ، كقوله عز وجل : **« واسأل القرية التى كنا فيها ، والعير التى أقبلنا فيها ، وانا لصادقون »**(٦٧) أراد أصحاب العير ، وأهل القرية • وكقوله : **« اذن لأذقنــاك ضعف الحيــاة ، وضعف الممــات »**(٦٨) أى ضعف عذاب الحياة ، وضعف عذاب الممــات • وكقوله عز وجل : **« وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة »**(٦٩) ذكر عن أكثر المفسرين أن المراد الى ثواب ربها ناظرة ، فحذف الثواب • وهذا مذهب للعرب مشهور ، وهو فى القرآن كثير ، وقد يكون بحذف اسم أو فعل أو جواب كقوله عز وجل : **« ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ،**

---

(٦٦) البقرة : ١٧٩ — (٦٧) يوسف : ٨٢

(٦٨) الاسراء : ٧٥ — (٦٩) القيامة : ٢٢ ، ٢٣

أو كلم به الموتى »(٧٠) وتقديره : لكان هذا القرآن فحذفه .

وكقوله : **«ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا : حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله »**(٧١) تقديره : لكان ذلك خيرا لهم . فحذفه . ومثله قوله عز وجل : **« ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله تواب حكيم »**(٧٢) ومثل ذلك : **« أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما ، يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه »**(٧٣) ؟ وتقديره : أيساويه من لا يكون كذلك ؟ فحذفه .

ومثله فى الشعر كثير ، فمن ذلك قول الشاعر :

فأقسم لو شىء أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

معناه : أردناه ، ولم نقبل منه .

ومثله قول الشاعر :

عصيت اليها القلب ، انى لأمرها * سميع ، فما أدرى أرشد طلابها ؟

معناه : فما أدرى أرشد هو أم غى ؟ فحذف . ومثله قول النابغة :

أزف الترحل غير أن ركابنا لما تزل * برحالنا ، وكأن قد

يريد : كأن قد زالت . فحذف .

ومن ذلك أن يضمر أحد المذكورين ويظهر فعل الآخر لهما . وذلك كقوله عز وجل : **« وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم »**(٧٤) اذا قرىء بكسر اللام : المراد : وألحقوا الغسل بأرجلكم . وكقوله عز وجل : **« يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين »**(٧٥) ثم قال : **« وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون »**(٧٦) والمراد : ويؤتون بفاكهة ولحم طير . لأن الفاكهة واللحم لا يطاف بهما . وكذلك تأويل

(٧٠) الرعد : ٣١
(٧١) التوبة : ٥٩
(٧٢) النور : ١٠
(٧٣) الزمر : ٩
(٧٤) المائدة : ٦
(٧٥) الواقعة : ١٧ ، ١٨
(٧٦) الواقعة : ٢٠ ، ٢١

من قرأ : « **وحور عين** » بالجر تقديره : ويتزوجون بحور عين فحذف ذلك أجمع . ومنه قوله عز وجل : « **فأجمعوا أمركم وشركاءكم** »(٧٧) تقديره : وادعوا شركاءكم .

وورد مثله فى الشعر :

علفتها تبنا وماء باردا ❋ حتى بدت همالة عيناها

أراد : سقيتها ماء باردا فحذفه .

وقال الآخر :

اذا ما الغانيات برزن يوما ❋ وزججن الحواجب والعيونا

أراد : وكحلن العيونا . لأن العيون لا تزجج .

وقال آخر :

ورأيت بعلك فى الوغا ❋ متقلدا سـيفا ورمحا

والمراد : حاملا رمحا . لأن الرمح لا يتقلد . لكنه حذف المراد .

ومنه قوله تعالى : « **وقال : انى ذاهب الى ربى** »(٧٨) والمراد الى حيث أمر ربى . ومنه قوله : « **بل مكر الليل والنهار** »(٧٩) والمراد : مكركم بالليل والنهار . ومنه قوله : « **فأما الذين اسـودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم ؟** »(٨٠) فحذف .

ومن الحذف : اقامة الضمير مقام الذكر نحو قوله : « **حتى توارت بالحجاب** »(٨١) يعنى : الشمس . ولم يجر لها ذكر . وهذا رأى عامة المفسرين ، وان كان بعضهم قال : ان « المعنى : هو الصافنات الجياد » ومن ذلك قوله عز وجل : « **ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة** »(٨٢) يعنى : على الأرض . ولم يجر لها قبل ذلك ذكر . وكذلك

---

(٧٧) يونس : ٧١
(٧٨) الصافات : ٩٩
(٧٩) سبأ : ٣٣
(٨٠) آل عمران : ١٠٦
(٨١) سورة ص : ٣٢
(٨٢) النحل : ٦١

قوله عــز وجل : « **ولو يؤاخذ الله الناس بما كســبوا ما ترك على ظهرها** »(٨٣) يعنى على ظهر الأرض . ومنه قوله عز وجل : « **انا أنزلناه فى ليلة القدر** »(٨٤) أراد به القرآن من غير أن يكون جرى له ذكر .

ومثله قول الشاعر :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى ❋ اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

يعنى : النفس . وكذلك قول لبيد :

حتى اذا ألقت يدا فى كافر ❋ وأجن عورات الثغور ظلامها

يعنى : الشمس لقوله : ألقت يدا فى كافر .

ومن الحــذف قوله عز وجل : « **وتركنا عليه فى الآخرين** »(٨٥) يعنى : ذكرا حسنا وثناء جميلا .

ومن أقسام الفصــاحة : التجنيس . وهو أن يجمع بين كلمتين التقتا من حروف متجانسة وذلك مثل قوله عز وجل ، حاكيا عن صاحبة سـليمان ـ صلى الله عليه ـ : « **وأسـلمت مع سـليمان لله رب العــالمين** »(٨٦) ومن ذلك قوله عز وجل : « **للذين أحسنوا الحسنى** »(٨٧) وكذلك قوله : « **ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى** »(٨٨)وقوله عز وجل حاكيا عن يعقوب ـ صلى الله عليه ـ « **يا أسفى على يوسف** »(٨٩) وكذلك قوله عز وجل : « **يخافون ،وما تتقلب فيه القلوب والأبصار** »(٩٠) وكذلك قوله عز وجل : « **فسنيسره لليسرى** »(٩١) وقوله : « **اثاقلتم الى الأرض . أرضيتم** »(٩٢) ولم يكثر هذا الباب فى القرآن لمــا نذكره .

وكذلك فى أشعار المتقدمين ، ولا المطبوعين من المتأخرين . وانما استكثر ذلك من المتأخرين من كان يتكلف الصنعة .

---

(٨٣) فاطر : ٤٥
(٨٤) القدر : ١
(٨٥) الصافات : ١٠٨
(٨٦) النمل : ٤٤
(٨٧) يونس : ٢٦
(٨٨) الروم : ١٠
(٨٩) يوسف : ٨٤
(٩٠) النور : ٣٧
(٩١) الليل : ٧
(٩٢) التوبة : ٣٨

سمعت بعض أهل الأدب يقول : « ان القليل من التجنيس يحسن الكلام ، والاكثار يسلب الكلام بهجته » قال : « ومثله مثل الخال فى الحسناء ، فى أنه يزيدها حسنا ، وان كثرت الخيلان حتى يستوفى على عامة جسدها ، أكسبتها الوحشة ، وسلبتها البهجة » وصدق فيما قال ، لأن الاستكثار والجمع بين الحروف المتجانسة يوجب للكلام ضربا من التنافر . ألا ترى الى قول الأعشى :

وقد غدوت الى الحانوت يتبعنى * شاو مشل شلول شلشل شول

كيف يظهر عليه التنافر ؟ وكذلك قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر * وليس قرب قبر حرب قبر

فأما اذا وقع ذلك فى الكلام لمعا ، فانه يزيده حسنا وبهجة ، فلذلك — والله أعلم — وجد فى القرآن قليلا ، ولم يكثر .

ومن أقسام الفصاحة ما يسميه أكثر أهل الصنعة : المطابق ، وهو ايراد لفظتين يفيد كل واحدة منهما ضد ما تفيده الأخرى ، نحو قوله عز وجل : « **ان الحسنات يذهبن السيئات** »(٩٣) ونحو قوله عز وجل : « **يوم تبيض وجوه ، وتسود وجوه** »(٩٤) وقوله عز وجل : « **يضل من يشاء ويهدى من يشاء** »(٩٥) وقوله : « **ان الأبرار لفى نعيم ، وان الفجار لفى جحيم** »(٩٦) وقوله : « **وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات** »(٩٧) وقوله : « **هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج** »(٩٨) وقوله : « **فأما من أوتى كتابه بيمينه** »(٩٩) وقوله : « **وأما من أوتى كتابه بشماله** »(١٠٠) وهذا النوع فى القرآن كثير ، بحيث يكاد يتعذر احصاؤه . ولكنا قد نبهنا على الجميع بالجملة التى أوردناها ، وانما كثر هذا فى القرآن لأن كثرته لا توجب للكلام نبوا عن السمع ، ولا تنافرا ، كما يوجبه التجنيس .

---

(٩٣) هود : ١١٤
(٩٤) آل عمران : ١٠٦
(٩٥) فاطر : ٨
(٩٦) الانفطار : ١٣ ، ١٤
(٩٧) فاطر : ١٩ — ٢٢
(٩٨) الفرقان : ٥٣
(٩٩) الحاقة : ١٩
(١٠٠) الحاقة : ٢٥

ومن أقسام الفصاحة : الفواصل ، وهى الاسجاع • ومن الناس من كره تسميتها بالاسجاع اذا كانت فى القرآن والكلام فيه خارج عن غرضنا • لأن بيان المراد يغنى عن الاشتغال بالتسمية ، وهذه العوامل تكثر فى القرآن ، وتتجاوز حد الاحصاء والعد •

واول ذلك فى فاتحة الكلام كقوله « **مالك يوم الدين ، اياك نعبد واياك نستعين** »(١٠١) ثم فى سائر السور الى اخر القرآن • وهذه الفواصل تكون بحروف متفقة ، تسمى اسجاعا ، وتكون بحروف مختلفة ، وتسمى موازنه ، فما يسمى من ذلك موازنة نحو قوله : « **الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم** »(١٠٢) لأن آخر الآية الأولى هو النون ، وآخر الآية الثانية هو الميم • ومثل قوله : « **انا جعلنا ما على الأرض زينة لها ، لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا • أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم • كانوا من آياتنا عجبا ، اذ أوى الفتية الى الكهف ، فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهىء لنا من أمرنا رشدا** »(١٠٣) ألا ترى أن آخر الآية الأولى هو اللام ، وآخر الثانية هى الزاى ، وآخر الثالثة هو الباء ، وآخر الرابعة هو الدال ، ومثله : « **حمالة الحطب • فى جيدها حبل من مسد** »(١٠٤) ونظائرها كثيرة ، وما يسمى من هذه الفواصل : اسجاع • فمثل قوله عز وجل : « **ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين** »(١٠٥) الى تمام أربع آيات ، وآخرها كلها : نون • ومثله : « **قل هو الله أحد • الله الصمد** »(١٠٦) وقوله : « **قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق** »(١٠٧) ولا وجه لتعداد أمثاله فى القرآن لكثرته ، وتجاوز حد الاحصاء • ولأن شيئا من السور لا يخلو من ذلك • وهذا باب كبير من أبواب الفصاحة ، اذ ورد مع الحلاوة ، ورونق الطلاوة ، وجاء به متسمحا ، ولم يقهر عليه تكلفا وتعسفا ، ولم يكن مما تنبو عنه الأسماع ، وتمجه الأفهام ، وهو مشهور عند العرب لا يخلو منه كلام فصيح فى أحوال الاسترسال والاحتفال •

---

(١٠١) الفاتحة : ٤ ، ٥
(١٠٢) الفاتحة : ٢ ، ٣
(١٠٣) الكهف : ٧ — ١٠
(١٠٤) المسد : ٤ ، ٥
(١٠٥) البقرة : ٢
(١٠٦) الاخلاص : ١ ، ٢
(١٠٧) الفلق : ١ ، ٢

وللفصاحة اقسام كثيرة سوى ما بيناه ، وليس منها قسم الا وهو موجود فى القران ، وقد نبهنا بما ذكرناه منها على مالم نذكره •

ومن أقسام الفصاحة : **التلاؤم ، وهو نقيض التنافر** ، وهذا الباب هو من آخر ابواب الفصاحة وقد نبهنا عليه فى اول هذا البـــاب عند ذكرنا جزالة الألفاظ ، لكن أعدنا ذكره فى آخر الباب لنوضحه فضل ايضاح ، لأنه هو العمدة • وذلك أن عامة ما ذكرنا من اقسام الفصاحة ، بل كلها غير هذا القسم للتكلف والتعمل فيها مجال ومسرح • ويمكن التوصل اليها باحتذاء آثار من تقـــدم فيها ، بأن يتعلم طرائقهـــا ، ويستفاد مناهجها ، وهذا القسم الذى هو التلاؤم يتعذر الا أن يسمح به طبع مخصوص ، يعرف ذلك كل من له أدنى حظ من الأدب والمعرفة بنقد الكلام • وذلك أن التلاؤم به تكون العذوبة والحلاوة ، وعنه تكون حسن ديباجة الكلام ، ولهذا تجد الكلام المنظوم المنثور جيد السبك ، رصين النظم ، صحيح الوضع ، متسق المعنى • ومع ذلك تجده نابيا عن السمع ، نافرا عن الطبع ، اذا لم تحصل له العذوبة التى يكون سببها التلاؤم •

واعلم أن التـــلاؤم يكون بتلاؤم الحروف ، وتلاؤم الحـــركات والسكنات ، وتلاؤم المعنى ، فاذا اجتمعت هذه الوجوه ، خرج الكلام غاية فى العذوبة ، وفى حصول بعضها انحطاط درجة العذوبة عن الغاية ، وسائر أقسام الفصاحة مع عدم التلاؤم يعد تكلفا ، وكلما ظهرت الصنعة أكثر ، كان الكلام أقرب الى أن يكون تعســـفا ، واذا حسن التلاؤم ، وحسن معه يسير الصنعة • أشرق تأليف الكلام ووضعه • ألا ترى الى قول الشاعر :

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبـــذا نفحات نجـــد ... وريا روضه بعـــد القطـــار
شهور ينقضين وما شعرنا ... بأنصـــاف لهن ولا سرار

لـــا حصل التـــلاؤم حصل فى النفس القبـــول التـــام مع قلة الصنعة فيه •

ومن ذلك قول القائل :

ولـــا قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطى الأباطح

ألا ترى الى ديباجته ، كيف حسنت ؟ والى عذوبته كيف ظهرت ؟ والى سلامته كيف استمرت ؟ مع خلوه من الصنعة ، ووقوعه بالبعد عن التعمل • وهذا باب تأملته فى الأشعار والخطب والرسائل والمحاورات فى الجد والهزل • وصح لك بيانه ، وقام عندك برهانه • وهذا القسم من الفصاحة موجود فى القرآن من أوله الى آخره ، وأهل هذا الشأن يختلفون فى أجناس ذلك والتبين له • ومن كان منهم أعرف بنقد الكلام ، كان الى تبيين ما ذكرناه أقرب ، فان ساعده على ذلك الطبع الجيد كان فى طريق تصوره أذهب ، وقد يكون فى أهل كل صناعة من الشعر والخطب والرسائل من اذا سمع كلام غيره عرف صاحبه ، وميز بين طبعه ، وطبع غيره ، كما حكى أن جريرا رأى ذا الرمة ، وهو ينشد قصيدة أولها :

* نبت عيناك عن طلل بحذوى *

فقال له : ألا آمرك بأبيات تلحقها بشعرك ؟ فقال بلى • فقال :

يعد الناسبون بنى تميم بيوت المجد أربعة كبارا
يعدون الرباب وآل تيم وسعدا ثم حنظلة الخيارا
ويذهب بينها المرئى لغوا كما ألغيت فى الدية الحوارا

ثم أنشد ذو الرمة هذه القصيدة : الفرزدق مع هذه الأبيات • فلما انتهى اليها قال له : مه • فان هذه الأبيات لاكلها أشد لحيين منك •

فميز بطبعه بين شعره وشعر جرير ، وهذا ظاهر بين أهله ، وانما أردت أن أبين بهذا أن غباوة من يغضى عن هذه الحالة ، وصفناها فى القرآن لا يؤثر فيها ، لشهرتها وظهورها عند أهله • والذى أحوجنا الى هذا التنبيه على هذا القسم ، أنه لا يظهر لكل من يفهم العربية ، ولا يمكن كما أمكن سائر أقسام الفصاحة ، لأن استدراكه يفتقر الى العلوم الضرورية المعبر عنها بالطبع ، كما أن الاتيان به مفتقر اليه ، ولأن القرآن كله من هذا النمط • والأوجه ذكر آيات منه ، لأنا نريد تنبيه المبتدىء والشادى عليه • فمن ذلك قول الله عز وجل : **« والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن**

الهوى »(١٠٨) وما بعدها . وقوله عز وجل : **« فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل . ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما ؟ قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير »**(١٠٩) الى آخر القصة . فتأمل هذه الألفاظ ووقوعها مواقعها لتعلم شرف هذا الكلام وهل تجد لفظة لسوء أبدل مكانها غيرها ، فنابت منابها حسنا وعذوبة ورونقا ؟ ألا ترى أنه عز وجل لو قال : والكوكب اذا سقط . أو اذا غرب . أو قال : اذا أفل . لم ينب فى الحسن مناب قوله تعالى : **« والنجم اذا هوى »** .

ورأيت فى كلام الجهال أنه لو قال : « والنجم اذا علا » كان أولى . ولن يكون ذلك فمن له حاسة فى هذا الباب . فبين اللفظتين فى هذا الموضوع فى باب الحلاوة والعذوبة مالا يخفى على بصير . ولو قال : ما زاغ نبيكم عن الهدى أو ما أخطأ رسولكم . أو قال : ما حاد عن الرشد والهدى . وما أشبه ذلك لم يغن غناء قوله عز وجل : **« ما ضل صاحبكم وما غوى »** ولو قال : فهرب منها مذعورا أو قال : مرعوبا أو غير ذلك من الألفاظ التى تؤدى معناها لم يسد مسد قوله عز وجل : **« فخرج منها خائفا يترقب »** حلاوة وعذوبة ولو قيل ولما أخذ على سمت مدين أو مضى حذاء مدين أو جهة مدين لم يقع موقع قوله عز وجل : **« ولما توجه تلقاء مدين »** وكذلك عامة ألفاظ هذه الآيات فتأملها تجدها على ما أقول .

واعلم أن كثيرا من الألفاظ تكون له حلاوة وعذوبة اذا وقع فى بعض المواقع دون بعض وانما حصلت لهذه الآيات : العذوبة التامة . لما حصل لحروفها من التلاؤم ، ولحركاتها وسكناتها من الاعتدال ، ولمعانيها من حسن الاطراد والمقاصد ، لأن الحروف لو لم تتلاءم لكان يحصل للكلام بعض التنافر .

والحركات والسكنات لو لم تعتدل لم يتم حسن النظم ، لأن

---

(١٠٨) النجم : ١ ــ ٣

(١٠٩) القصص : ٢١ ــ ٢٣

كثرة الحركات توجب للكلام بعض الثقل • ألا ترى الى ما روى أهل العروض فى جنس البسيط • وزعموا أنهم لقيهم رجل فأخذوا ماله وضربوا عنقه كيف حصل الثقل لما كثرت حركاته ؟

وكثرة السكنات توجب لنسج الكلام بعض الضعف والسخافة • ولهذا صار الكلام موزونا باعتدال الحركات والسكنات ، ويتكسر البيت بخروج الحركات أو السكنات عن الاعتدال •

وأما حسن أطوار المعانى والمقاصد ، فلا بد منه ، لأن موضوع العبارة انما هو للمعنى ، فاذا لم يحسن المعنى كان بمنزلة تعليق الحلى على المرأة الشوهاء •

ومن ذلك قوله عز وجل : **« أمن جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا ؟ أأله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون »**(١١٠) وقوله عز وجل فى أول السورة : **« ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون ، أولئك الذين لهم سوء العذاب ، وهم فى الآخرة هم الأخسرون ، وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم • اذ قال موسى لأهله : انى آنست نارا ، سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس ، لعلكم تصطلون »**(١١١) الى آخر القصة • وعلى نحو من هذا عامة هذه السورة ، وكذلك عامة السورة التى يذكر فيها القصص بعد هذا •

ومن ذلك قوله عز وجل : **« حم • تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذى الطول • لا اله الا هو اليه المصير »**(١١٢) الى قوله : **« الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا • ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم »**(١١٣) الى قوله : **« ان الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم • اذ تدعون الى الايمان فتكفرون »**(١١٤)

---

(١١٠) النمل : ٦١
(١١١) النمل : ٤ — ٧
(١١٢) غافر : ١ — ٣
(١١٣) غافر : ٧
(١١٤) غافر : ١٠

وقوله عز وجل بعد هذه الآيات : « **وقال الذى آمن يا قوم : اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع ، وأن الآخرة هى دار القرار • من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى ، وهو مؤمن • فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيهـا بغير حساب** »(١١٥) الى آخر القصة •

ولو تتبعنا الآيات الجارية هذا المجرى فى العذوبة ، وحسن الديباجة لاحتجنا أن نذكر عامـة آيات القرآن ، ولكن نبهنـا بما ذكرنا على ما سواه ، فتأمل ــ رحمك الله ــ مواقع هذه الألفاظ ، وحسن نظامها وخفتها على السمع ، وقبول النفس لهـا ، واهتزازك لسماعها لتعلم حقيقة ما ذكرناه ، وأنت اذا راعيت هذا الباب فى عامة القرآن اذا تلوته تبينت صحة ما قلناه ، وظهر لك شواهده ، ووضحت دلائله •

ومن كبير أقسام الفصاحة : حسن التصرف • وهذا الباب أيضا لا يمكن بالتعمل ، ولا يستجيب للمتكلف بل لا بد له من العلوم الضرورية المعبر عنها بالطبع • وهذا تفاضل الخطباء والشعراء وأصحاب الرسائل• واذا تأملت تصرف القرآن فى المعانى المقصودة ، عرفت أنه زائد فى الحسن على تصرف جميع أقسام الكلام وأنواعه ، وشهد لك قلبك : أنه ليس من كلام البشر لمجاوزته فى الحسن جميع كلامهم ، لأنك تجد عامة كلام الناس اذا أخـذوا فى الاقتصاص والتصرف فى المعـانى المختلفة ، والأغراض المتباينة ، والمقاصد المتغايرة يضعف بناؤه ، ويهى نسجه ، ويظهر عليه الاختلال ، وحال القرآن بخلاف ذلك • ألا ترى الى قوله عز وجل : « **وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل • ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** »(١١٦) •

تأمل ــ رحمك الله ــ حسن هذا التصرف • فانه ذكر الدليل على فساد قول من يضعف هذه الحوادث الى الطبع ، وحرره على وجه أسقط

---

(١١٥) غافر : ٣٨ ــ ٤٠

(١١٦) الرعد : ٤

عنه كثيرا من الأسئلة بأن بين أن فى الأرض قطعا متجاورة ، يقرب بعضها من بعض ليسقط سؤال من يقول : ان الأرضين اذا تباعدت أطرافها ، اختلفت التربة فكان منها الطيب والخبيث ، لأن ذلك يبعد فى المتقارب منها • وكذلك الهواء لا يمكن أن ندعى أن تغيره هو المؤثر ، لأن الأرضين ما لم تتباعد بعضها من بعض لا يظهر فى أهويتها التغير ، وكذلك المـــاء اذا كان واحدا لا يمكن أن يدعى ان اختلاف الأكل راجع الى اختلاف المـــاء ، فدل بذلك على أنه من فعل القادر الحكيم تبارك وتعالى •

ومعنى هذه الآية : معنى « كلمى » فاذا أردت أن تعرف حال هذا التصرف ، وشريف موقعه • فتأمل كلام المتكلمين • هل تجد لشىء منها هذا الجنس الرابع ؟ لأنه جمع فيها بين حسن المعنى وشرف الوضوح وجزالة اللفظ وعذوبته ، مع جمع المقاصد الكثيرة فى ألفاظ يسيرة ، بحيث ربط بعضها ببعض ، وحسم عنها مطاعن المعترضين ، من ذلك قوله عز وجل بعد هذه الآية : « **ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ، وقد خلت من قبلهم المثلات • وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشـــديد العقـــاب** »[١١٧] فتأمل ما جمعت هذه الآية من المعانى بأن ذكر جهل القوم باستعجالهم السيئة قبل الحسنة ، ثم بين عز وجل انه قد أنزل العذاب بمن كان قبلهم من المنحرفين عن طاعته المسرعين الى معصيته ، زاجرا لهم عما هم فيه ، ومحذرا لهم عواقب من قبلهم • ثم بين لهم أنه عز وجل يغفر لعبـــاده وان كانوا ظالمين اذا تابوا وأنابوا ، وأنه عز وجل شديد العقاب ، لمن أصر وأقام على ما نهى عنه • فجمع هذه المعانى وكساها حسن اللفظ إذ فيه ما يسميه أهل الصنعة : المطابق • لأنه ذكر الحسنة والسيئة والمغفرة والعقاب مع الجزالة والعذوبة • فهل يكون فى التصرف أحسن من هذا ؟

ثم تأمل من هذه السورة قوله عز وجل : « **الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام ، وما تزداد ، وكل شىء عنده بمقدار** »[١١٨] الى قـــوله : « **وما دعاء الكافرين الا فى ضلال** »[١١٩] وتأمل عامة هذه

---

(١١٧) الرعد : ٦ (١١٧) الرعد : ٨

(١١٩) الرعد : ١٤

السورة وما فى آياتها من حسن التصرف وضرب الأمثال • وتأمل قول الله عز وجل : **« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء »**(١٢٠) ثم تأمل آية المواريث ، فان معناها معنى فقهيا • فانظر هل تجد ما يقارب ذلك فى شىء من ألفاظ الفقهاء ؟ واذا أردت ذلك فتـأمل أقاصيص القرآن ، وأحكامه ، لترى من ذلك ما يبهر عقلك ، ويكشف لك أنه كلام مرتفع عن كلام البشر أجمع ، وعلى هذا ، تجد ما يتضمن الوعد والوعيد ، وأدلة العدل والتوحيد •

واذا تأملت ذلك فتأمل أشعار العرب من جاهلى ، أو مخضرمى ، أو اسلامى وتأمل أشعار المحدثين ، وتأمل الخطب المحفوظة عن النبى — صلى الله عليه — وعن أمير المؤمنين — عليه السلام — وسائر الصحابة ، ومن بعدهم أو قبلهم من الفصحاء ، تجد القرآن مباينا لها ، مبرا بمزايا أقسام الفصاحة عليها ، فيتضح عندك أنه على ما ادعيناه فى أعلى طبقات الفصاحة ، وأن من ذهب من العلماء الى أن الاعجاز راجع الى مجرد الفصاحة لم يبعد عن الصواب كل البعد ، وان كان الأصح عندى على ما قدمت : أنه راجع الى النظم والفصاحة معا •

ومما يبين بلوغ القرآن غاية الفصاحة : أن الشاعر ربمـا ضمن لفظة من القرآن بيتا من الشعر أو حشا الخطيب بها فصلا من الخطب ، أو وشح الكاتب بها موضعا من الرسالة ، فيتميز بحسنها عن غيرها ، ويتبين ببهجتها على ما سواها ، ويصير الموضع الذى يضمنها غرة من سائره ، بحسنه الذى اكتسبه من تلك اللفظة ، وزبرجه الذى استعاره منها • ومما يبين ذلك : أن كثيرا من الفصحاء ، وجد فى كلامهم كلمات فصيحة رائعة صارت لبلاغتها أمثالا سائرة ووجد معناها فى القرآن الا أنك اذا تأملتها وجدت التفاهم بينها كثيرا ، وظهر لك فضل ألفاظ القرآن على تلك الألفاظ ظهورا تاما • فمنها ثلاث كلمات تذكر عن أمير المؤمنين — عليه السلام • أحدها : « من جهل شيئا عاداه » ومثله قول الله عز وجل : **« واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم »**(١٢١)

---

(١٢٠) أول النساء •

(١٢١) الأحقاف : ١١

وقــوله : « **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه** »(١٢٢) والثانية : « ابغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما » وفى قريب من معناه قوله عز وجل : « **عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهــم مودة** »(١٢٣)، الثالثة : « المرء مخبوء تحت لسانه » وفى قريب من معناه قوله عز وجل : « **ولتعرفنهم فى لحن القول** »(١٢٤) فتأمل التفاوت الذى بين تلك الكلمات الثلاث وبين ألفاظ الآيات التى ذكرناها يبين لك صحة ما ادعيناه .

ومن ذلك قول الله عز وجل : « **وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب** »(١٢٥) فانظر كم بينه وبين قول الشاعر :

فارعا مثل الطود تحسب أنه ❋ وقوف لحاج والركاب تهملج

ومن ذلك قوله عــز وجل : « **ولكم فى القصــاص حياة يا أولى الألباب** »(١٢٦) وفى معناه قيل ما قدمنا ذكره : « بعض القتل أحيــا للجميع » وقيل : « القتل أفل للقتل » فلم تلحق واحدة من الكلمتين بشأو قوله عز وجل : « **ولكم فى القصاص حياة** » .

ومما افتخر به النابغة بقوله :

فانك كالليل الذى هو مــدركى ❋ وان خلت أن المنتأى عنك واسع

فانظـــــر أين يقع ذلك من قوله عــز وجل : « **والله محيــط بالكافرين** »(١٢٧) ومن قوله : « **وله ما سكن فى الليل والنهار** »(١٢٨) . وقد ذكرنا فيما مضى ما قيل فى معنى قول الله تعالى : « **يحسبون كل صيحة عليهم** »(١٢٩) .

وقد عد من فصيح الكلام ما حكى عن بعض المتقدمين من قوله :

« سل الأرض من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، فأخرج ثمارك » فان لم يجبك حوار اجابتك اعتبارا فانظر أين يقع ذلك من قول الله

---

(١٢٢) يونس : ٣٩
(١٢٣) الممتحنة : ٧
(١٢٤) محمد : ٣٠
(١٢٥) النمل : ٨٨
(١٢٦) البقرة : ١٧٩
(١٢٧) البقرة : ١٩
(١٢٨) الأنعام : ١٣
(١٢٩) المنافقون : ٤

عز وجل : « **أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أأله مع الله ؟ بل هم قوم يعـــدلون** »(١٣٠) ؟ بل أين يقع ذلك من قوله : « **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيهـــا من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد** »(١٣١) ؟ •

ومن الكلام الفصيح قول الشاعر :

بكت عينى وحق لها بكاها ❋ وما يغنى البكاء ولا العويل

لكن أين يقع ذلك من قول الله عـــز وجل حاكيا عن أهل النار : « **سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص** »(١٣٢) ؟ وتتبع هذا مما يطول لكثرته • وفيما ذكرناه كفاية وفيه تنبيه على ما لم نذكره •

---

(١٣٠) النمل : ٦٠

(١٣١) سورة ق : ٧ ــ ١١

(١٣٢) ابراهيم : ٢١

الكلام فى ذكر ما فى القرآن من الاخبار عن الغيوب

من ذلك قول الله عز وجل : « **وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة** »[1] وقوله : « **قل لئن اجتمعت الانس والجن ، على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** »[2] **وهذا من الغيب لا يعلمه الا الله عز وجل ، لأن البشر لا سبيل لهم أن يعلموا كلاما يوجد مشتملا على التحدى والتقريع على العجز عن الاتيان بمثله ، فلا تقع له معارضة أبدا ، سيما والقوم الذين تحدوا به غاية فى العداوة للمتحدى مع أنهم أهل البلاغة والمعرفة بذلك الشأن بل المعلوم أن المعارضة تقع لا محالة منهم اذا تمكنوا منها .**

فان قيل : فما يؤمنكم أن تقع المعارضة بعد هذا الوقت وان لم تكن وقعت الى هذه الغاية ؟

قيل له : يؤمننا ذلك أن الخبر صدق ، ويعلم أنه صدق ، أنه لو لم يكن صدقا لكان لا يجوز أن يجرى الأمر فى مخبره على ما أخبر نحوا من أربعمائة سنة[3] مع الأحوال التى ذكرناها . لأن ما يقال على سبيل التخمين والرجم لا يجوز أن يستمر الأمر فى مخبره على هذا الحد فعلم أنه خبر صدر عن علام الغيوب .

وأيضا : قد علمنا أن الدواعى الى ايراد المعارضة لم تكن حبست عن المطامع وكانت الصنعة أيضا فى نفسها أقوالا فى أمثلة العرب ، ولم يكن يكمن فيها من الفساد ما يكمن الآن ، وعلى استمرار الأزمان ، ومضى الأعصار ، تزداد الصنعة ضعفا والدواعى قلة — لما تعذر وقوعه —

---

(١) البقرة : ٢٣ ، ٢٤ (٢) الاسراء : ٨٨

(٣) أنا محقق هذا الكتاب وناشره لأول مرة بواسطة المطابع : فى سنة ألف وثلثمائة وتسعة وتسعين من الهجرة التى توافق سنة ألف وتسعمائة وتسع وسبعين من الميلاد .

فلما تعذر وقوعها فيما سلف من الزمان كان وقوعها فيما بعد أيسر تعــذرا •

وأيضا ظاهر الخطاب هو لأهل ذلك العصر ، وان كنا قد عرفنـــا بدليل سوى الظاهر(٤) أن المراد به الى آخــر الدهر واذا لم تقع المعارضة من أهل ذلك العصر وجب كون الخبر صدقا •

ومن ذلك قوله عز وجل : **« قل أن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت أن كنتم صادقين • ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم »**(٥) وقال أيضا فى السورة التى يذكر فيها الجمعة : **« قل يا أيها الذين هادوا ان زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ، ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم »**(٦) فأخبر أنهم لا يتمنون الموت أبدا • فوجد مخبر الخبر على ما أخبر به ، ولم يقل أحد منهم : انى أتمنى الموت • هذا مع ما كان عليه اليهود من شدة الحرص على تكذيبه وابطال دعواه ، وتوهين أمره ، حتى أنهم استهانوا بالموت ، وما يجرى من القتل الذريع عليهم فى جنب استمرارهم على معاداته ، وتحققهم بمناوأته ، فلولا أن الخبر صدر من عند علام الغيوب لم يكن يجوز أن يورده النبى ـ صلى الله عليه وعلى آله ـ خشية أن يظهر منهم ما يوجب تكذيبه •

ومن ذلك قوله عز وجل : **« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس »**(٧)

---

(٤) هذا خطأ من المؤلف • فان ظاهر الآيات القرآنية يدل على أن التحدى للعالم أجمع ، والى أن تقــوم القيامة ، ومن الآيات الظاهرة قوله تعــالى : **« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم ، والذين من قبلكم لعلكم تتقون • الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا ، وأنتم تعلمون • وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله •• الخ »** (البقرة : ٢١ ـ ٢٣) فأنت ترى آية التحدى بالاتيان بالسورة جاءت بعد خطاب الله عز وجل للناس فى قوله : **« يا أيها الناس اعبدوا ربكم •• الخ »** ولفظ **« الناس »** على العموم •

(٥) البقرة : ٩٤ ، ٩٥ (٦) الجمعة : ٦ ، ٧

(٧) المـائدة : ٦٧

يعصمه الله عز وجل من الناس كما وعده ، وجرى الامر فيه الى قبضه — صلى الله عليه ، وعلى آله — على ما دل عليه الخبر . وهذا أمر الغيب الذى لا يعلمه الا الله — سبحانه — لأن الانسان لا يدرى ما يجرى عليه الى أن يموت ، سيما من كان على مثل حاله — صلى الله عليه وآله — فى كثرة الأعداء .

ومن ذلك قوله عز وجل : « **واذ يعدكم الله احدى الطائفتين : أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم** »(٨) وهذه الآية قد تضمنت خبرين من أخبار الغيوب . أحدهما : ما وعدهم الله عز وجل به من كون احدى الطائفتين لهم ، وأنه يظفر بها ، والطائفتان أحدهما : العير ، التى كانت مع أبى سفيان . والثانية : الذين خرجوا للمحاماة عنهم من أحزاب قريش ، فأظفرهم الله — تعالى — بأحزاب قريش يوم بدر ، وأنجز لهم الموعود .

فان قيل : الآية نزلت بعد الكائنة ، واذا كان هذا هكذا ، فليس فيه خبر عن الغيب ، لأنه خبر عن الواقع المعلوم .

قيل له : الآية تضمنت تقدم الوعد على الكائنة ، لأن الوعد لا بد من أن يتقدم الموعود ، ولولا أنه كان معلوما عند أصحاب رسول الله — صلى الله عليه — أن ذلك الوعد كان قد حصل لهم لم يكن النبى — صلى الله عليه — ليتلو عليهم ما تلاه ، لأنه مجرى مجرى أن يقول لهم : قلت لكم أمس شيئا ، وهم يعلمون أنه لم يقله لهم ، أنه يفضح القائل ويظهر كذبه ، ويقوله بين أصحابه . فبان أن الوعد فى الأمل والوعيد كان قد تقدم . وأن الموعود جرى على ما وعدوا به . ومثل هذا لا يجوز أن يصدر الا عن علام الغيوب سبحانه وتعالى .

ويبين ما قلناه من أن الوعد كان قد تقدم : قوله عز وجل بعد هـذه الآيات : « **وما جعله الله الا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم** »(٩) والبشرى لا تكون الا قبل حصول الشىء . فدل ذلك أيضا على أنهم كانوا مبشرين قبل وقوعه . الوجه الثانى الذى تضمنته الآية من الاخبار عن

---

(٨) الأنفال : ٧

(٩) الأنفال : ١٠

الغيوب : قوله عز وجل : « **وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم** »[١٠] وهى العير التى كانت مع أبى سفيان ، فأخبر عما فى نفوسهم ، ولم يقل أحد منهم أن الذى كان فى نفسى خلاف ذلك • على أن ذلك لو لم يكن معلوما أنه صدق ، وأنه من عند علام الغيوب ، كان النبى — صلى الله عليه وآله — لا يتلوه عليهم ، خشية أن يكون المخبر بخلافه فيظهر كذبه •

فان قيل : هذا معلوم ، لكل عاقل أنكر فيه ، فان المعلوم من أحوال الناس : أن الظفر بالأموال التى لا مدافع عنها أحب اليه من الظفر بالمقاتلة الذين لا يظفر بهم الا بعد شدة ، وبعد أن يقتل منهم من يقتل ، ويجرح من يجرح •

قيل له : هذا الذى ادعيتم غير مستمر ، وان كان الأكثر ما ذكرتم • وذلك أن من الناس من يكون قتل الأعداء وأسرهم وجرحهم والظفر بهم أحب اليه من كثير من الأموال التى تأتيه عفوا ، ولهذا ترى الرجل ينفق ماله من طارف وتليد ليتوصل به الى النكاية فى العدو • واذا ثبت ذلك ثبت أن اخباره عن جميعهم — مع كونهم معروفين بشدة الحمية والعصبية — أنهم يودون : أن غير ذات الشوكة تكون لهم : خبر عن الغيب •

ومن ذلك قوله عز وجل : « **قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد** »[١١] والخبر عن أن الكفار الذين كانوا يعادون رسول الله — صلى الله عليه — يغلبون • خبر عن الغيب الذى لا يعلمه الا الله تعالى ، ولأنه لا سبيل لأحد الى أن يعلم أن أولئك الكفار ، مع كثرة عددهم ، ووفور عددهم ، هم يغلبون لا محالة • وقد جرى الأمر على ما ورد الخبر به ، فان جميعهم غلبوا وقهروا واستذلوا •

ومن ذلك قوله عز وجل : « **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون** »[١٢] ذكره عز وجل

---

(١٠) الأنفال : ٧

(١١) آل عمران : ١٢

(١٢) التوبة : ٣٣ والصف : ٩ وبدل « المشركون » « الكافرون » والفتح : ٢٨ وفى الفتح : « **وكفى بالله شهيدا** » بدل : « **ولو كره المشركون** » •

فى السورة التى يذكر فيها التوبة والسورة التى يذكر فيهــا الصف والســورة التى يذكر فيها الفتح ، وفى هذه الســورة آخر الآية : « **وكفى بالله شهيدا** »(١٣) فأكد الخبر هذا التأكيد ، وكرر ذكره فى هذه السورة ، ثم أنجز الله عز وجل وعده لنبيه — صلى الله عليه — باظهار دين الاسلام ، ونشر دعوته فى الآفاق ، فطبقت الشرق والغرب ، وعمت العرب والعجم وخلصت الى الروم والهند والترك وصار كثير من البلدان المنسوبة الى هؤلاء — أعنى الروم والهند والترك من بلاد الاسلام — والفتوح الى الآن متصــلة ترد بها الأخبــار من النواحى والأقطــار •

فأما بلاد العرب والعجم — بحمد الله ومنه — فقد صارت كلها بلاد الاسلام ، ولم يبق أهل ملة من الملل ، ولا أمة من الأمم ، الا نفذ فيهم الاسلام ، حتى صار هذا الدين أعلى الأديان كلمة ، وأرفعها حكمة ، ولو كره المشركون ، كما قال الله عز وجل •

وليس يخفى على عاقل أنصف نفسه : أن الخبر بهذا خبر عن الغيب الذى لا يطلع عليه أحد الا الله عز وجل ، الذى يعلم ما كان وما يكون ، ومالا يكون أن لو كان كيف كان يكون ، فسبحانه لا نشرك به شيئا ، ولا نتخذ من دونه الها ولا وليا •

وفى هذا المعنى قال — صلى الله عليه — وصدق ، ونحن على ذلك من الشاهدين : « زويت لى الأرض ، فأريت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » •

ومن ذلك قوله عز وجل : « ألم • غلبت الروم • فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ، ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون • بنصر الله »(١٤) وهذه الآية قد تضمنت ثلاثة من الاخبار عن الغيوب • أحدها : قوله عز وجل : « **وهم من بعد غلبهم سيغلبون** » هذا من الغيب ، الذى لا يعلمه الا الله عز وجل • والثانى : قوله : « **فى بضع سنين** »والبضع فوق الثلاثة ودون العشرة ،

---

(١٣) الفتح : ٢٨

(١٤) الروم : ١ — ٥

وهذا التحديد أيضا من الغيب الذى لا يعلمه الا الله • والثالث : قوله عـــز وجل : **« ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء »** فأخبر أنهم يفرحون فى ذلك الوقت بنصر الله • وهذا أيضا من الغيب ، لانه خبر عن بقاء المؤمنين الى ذلك الوقت مع قلتهم ، وطمع الأعداء فى ابتسافهم • وعن أنهم يفرحون ، ولا تعرض هناك أحوال تمنعهم الفرح ، لأن هذه الآية نزلت بمكة قبل الهجرة ، فى حال ضعف المسلمين ، وقلتهم ، واستيلاء المشركين عليهم ، والقصة فى ذلك مشهورة وهى أن الفرس كانوا غلبوا الروم ففرح لذلك المشركون واغتم المسلمون ، لأن الروم كانوا أهل الكتاب فكان المسلمون بهم آنس • والفرس كانوا مجوسا ، وكان المشركون بهم أشبه • فأنزل الله عز وجل : **« وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين »** ففرح المسلمون ، وأنكره المشركون واستبعدوه ، فخاطر[١٥] أبو بكر أمية بن خلف الجمحى ، على أن تعود الغلبة للروم على الفرس الى ثلاث سنين ، وظن أن بضع معناه ثلاث ، فقال له رسول الله ــ صلى الله عليه ــ : « زد فى الأجل ، وفى الخطر » وكان ذلك قبل نزول التحليل والتحريم ، وحين كانت المخاطرة مباحة ، ففعل أبو بكر ذلك ، وظهرت الروم على فارس لتمام سبع سنين ، ففرح المسلمون يومئذ • والنصر الذى ذكر الله عز وجل : أن المؤمنين به يفرحون • فقد قيل : انه نصر الله عز وجل نبيه ــ صلى الله عليه ــ بما أظهر له من الاعجاز الظاهر باطلاعه على هذا الغيب الذى لا يعلمه الا الله عز وجل لأن فيه آية بينة ، ودلالة واضحة على نبوته ، ويحتمل أيضا : أن يكون المراد له : أن ذل الفرس كان فيه قوة للمسلمين ، ونصره لهم على المشركين ، لما كان من ميل المشركين اليهم وطمعهم فى الاعتضاد بهم ، لأن الله عز وجل لا يجوز أن ينصر الكفار بعضهم على بعض ، وان كان جائزا أن يزيد فى خذلان بعضهم اذا كان فى ذلك ضرب من المصلحة •

ومن ذلك قوله عز وجل : **« يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله الا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون »**[١٦] وقال فى السورة التى يذكر فيها الصف : **« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم • والله**

---

(١٥) المخاطرة : الرهان •

(١٦) التوبة : ٣٢

متم نوره ، ولو كره الكافرون » [١٧] فوعد عز وجل : أن يتم أمر الدين الذى ابتعث به نبيه — صلى الله عليه وآله — على كره من أعـدائه الكفرة ، ومع كونهم مريدين اطفاء نور الحق وطمسه ، فجرى الأمر فيه على ما وعد • وهذا من الغيب الذى لا يطلع عليه الا الله عز وجل •

ومن ذلك قوله عز وجل : **«وينصرك الله نصرا عزيزا»** بعد قوله : **« انا فتحنا لك فتحا مبينا »** [١٨] الى آخر الآية •

ومن المعلوم : أن نصر الله عز وجل لنبيه — صلى الله عليه — الى أن اختار الله له دار كرامته كان نصرا عزيزا ، وهذا مما لا يجوز أن يكون اطلع عليـه الا الله عز وجل • ومن ذلك قوله عز وجـل : **« واذ يقول المنافقون ، والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا»** [١٩] يعنى يوم الأحزاب ، ثم يقول بعد ذلك : **« ولمـا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسـوله ، وصدق الله ورسوله »** [٢٠] فدل بهاتان الآيتان على أن النبى — صلى الله عليه وآله — كان وعد أصحابه وعدا ظاهرا ، أن الأحزاب يأتون وأن الله ينصرهم عليهم حتى عرفه المؤمنون والمنافقون ، وانتشر فيهم حتى قال المنافقون : **« ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا »** وقال المؤمنون حين رأوا الأحزاب: **« هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسـوله »** [٢١] وهذا ممـا لا يعلمه : ولا يطلع عليه أحد الا الله عز وجل لأنه لا سبيل الى العلم بأن الأحزاب يأتونه ، وأنهم مع قوتهم وكثرتهم ينهزمون لامحالة •

فان قيل : هذه الآية نزلت بعد يوم الأحزاب •

قيل له : هذا • وان كان كذلك ففيها دلالة على أن الوعد به كان قد تقدم • ألا ترى الى ما حكى الله تعالى عن المؤمنين والمنافقين فى ذلك • والنبى — صلى الله عليه — تلا ذلك عليهم ، ولو لم يكن الأمـر كذلك لم يكن ليتلو — صلى الله عليه — ذلك عليهم ، ويدعيه لئلا يكون منبها لهم على كذبه ، حاشاه — صلى الله عليه وعلى آله — من ذلك •

---

(١٧) الصف : ٨
(١٨) أول الفتح •
(١٩) الأحزاب : ١٢
(٢٠) الأحزاب : ٢٢
(٢١) الأحزاب : ٢٢

ومن ذلك قوله عز وجل : **« ويستأذن فريق منهم النبى ، يقولون : ان بيوتنا عورة ، وما هي بعورة ، ان يريدون الا فرارا »**(٢١) فأخبر عما فى ضمائرهم من ارادة الفرار تعللا بأن بيوتهم عورة ، وهذا لو لم يكن كذلك لظهر منهم انكاره •

ومن ذلك قوله فى السورة التى يذكر فيها **« ص • والقرآن ذى الذكر »** : **« جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب »**(٢٢) وهى سورة مكية • أولها : ذكر قريش ، وما كان من قولهم : **« هذا ساحر كذاب »**(٢٤) فأخبر عز وجل فى حال ضعف النبى ــ صلى الله عليه ــ وقلة أنصاره ، وقوة مشركى قريش أنهم جند مهزوم • فكان الأمر على ما أخبر به ــ عز وجل ــ هزموا يوم بدر •

وكذلك قوله فى السورة التى يذكر فيها القمر ، وهى أيضا سورة مكية ، مخاطبا لقريش : **« أكفاركم خير من أولئكم ، أم لكم براءة فى الزبر ؟ أم يقولون : نحن جميع منتصر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر »**(٢٥) فأخبر أنهم يهزمون ويولون الدبر ، وهذا أمر الغيب ، الذى لا يعلمه الا الله عز وجل •

ومن ذلك : قول الله عز وجل : **« ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ، ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ، ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون »**(٢٦) فكان الأمر على ما أخبر به عز وجل ، لأن الكفار أنفقوا ما أنفقوا من الأموال للخروج الى أحد ، وصار فى آخر الأمر عليهم حسرة • وكذلك ما أنفقوا لجمع الأحزاب ، وما أنفقه (مالك بن عوف) حين جمع (هوازن) يوم حنين ، صار جميع ذلك حسرة عليهم ، وغلبوا على ما أخبر الله عز وجل وهذا أيضا من الغيب الذى لا يطلع عليه أحد الا الله عز وجل ، وليس لأحد أن يدعى : أن هذه الآية نزلت بعد الانفاق لقوله عز وجل : **« فسينفقونها »** والسين اذا دخلت على الفعل

---

(٢٢) الأحزاب : ١٣
(٢٣) سورة ص : ١١
(٢٤) سورة ص : ٤
(٢٥) القمر : ٤٣ ــ ٤٥
(٢٦) الأنفال : ٣٦

المضارع حققت أنه للاستقبال • فـدل ذلك على أن الآية نزلت قبـل الانفاق •

ومن ذلك قول الله عز وجل : **« قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشـفى صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم »**(٢٧) فجرى الأمر على ما أخبر الله عز وجل به ، فانه تبـارك وتعالى عذب الكفار بأيدى المؤمنين اذ أمكنهم من قتلهم وأسرهم وسبى ذراريهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وأخزاهم ، كمـا وعد سبحانه • ونصر المؤمنين عليهم وشفى صدورهم وأذهب غيظ قلوبهم كما أخبر • وهذا مما لا يجوز أن يعلمه قبل كونه الا الله عز وجل •

ومن ذلك قوله عز وجـل : **« ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وان قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد انهم لكاذبون •لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم»**(٢٨) وهذه قصة مشهورة ، وهى قصة بنى النضير وذلك أنهم كانوا فى عهد رسـول الله ــ صلى الله عليه ــ فغدروا ونقضـوا العهد • وهمـوا باغتيال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله ــ فأوحى الله بذلك الى نبيه ــ صلى الله عليه ــ وبما تآمروا بينهم • وهذا احدى المعجزات •

ثم تقدم اليهم رسول الله ــ صلى الله عليه ــ بمفارقة موضعهم ، والجلاء عنه ، وأعلمهم أنهم نقضوا العهد وبما تآمروه بينهم • فأذعنوا وعزموا على الجلاء فراسلهم عبد الله بن أبى بن سلول ، وكان من كبار المنافقين ، ووعدهم بالنصرة • وأنه مع أصحابه معهم ، وأنهم ان أخرجوا الى الجلاء أجلوا معهم ، وان قاتلوا نصروهم ، وأنهم لا يطيعون فيهم رسول الله ــ صلى الله عليه ــ فشهد الله عز وجل أنهم لكاذبون وأنهم لا يفون لليهود ، بما وعدوهم فجرى الأمر فى ذلك على ما أخـبر الله به عز وجل ، وشـهد به عليهم ، وأن النبى ــ صلى الله عليه ــ أخرج بنى نضير عن حصـونهم ، فلم يخرج المنافقـون معهم ، ولا نصروهم فى قتل رسول الله ــ صلى الله عليه وآله ــ بنى قريظة صبرا ، وسبى

---

(٢٧) التوبة : ١٤ ، ١٥ (٢٨) الحشر : ١١ ، ١٢

ذراريهم ونسائهم بعدما حاصرهم ، وحارب أهل خيبر حتى ظفر بهم وبديارهم وأموالهم ، فلم ينصروهم ، كما أخبر الله عز وجل فى ذلك عنهم ، فكان فى القصة ثلاث من المعجزات • احداها : أن النبى — صلى الله عليه — كان مضى الى بنى النضير ، ومعه أمير المؤمنين(*) — عليه السلام — وأبو بكر وعمر وغيرهم فى أمر كان عرض وجلس مسندا الى جدار حصنهم — صلى الله عليه وعلى آله — فتآمروا فيما بينهم ، واتفقوا على أن يرسلوا عليه من فوقه صخرة تقتله ، فأتاه الوحى فى الحال ، وعرف ما كانوا تآمروا ، فقام فى الوقت من موضعه ذلك ، وعاد الى المدينة ، ولم يعرف أحد من أصحابه السبب فى ذلك الى أن عرفهم — صلى الله عليه — ذلك • فكان ذلك أمرا واضحا فى وقوفه على سرهم من غير خبر أتاه من جهة أحد من الناس ، ولا يجوز أن يكون الا من جهة الوحى • والثانية : ما أخبر من سر المنافقين ومراسلتهم ، فانهم كانوا مجتهدين فى اخفاء ذلك • والثالثة : خبره عز وجل عنهم أنهم كاذبون ، وأنهم لا يفون لهم بما وعدوهم ، فجرى الأمر على ذلك •

ومن ذلك قوله عز وجل بعد هذه القصة : **« لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة ، أو من وراء جدر »**(٢٩) فجرى الأمر على ما أخبر عز وجل • فان من قاتل منهم لم يقاتل الا من **« وراء جدر »** ولم يبرزوا للنبى — صلى الله عليه — كما برز المشركون يوم بدر ، ويوم أحد وحنين • وهذا مما لايجوز أن يطلع على حقيقته الا الله عز وجل العالم بالمغيبات •

ومن ذلك قوله عز وجل فى اليهود : **« واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب »**(٣٠) وقد علمنا من أحوالهم لأنهم فى جميع المواضع مقهورون مستذلون لا يمكنهم الثبات الا مع الجزية والصغار وأحوالهم خلاف أحوال النصارى • فان للنصارى دار ومملكة مثل الروم وما حوله على ما أخبر الله تعالى فى القلة والذلة •

ومن ذلك قوله عز وجل : **« تبت يدا أبى لهب »**(٣١) الى آخر

(*) المؤلف يقصد الامام على — كرم الله وجهه •

(٢٩) الحشر : ١٤ (٣٠) الأعراف : ١٦٧

(٣١) أول المسد •

السورة • وذلك اخبار عن موته على الكفر ، وجرى مخبره على ما أخبر به عز وجل ، وهو مما لا يعلمه الا علام الغيوب •

ولهذه الآيات فى القرآن نظائر • وفيما ذكرنا كفاية وبلاغ لمن نصح نفسه ، وأنصف عقله ، واتبع رشده •

فان قيل : ولم ادعيتم أن الاخبار عن الغيوب يتضمن الاعجاز الذى اذا أتى به انسان وادعى النبوة ثبتت نبوته ؟ وما أنكرتم ان يصح ذلك من المنجم الذى يخبر عن الشىء فيتفق أن يكون مخبره على ما أخبر به ؟

قيل له : لأن الخبر عن الغيب على وجـه يكون صدقا على جهـة الاستمرار لا يصح الا من العالم به ، لأن ذلك لو صح من غير العالم ، لم يكن الاستدلال بالفعل المحكم المتقن ، على أن فاعله عالم ، لأن من جوز ذلك يلزمه أن تكون الأفعال الكثيرة المنتظمة المتسقة تقع من المبخت الذى ليس بعالم به ، لأن الخبر الصدق فى حكم الفعل المتقن فى احتياجه الى أن يكون الفاعل له عالما ، وهذه الجمـل هى من علوم البداية التى لا تعزب عن كامل العقل ، بل عن المراهق ، وان لم يبلغ كمال العقل •

فان قيل : كيف ادعيتم أن ذلك من البدائة وأنتم تجدون كثيرا من العقلاء ، يعتقدون فى الكهان والمنجمين ، أنهم يجوز أن يخبروا عن الغيوب ؟

قيل لهم : انهم لا يجوزون ذلك الا اذا اعتقدوا أنهم عالمون بذلك ، وليس ذلك خلاف ما ادعيناه من أن العلم بأن الاخبار عن الغيب لا يصح الا من العالم •

ومن جملة البدائه أن أولئك أخطأوا حين اعتقدوا أن هؤلاء يعلمون الغيب ، ولم يعتقدوا أنهم أخبروا من غير أن علموا •

فان قيل : فانا نجد من يعتقد فى كثير من المجانين أنهم يخبرون عن الغيب •

قيل له : هؤلاء يعتقدون أن الجن هم الذين ينطقون على ألسنتهم، وأن الجن يعلمون ذلك ، فليس فى العقلاء من يضيف الاخبار عن الغيب الا الى العالم به ، على بعض الوجوه .

وقد رأيت من سخفاء الفلاسفة من يذهب الى أن الانسان اذا احتمل ربما أخبر عن الغيب . ومن يقول ذلك يذهب الى أن النفس عالمة، فاذا احتمل خلصت النفس ، وجرى مجرى النائم الذى يرى ما يكون مما لم يكن بعد فى نومه . وهذا وان كان هذيانا لا يؤبه له ، وكان ما يراه النائم على خلاف ما ذهبوا اليه ، فانا ذكرناه لنبين أنه لا أحد من العقلاء يعتقد أن المخبر عن الغيب اذا كثر اخباره واستمرت على وجه يكون صدقا ، يجوز أن يكون غير عالم ، فاذا ثبتت هذه الجملة نقول : ان الانسان قد ثبت أنه عالم بعلم يتجدد له ، والعلم لا يخلو من أن يكون ضروريا أو مكتسبا .

وقد علمنا أنه لا طريق يمكن للانسان أن يكتسب به العلم بالغيوب ، لأن العلوم تكتسب بالنظر فى الأدلة ، ولا أدلة على الغيوب ، فلم يبق الا أن من علم الغيوب يعلمه بعلم يضطره الله اليه ، أو بخبر يأتيه من قبله عز وجل . وأيهما كان معجزا . لأنه متعذر على جميع الخلق الاتيان به الا من خصه الله عز وجل به ، كفلق البحر ، وقلب العصا حية ، واحياء الموتى ، وابراء الأكمة ، والأبرص .

فان قيل : ما أنكرتم على من قال لكم : ان النبى — صلى الله عليه — علم تلك الغيوب من طريق التنجيم كما يعرفها حذاق المنجمين ، واذا صار ذلك لم يجب كونه معجزا على ما ادعيتموه .

قيل له : هذا يسقط من وجهين . أحدهما : أن المنجم لا يمكنه أن يخبر عن تفاصيل الأمور ، ولا يحصل له العلم بذلك ، وانما يحصل له غالب الظن . لذلك يصيب فى شىء ، ويخطىء فى غيره . وذلك من أحوال المنجمين معلوم .

يبين ذلك : أنهم يدعون أن فى جملة الكواكب الثابتة وهى التى تسمى بيابيات : كواكب كثيرة لا يعرفها أحد من الناس ، وفيها السعود

والنحوس ، وان حصول ما يحصل منها فى الطالع يغير الأحكام من غير أن يشعر بها المنجم ، فيعتذرون للخطأ الذى يتفق لهم بذلك ، وربما نسبوه الى خطأ أصحاب الرصد وربما ينسبون بعض الزيجات الى أن فيها خطأ كثيرا ، وكل ذلك لأن الصواب لا يستمر لهم ، لأنهم لا يمكنهم أن يحكموا تفاصيل الأمور ، وليس كذلك اخبار الله عز وجل فى القرآن عن الغيوب • فوجب أن يكون صدر عن علام الغيوب ، الذى لا تخفى عليه خافية تبارك وتعالى • **والوجه الثانى : أن النبى — صلى الله عليه وآله — لو كان بلغ فى علوم النجوم المبلغ الذى كانت له هذه الامارات من أجلها مع استحالة ذلك لوجب أن يظهر اشتغاله بها ، وصرف العناية اليها ، وأخذها عن أهلها • ولم يكن للعرب اختصاص بهذا الجنس من العلم ، ولم يعرف أحد منهم به ، ولم يكن يجوز أن يخفى عليهم •**

ومن المعــلوم : أن النبى — صــلى الله عليه وآله — كان مولده ومنشؤه فى أقوام لم يتعاطوا هذا العلم ، ومسافرته الى الشام قبل البعثة كانت مع قومه ، وكانت أياما قليلة • فبان بما بيناه : أنه لم يكن من أهل هذه الصنعة على المتعاطى لهذه الصنعة اذا بلغ مبلغ المتوسطين منها ، فلا بد له من مدارسة أهله ، والنظر فى كتبهم ، بل لابد له من آلات يعرف بها الطوالع التى يبنى عليها الأحكام • فكيف من بلغ الغــاية ، واذ قد علمنا أنه — صلى الله عليه — لم يتعاط شــيئا من ذلك ، ولم يشتغل به ، ولم يعرف شيئا منه ، فقد بطل قول من قال : ان ما آتاه عليه السلام : آتاه من طريق النجوم •

وأيضا : بمثل ما عرفنــا أن الفرزدق وجريرا لم يكونا فقيهين ، ولا متكلمين ، وأن أبا حنيفة وأبا يوسف ومحمدا لم يكونوا شعراء ، وأن سيبويه لم يكن متكلما ، وأن أبا الهذيل لم يكن متطببا وأن الشافعى لم يكن متفلسفا • نعلم أن النبى — صلى الله عليه وآله — لم يكن منجمــا •

فان قيــل : ما أنكرتم أن يكون النبى — صــلى الله عليه — كان يرى ذلك فى المنام ، وكان قد عرف من نفسه أنه صحيح الرؤيا ، فكان يخبر بما يرى تعويلا على ما عرف من نفسه •

قيل له : ان المعتاد من أمر الرؤيا ، وصحتها معلوم أنه الى أى حد

يكون ، وان كان صحيح الرؤيا قد تعرض له أضغاث الأحلام • والتعبير أيضا قد يقع فيه الخطأ كما يقع الصواب ، ولا يستمر الأمر فيه هذا الاستمرار ، وهو يوجب غالب الظن دون العلم المقطوع به ، فاذا كان الله عز وجل خص نبينا — صلى الله عليه وآله — من الرؤيا بما أبانه من سائر الخلق ، وبما هو ناقض للعادة فهو أيضا معجز دال على صحة نبوته •

فان سألوا عن الفرق بينه — صلى الله عليه وآله — وبين الكاهن ، والذى ينظر فى الكف •

فالجواب عنه : أن الكهان لا يمكنهم الخبر عن تفاصيل الأمور على الاستمرار على وجه يكون صدقا ، وهذا معروف من أحوالهم ، لأنهم يقولون بأمور تعرض لهم ، وبأمارات تظهر لهم ، وان أصاب الواحد منهم ففى شىء على سبيل الاتفاق ، ويخطئون فى أشـيـاء يظهر فيها كذبهم • وكذلك من ينظر فى الكف • انما يخبر عن جمل الأحوال ، ولهم كلام فى ذكر الامارات الدالة على الأمور • والأوراق المصنفة لهم فى ذلك يذكرون حال العظم ، وما يظهر فيه من النقط والتخطيط ، ومواضع ذلك من العظم الذى هو الكف وليس يمكنهم الخبر عن تفـاصيل الأمور ، وأكثر ما يحكى من ذلك حكايات يغلب على الظن أنها كذب ، وان صح شىء من ذلك فعلى سبيل الاتفاق على أنه يجوز أن تكون الامارات مما يظهرها الله عز وجل على مجرى العادة لكل ناظر • هذا ان صح مايدعى من ذلك • وليس الاخبار عن الغيوب التى يتضمنها القرآن مشابها لشىء من ذلك ، فبان وصح أنه وارد من عند علام الغيوب •

فان قيل : ما أنكرتم على من قال لكم : يجوز أن يكون النبى — صلى الله عليه وآله — ظفر ببعض أحوال الأنبياء المتقدمين — صلى الله عليهم — عن تلك الغيوب ، فادعاه لنفسه •

قيل له : لا يخلو وقوع ما سألتم عنه اليه — صلى الله عليه — ان كان على ما ذكرتم — ومعاذ الله من ذلك — أن يكون على طريق التواتر أو على طريق الآحاد ، ولا يجوز أن يكون على سبيل التواتر ، لأن ذلك يوجب كون تلك الأخبار ظاهرة فى زمانين بين أهل الكتاب • والمعلوم

خلاف ذلك ، ولا يجوز أن يكون وقوعه على طريق الآحاد ، لأن ذلك مما لا تسكن النفس اليه ، ولا يجوز أن يعتمده العاقل فى بناء الأمر عليه — على ما بيناه فى نظائره فيما تقدم من كلامنا فى هذا الكتاب — .

فان قيل : ما أنكرتم أن يكون النبى — صلى الله عليه وآله — سمع تلك الأخبار ممن شاهده ورآه ، واتفق صـــدقه بما شاهده من معجزاته فأظهرها ، وادعى أنه عرفها بالوحى .

قيل له : لو كان ذلك كذلك لوجب على الله عز وجل المنـــع منه ، بأن يحول بينه وبين سماعها ، وبينه وبين اظهارها ، أو بأن يظهر تلك الأخبار لغيره على وجه لايمكن التمويه ، لأن ذلك لو كان على ما قلتم لكان شبهة لا يمكن حلها ، وكل شبهة لا يمكن حلها يجب على الله عز وجل المنع منها . علىأن هذا السؤال لا بد من أن يتضمن الاقرار بالنبوات والمعجزات . ويمكن أن يسأل فى كل معجز بم يجرى هذا المجرى ؟ بأن يقال : يجوز أن يكون عيسى — صلى الله عليه — ظفر ببعض الخواص التى يحيى بها الموتى ، ويبرىء الأكمه والأبرص ، وأن يكون موسى — صلىالله عليه — ظفر ببعض منها يقلببها العصا حية،ويفلق البحر ،وليس الجواب عن ذلك الا ما قلناه من أن ذلك — لو كان — شبهة لا يمكن حلها ، ويجب على القديم تعالى المنع منها . فكذلك جواب هذا السؤال، اذا سألنا عنه . وهذا الكلام أيضا مما تقدم بيانه فى كتابنا هذا .

الباب الثاني

ذكر جملة من المعجزات التي وردت بها الأحاديث

من المشهور الظاهر(١) • ما روى عن النبى — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — أنه قال لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » وهذا جرى مخبره بعد نحو من ثلاثين سنة على ما أخبر به — صلى الله عليه — وهذا الحديث معلوم صحته ، لا اشكال فيه ولا لبس عند أهل النقل • وذلك لما اشتهر من تفاوض أصحاب معاوية — لعنه الله — فيه ، واضطراب معاوية فى تأويله ، فمرة يقول : أنحن قتلناه ؟ انما قتله من جاء به يعنى عليا — عليه السلام — حتى قال على — عليه السلام — حين بلغه ذلك : فعلى هذا يجب بأن يكون النبى — صلى الله عليه وآله — قتل حمزة بن عبد المطلب حين حمله الى أحد ، ومرة يقول(٢) : نحن البغاة ، لأنا نبغى دم عثمان •

فلولا أن الحديث كان مشهورا ، فيما بينهم ، قد عرفوه ضرورة بالشهرة والاستفاضة ، وبكثرة من سمعه من النبى — صلى الله عليه وآله — لأنكره معاوية ، ولم يشتغل بتلك التأويلات البعيدة •

وقد روى أهل النقل أن ذا الكلاع كان يفاوض معاوية — لعنه(٣)

---

(١) سيتحدث المؤلف عن اثبات نبوة النبى صلى الله عليه وسلم بالمعجزات الحسية ، وقد رأى بعض علماء المسلمين أن المعجزات الحسية ممنوعة عن النبى صلى الله عليه وسلم بنص القرآن الكريم : **« أو لم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم »** (العنكبوت : ٥١) وما شابه ذلك •

(٢) أى معاوية هو الذى يقول •

(٣) يكتب المؤلف عبارة : « لعنه الله » بجوار اسم معاوية رضى الله عنه • وما يصح له ذلك ، بل يصح له أن يترحم عليه مثلنا ، فان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم قدم صدق عند ربهم ، وأمرهم موكول الى الله عز وجل وعلينا أن نثنى عليهم ونترحم لأنهم هم الذين نشروا الاسلام وحملوه الى الناس فى كل مكان • والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » •

الله — فى هذا الحديث ويضطرب فى قتل عمار ، فكان معاوية يلبس عليه، ويقول له : ما يقتل عمارا غير أهل العراق ، فانا نقتله عن رأيه ونستدعيه الينا ، وسيقتل فى جملة عسكرنا الى أن قتل ذو الكلاع فى جملة أصحاب معاوية وعمار رضى الله عنه فى جملة أصحاب علي — صلوات الله عليه — فى يوم واحد ، فكان معاوية — لعنه الله — يقول : انا بقتل ذى الكلاع أسر منى بقتل عمار فانه لو بقى بعد عمار أفسد على عسكرى ، فكل ذلك يدل على أن الحديث كان معلوما عندهم •

وأيضا : ان الزبير اضطرب يوم الجمل حين بلغه أن عمارا — رضى الله عنه — فى عسكر على — عليه السلام — وجعل يروح عن نفسه بمنعه ما بلغه التصديق الى أن أخرج عينا له ، فرجع وعرفه أنه فى جملتهم ، فقال الزبير : واقطع ظهراه ، واجدع أنفاه • ووقع عليه الأفكل ، حتى قعقع ما عليه من السلاح ، وذلك لما عرف من قول النبى — صلى الله عليه ، وعلى آله — : « تقتله الفئة الباغية » •

ومن الخبر المشهور : الذى لا يرتاب فيه أهل النقل ، وهو معلوم بينهم : ما كان من النبى — صلى الله عليه وآله — **من انذار عائشة ،** وتعريفه اياها : **ان كلاب الحوأب تنبحها فى مسراها ،** وأنها لما بلغت الحوأب ونبحتها كلابها ، سألت الجمال عن ذلك الموضع فعرفها أنه الحوأب ، فأمرت أن يناخ بعيرها ، وفزعت واضطربت حتى جاء بها أصحابها ، وحلف على ما فى الخبر نحوا من ثلاثين رجلا أن ذلك الموضع ليس بحوأب ، واشتهرت القصة فيه حتى ذكر كلاب الحوأب ، أهل اللغة فى كتبهم • وقال الخليل فى كتاب (العين) : « الحوأب موضع حيث نبحت الكلاب عائشة » وقال ثعلب فى كتاب (الفصيح) : «وهى كلاب الحوأب مهموز يعنى الحوأب » وقد ذكر أيضا القتيبى فى (أدب الكتاب) ولشهرة هذه القصة لا يكاد يذكر الحوأب الا ويذكر الكلاب التى نبحت عائشة •

ومن الخبر المشهور قوله — صلى الله عليه وآله — لعلى : « انك تقاتل بعدى الناكثين والقاسطين والمارقين » يعنى بالناكثين : أصحاب الجمل والقاسطين أهل الشام ، والمارقين : أهل النهروان ، فكان كل ذلك على ما أخبر صلى الله عليه وآله •

ومن المشـــهور قوله ـــ صـــلى الله عليه ـــ لعلى : « أشـــقى **الأولين عاقر الناقة ، وأشقى الآخرين قاتلك ، يخضب هذه من هـــذه »** وأشار ـــ صلى الله عليه ـــ الى لحيته ورأسه • فكان ذلك على ما أخبر به صلى الله عليه •

ومن المشهور المستفيض : حديث ذى الثدية ، وهو آن عليا ـــ عليه السلام ـــ لمـــا قتل أهل النهروان قال : اطلبوا ذا الثدية ، فطلب ، فلم يوجد ، فقال على ـــ عليه السلام ـــ : « والله ما كذبت ، ولا كذبت ، فاطلبوا » وما زالوا يطلبونه حتى وجدوه ، فاذا هو رجل محدج اليد اذا مددتها امتدت ، واذا أرسلتها انقبضت ، فى رأسها حلمة كحلمه ثدى المرأة • فسر أمير المؤمنين ـــ عليه السلام ـــ وسر الناس ، ولا يجوز أن يكون على ـــ عليه السلام ـــ عرفه الا بخبر رسول الله ـــ صلى الله عليه وعلى آله ـــ •

على آن فى أكثر الأخبار أن عليا ـــ عليه السلام ـــ قال : «ان رسول الله ـــ صلى الله عليه ـــ أخبرنى أن فيهم رجلا يده كهيئة الثدى » •

ومن المشهور المستفيض الذى لا يرتاب فيه أهل النقل ، وأصحاب السير والتواريخ ولاشتهارها يعرفها كثير من العامة : قصة كسرى ، وهو أن رسول الله ـــ صلى الله عليه وعلى آله ـــ كتب اليه كتابا يدعوه الى شـــهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمـــدا رسول الله ، فلمـــا ورد عليه الكتـــاب مزقه ، فلمـــا بلغ رســـول الله ـــ صـــلى الله عليه ـــ الخبر ، قال : **« مزق ملكه »** فكان كما قال صلى الله عليه وسلم ، ثم غضب كسرى ، وكتب الى صـــاحبه : **باذان** ، وكان على اليمن ، يأمره باشخاص رسول الله ـــ صلى الله عليه وعلى آله ـــ فبعث **(باذان)** رسولين اليه ـــ صلى الله عيه وآله ـــ يعرفانه بالصورة ، ويقولان له: أجب شاهنشاه الملوك : كسرى • فانك ان فعلت ذلك كتب لك الملك باذان اليه ، ليحسن اليك ، وان أبيت فهو من تعلم ـــ يعنيان كسرى ـــ يهلكك ويهلك قومك ، ويخرب ديارك • فقال لهمـــا رسول الله ـــ صلى الله عليه وعلى آله ـــ : « انصرفا وعودا الى غدا » فأتاه ـــ صلى الله عليه ـــ الوحى بأن كسرى وثب عليه ابنه : شيرويه ، وقتله فى ساعة كذا ، من ليلة كذا ،

من شـــهر كذا ، فلمـــا دخـــلا عليه ــ صلى الله عليه ــ **عرفهما ما نزل الوحى به من وثوب شيرويه على أبيه كسرى** ، وقتله له ، فاستعظما ذلك وعادا الى باذان ، فقصا عليه القصص ، فقال باذان : ما هذا كلام ملك ، بل هو كلام نبى مرسل ، لكنا ننتظر ، فان ورد الخبر بما قال فهو نبى مرسل ، لا شك فيه ، وان يكن غير ذلك نرى فيه رأينا ، فورد عليه كتاب شيرويه بذلك فأسلم باذان ، ومن معه من الفرس •

ولست أقول : ان هذا التفصيل مشهور عند كثير من العامة والخاصة ، وانما أقول : ان قدر المعجز منه مشهور ، وهو ورود الرسل على رسول الله ــ صلى الله عليه وعلى آله ــ بالتهديد ، وتعريفه ــ صلى الله عليه وآله ــ اياهم : أن كسرى قد قتل •

فأما أهل النقل فهم يعرفون القصة بشرحها وطولها • وقد حذفنا ما لم نحتج اليه منها •

ومن ذلك قصة العباس بن عبد المطلب حين أسر يوم بدر ، فلمـــا جاء الى المدينة قال له ــ صلى الله عليه ــ : « افد نفســـك • وابنى أخويك عقيل بن أبى طالب ، ونوفل بن الحارث » قال : ليس لى مال • قال : « فأين المـــال الذى وضعته بمكة ، حين خرجت أم الفضل ، ليس معكما أحد ، ثم قلت لها : ان أصبت فى سفرى هذا ، فللفضل كذا ، ولعبد الله كذا ، ولقثم كذا ، ولعبيد الله كذا » فقال العباس : والذى بعثك بالحق ما علم هذا غيرى وغيرها ، وانى لأعلم أنك رسول الله ــ صلى الله عليك ــ ففدى العباس نفسه ، وابنى أخويه ، وهذه قصة مشهورة ظاهرة عند أهل النقل •

ومن ذلك قصة عمير بن وهب الجمحى فى سبب اسلامه ، وهى أنه وصفوان بن أمية الجمحى قعدا فى الحجر يتذاكران قتلى بدر ، ويتوجعان لهم ، ويقول صفوان : لا خير فى العيش بعدهم ، فقال عمير : لولا دين على ، وما أخشى من ضيعة عيالى بعدى • كتبت الى محمد بعلة أسير لى فى أيديهم ، وقتلته • فقال له صفوان : فعلى دينك • وعيالك أسوة بعيالى ، فتكاتما ذلك ، وخرج عمير حتى قدم المدينة ، ودخل على رسول

الله ـــ صلى الله عليه وعلى آله ـــ متوشحا بسيفه ، **فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلبسه** ، فلما رآه رسول الله ـــ صلى الله عليه ـــ قال : « أرسله يا عمر ، ادن يا عمير . ما حاجتك ؟ » قال : جئت للأسير الذى فى أيديكم ، فقال ـــ صلى الله عليه وعلى آله ـــ « أصدقنى ما الذى جئت له ؟ » قال : ما جئت الا لذلك . فقال له صلى الله عليه وعلى آله : « بل قعدت أنت وصفوان فى الحجر » وقص عليه ما كان جرى منهما . وقال له : « جئت لتقتلنى والله حائل بينى وبينك » فقال عمير : أشهد أنك رسول الله . هذا أمر ما حضره غيرى وغير صفوان وما أخبرك به الا الله عز وجل ، فأسلم ، وشهد شهادة الحق ، وحسن اسلامه .

ومن المشهور : أن ناقة ضلت لرسول الله ـــ صلى الله عليه وعلى آله ـــ فى بعض غزواته ، فطلبوها ، فلم يجدوا فتكلم أهل النفاق ، وقالوا انه يخبرنا أخبار السماء ، **ولا يدرى أين ناقته ؟** فأتاه ـــ صلى الله عليه ـــ الوحى بموضعها وحالها ، فقال للناس : انى لا أعلم الا ما علمنى الله ، وأن الناقة فى موضع بعينه ـــ ذكره ـــ قد تعلق زمامها بشجرة بعينها فمضوا وطلبوا فوجدوها كما أخبر به صلى الله عليه وعلى آله .

ومنها أن رسول الله ـــ صلى الله عليه وعلى آله ـــ أخذ حفنة من الحصا ، فاستقبل بها قريشا ، ثم قال : « شاهت الوجوه ، ثم نفحهم بها » فكانت الهزيمة ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك : **« وما رميت اذ رميت ، ولكن الله رمى »(*)** ولا يجوز أن يخاطب الله عز وجل فى كتابه ـــ صلى الله عليه ـــ الا وذلك الرمى مشهور حاله عندهم ، لأن أحواله ـــ صلى الله عليه وآله ـــ فى تلك الحملة كانت معلومة لأصحابه ظاهرة فيهم لاخفاء به عندهم .

ومن ذلك نعيه النجاشى وهو ـــ صلى الله عليه ـــ بالمدينة وصلاته عليه ، ثم ورد الخبر بموته فى اليوم الذى كان نعاه . ولشهرته جعل كثير من الفقهاء تكبيره ـــ صلى الله عليه وعلى آله ـــ أصلا فى الصلاة على الجنائز .

(*) الأنفال : ١٧

ومن ذلك حديث المسرى • فان رســول الله ــ صلى الله عليه ــ لمــا أسرى به الى بيت المقــدس ، وعاد الى مكة فى ليلة واحــدة حدث أصحابه بما شاهد فى طريقه ، فســئل عن عير كانت لقريش فى الطريق ، فقال : « لقيتها بمكان كذا ، ومررت عليهــا ، ففزع فلان » فقيل له : يا فلان ما رأيت ؟ فقال : ما رأيت شيئا ، الا أن الابل نفرت ، وقالوا له : أخبرنا متى تأتينا ؟ قال : « تأتيكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل أورق عليه غرارتان ، احداهما : سوداء • والأخرى : بيضاء » قالوا : أى ساعة ؟ قال : « ما أدرى أطلوع الشمس من هاهنا أسرع ، أو طلوع العير من هاهنا ؟ » قال : فلما كان ذلك اليوم بعثوا رجلا من هاهنا ، ورجلا من هاهنا • فقال رجل : هذه الشمس قد طلعت ، وقال الآخر : هــذه عيركم قد طلعت • وقال أيضا ــ صلى الله عليه ــ « مررت بالعير فوجدت أربابها نياما ، ولهم اناء فيه ماء ، وقد غطوا عليه فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ، ثم رددت الغطاء كما كان » • وان القوم لمــا وردوا سئلوا عن الاناء وحاله ، فكان الأمر على ما قال ــ صلى الله عليه وآله ــ وفى الحديث : « ان المشركين لمــا سمعوا ذلك أنكروه ، وحكوا ذلك لأبى بكر فقال : « ان كان قال ذلك ، فقد صدق » فسمى « صديقا » • وقال له المشركون : صف لنا بيت المقدس • فوصفه ــ صلى الله عليه وآله ــ لهم • وقال : « جعل المسجد بحذائى ، حتى وصفته » وهذه قصــة مشهورة ، ولشهرتها ذكرها الله عز وجــل فى كتابه(٤) •

ومن ذلك • حديث الشاة المسمومة التى قدمتها امرأة يهودية الى رســول الله ــ صلى الله عليه وعلى آله ــ وهو بخيبر ، فلمــا أكل منها لقمة أو لقمتين ، وأكل منها من هناك من أصحابه ، قال : « انها تخبرنى أنها مسمومة » وقال لها : « لم فعلت ذلك ؟ » قالت : « أردت ان كنت كاذبا ان يستريح الناس منك وان كنت نبيا لم يضرك » وهــذه قصة مشهورة حتى تكلم المتكلمون فى كيفية خبر الشاة • وأن ذلك يكون كلامها ، أو كلاما يخلقه الله تعالى فيها • ومن يكون متكلما به ؟

---

(٤) لم يذكر الا قوله تعالى : **« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، الذى باركنا حوله ، لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير »** (أول الاسراء) •

وروى عن النبى — صلى الله عليه — أنه قال عند وفاته : « ما زالت أكلة خيبر تعاودنى ، فالآن قطع أبهرى » وكل ذلك يبين اشتهارته ، واستفاضته .

ومن ذلك حديث الاستسقاء ، وهو أن رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله — شكى اليه الجدب وهلاك المواشى ، لانقطاع الأمطار فرفع رسول الله — صلى الله عليه — يده الى السماء ، وجعل يدعو الله عز وجل وما فى السماء سحابة ، فلم يرد رسول الله — صلى الله عليه — يده الى نحره وصدره ، حتى ابتدأت السحائب ترتفع وتجتمع وأرخت عزاليها ، ثم جاءوا الى رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله — يقولون : الغرق . الغرق . تهدمت البيوت . فقال صلى الله عليه : « حوالينا ، ولا علينا . اللهم على الظهران والجبال ، وبطون الأودية » فانجاب السحاب عن المدينة ، وصار حولها كالاكليل ، ومطروا بعد ذلك مدة طويلة ، وقد اختلفوا فى مقدار تلك المدة . فقال — صلى الله عليه — : « لله در أبى طالب ، لو كان حيا لقرت عيناه . من ينشدنا قوله ؟ » فقام على — عليه السلام — فقال يا رسول الله . كأنك أردت :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى ، عصمة للأرامل ؟

الى آخر الأبيات . وهذه قصة مشهورة حتى صار قوله — صلى الله عليه : — « حوالينا ولا علينا » مثلا يضرب لاشتهاره .

ومن المشهور . أنه صلى الله عليه لما احتاج أصحابه الى الماء وضع يده فى الاناء فانفجر الماء من بين أصابعه حتى توضأوا وشربوا . وقد ذكر فى مواضع عدة ، وفى أوقات مختلفة .

ومن المشهور . حنين الجذع . وذلك أن رسول الله — صلى الله عليه — كان اذا خطب فى المسجد خطب الى جذع فيه ، فلما عمل له المنبر ، وقام عليه حن الجذع حنين الناقة ، فأتاه رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله — فاحتضنه ومسحه بيده ، حتى سكن .

ومن ذلك ما كان من رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله — حين نزل بالحديبية . فقيل له: ليس بالوادى ماينزل عليه الناس . فأخرج

سهما من كنانته ، فأعطاه رجلا من أصحابه ، فنزل فى قليب هنـاك ، فغرزه فيه ، فجاش المـاء حتى أخذ الناس حاجتهم ، وصدروا عنه ٠

وروى أن رسول الله ــ صلى الله عليه وعلى آله ــ بصق فيها ، ولشهرة ذلك بصق مسيلمه الكذاب فى بئر فيه وتبل ٠ فغار ماؤها ، وجف قرارها ٠

ومن المشـهور تعريفه ــ صلى الله عليه ــ أويس القـرنى ، وأنه به برص ، دعا له الله فبرىء منه الا قدر الدرهم الى غير ذلك من أحواله ، حتى ذكره عمر ، وسأل عنه وطلبه حتى ظفر به ٠

ومن ذلك أن الطعام أعوز أصحابه ــ صلى الله عليه وعلى آله ــ فى غزوة تبوك ، وضاق عليهم فشكوا ذلك الى رسول الله ــ صلى الله عليه ــ فقال : من كان عنده فضل طعام فليأتنا به ٠ فأتى بنيف وعشرين صاعا ، فجلس رسول الله ــ صلى الله عليه ــ ودعا بالبركة ، ثم دعا الناس ٠ فقال : خذوا فأخذوا حتى اكتفوا وصدروا ، وفضلت فضلة ، وهذه الآية ــ أعنى تكثير القليل من الطعـام ، واشباع الكثير منه ــ قد تكررت فى مواضع واشتهر منها بمكة فى أول البعثة لمـا نزل قوله عز وجل : « وأنذر عشيرتك الأقربين »(٥) دعا صلى الله عليه رهطا من عشيرته ، فقدم اليهم يسيرا من الطعام ، فأكلوا منه وشبعوا ٠

ومنها خبر دعائه صلى الله عليه جابرا الى الطعام ــ وكان أعد له يسيرا ــ فدعا ــ صلى الله عليه وعلى آله ــ عددا كثيرا من أصحابه ، حتى أكلوا وشبعوا ٠

ومنها ، حديث عبد الرحمن بن أبى بكر ، قال : كنا مع رسول الله ــ صلى الله عليه ــ ثلاثين ومائة فقال ــ صلى الله عليه وعلى أهله ــ : « هل مع أحد منكم طعام ؟ » فاذا مع رجل صاع واحد ، فأطعم الجميع منه الى أن شبعوا وفضل ٠

ومن ذلك حديث جابر أن رسول الله ــ صلى الله عليه ــ أعطى رجلا وسق شعير ، فما زال الرجل يأكل منه وامرأته ، حتى كالوه ، فقال

---

(٥) الشعراء : ٢١٤

لهم صلى الله عليه : «لو لم تكيلوه لأكلتم منه ، وأقام لكم » وغير ذلك فيما يكثر عدده •

ومن المستفيض • أن جابر بن عبد الله الأنصارى أتى محمـدا ابن على بن الحسين — عليهم السلام — وهو فى الكتاب فقبله ، وقال له : ان رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله — أمرنى أن أقرئك السلام •

ومن ذلك أنه صلى الله عليه نعى جعفر بن أبى طالب ، وهو على بعد منه •

ومن ذلك مجىء الشجرة فانه تكرر فى مواضع منها مكة والمدينة ، حتى أقبلت اليه تشق الأرض شقا • ومرتين فى الصحراء ، حين أراد قضاء الحاجة اجتمعت له — صلى الله عليه — شجرتان • فاستتر بهما ، وقضى الحاجة ، ثم افترقا وعادا الى مكانهما ، ودعا — صلى الله عليه — غصنا من شجر فأتاه ، حتى رأى ذلك من كان طلب الآية • ثم عاد الى مكانه •

ومن ذلك انشقاق القمر • وقد رواه عدة من أصحابه • وان كان الأشهر رواية عبد الله بن مسعود ، فقد قال : انى رأيته فلقتين • وروى أنس : « أن أهل مكة سألوا رسول الله — صلى الله عليه — آية » فأراهم انشقاق القمر ، وكان يحدث به فى تفسير قوله عز وجل : « **وانشق القمر** » وعن عبد الله بن مسعود ، قال : انشق القمر بمكة • فقالت قريش : هذا سحر سحركم به • فقـال بعضهم : انظروا الى السفار ، فسألوهم فقالوا : قد رأينا القمر انشق »(٦) •

وروى ذلك عن حذيفة وابن عباس وجبير بن مطعم ، ويدل على صحته : أن النبى — صلى الله عليه — تلا عليهـم قوله عـز وجل : « **اقتربت الساعة وانشق القمر ، وان يروا آية يعرضوا ، ويقولوا : سحر مستمر** »(٧) ولو لم يكن ذلك ظاهرا بينهم لأنكروا ذلك ، وكذبوا قوله صلى الله عليه ولقالوا : لم ينشق القمر ، ولم يحوجوا الى أن

---

(٦) انظر تفسير القرطبى أول سورة القمر وقد راجعنا عليه •

(٧) القمر : ١ ، ٢

يقولوا : انه سحر مستمر فوضح بذلك أنهم كانوا شاهدوا ذلك وعرفوه .
ولا وجه لتأويل من يتأوله على أنه بمعنى ينشق يوم القيامة لوجوه منها : أنهم لا يقولون فى الآيات يوم القيامة انها سحر ، لأنهم يعرفون تلك الأحوال ضرورة .

فان قيل : لا نسلم لكم يوم القيامة ولا كون الآيات فيها ، فكيف نسلم أنها تعلم ضرورة ؟

قيل له : لسنا نحتاج الى تسليمكم صحة ذلك لأن ذلك معلوم من دين النبى صلى الله عليه — وأديان سائر الأنبياء — صلوات الله عليهم — ولا يجوز أن يخبر النبى — صلى الله عليه — بخبر يعلم خلافه من دينه ضرورة .

ومنها : انه ليس فى القرآن . ولا فى شىء من الأخبار الصحيحة ان القمر ينشق يوم القيـامة ، وانما فى القرآن : **« وخسف القمـر وجمع الشمس والقمر »** . ومنها : أن ظاهر الآية خبر عن المـاضى فلو لم يكن ذلك معلوما عند الكفار لراجعوه فيه حتى يعرفهم — صلى الله عليه — مراده ، ولمـا لم يجز ذلك ثبت صحة ما قلناه ، ولا وجه أيضا لتأويل من يتأول فيه فيقول : **ان المراد به ضرب المثل لوضوح الأمر . كما يقـال : هذا أمر قـد طلع فجـره ، وأشرقت شمسه ؛** لأن ضرب المثل بطلوع الفجر واشراق الشمس يصح ، لأن طلوع الفجر واشراق الشمس يزيدان فى الضوء ، ولو انشق القمر لم يجب أن يتزايد الضوء بل يكون ذلك الى تناقصه أقرب . فكيف يصح ضرب المثل به لوضوح الأمر ؟

ولا معنى لقول من يقول : أن ذلك لو كان لم يخف على أهل الشرق والغرب ، لأنه لا يمتنع أن يعلم ثقة : أن الأصلح اظهاره لقوم بعينهم دون سائر الخلق ، فيخفيه على سائر الخلق بالغمام ، فى بعض المواضع ، وبالشغل أو النوم لآخرين .

ومن المشهور قوله — صلى الله عليه — لسراقة بن جعشم ، وقد نظـر الى ذراعيه : « كأنى بك ، وقـد لبست سـوارى كسرى » وكان سراقة أشعر الذراعين دقيقهما ، ولمـا كان ما كان فى زمان عمر ابن الخطاب ، وفتحت خزائن كسرى حمل المـال ، فوضع فى المسجد فرأى عمر منظرا لم ير مثله ، والذهب والياقوت والزبرجد واللؤلؤ

يتلألأ • فقال : أين سراقة بن جعشم ؟ فأتى به • فقال : البسهما • ففعل • فقال : الله أكبر ، الحمد لله الذى سلبهما كسرى ، وألبسهما سراقة بن جعشـــم ، فكان ذلك آية ظاهرة لرسول الله ـــ صلى الله عليه ـــ •

ومن المشهور • ما روى عن أمير المؤمنين ـــ عليه السلام ـــ أنه قال : لمـــا غسلت رسول الله ـــ صلى الله عليه وعلى آله ـــ ما أردت عضوا أغسله الا قلب لى حتى أغسله • ولقد رأيت يد غيرى عليه ، وسمعت مناديا ينادى فى جانب البيت : « لا تخلعوا القميص » ولقد رأيت أن أكبه فنوديت : « ألا تكبه » •

وروى أنه لمـــا توفى رسول الله ـــ صلى الله عليه ـــ جاءهم آت ، يسمعون حسه ، ولا يرون شخصه ، فقال : **« السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته « كل نفس ذائقة الموت ، وانمـــا توفون أجوركم يوم القيامة »(٨) ان فى الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفا من كل هالك »** •

فهذه أخبار مشهورة ظاهرة ، ولم نتتبع من معجزاته ـــ صلى الله عليه ـــ التى رواها الواحد والاثنان • فان ذلك يكثر ويبلغ نحو ألف معجـــز •

فان قيل : فمـــا تقولون فى هذه الأخبـــار التى رويتموها ؟ هل تقولون : انها توجب العلم على التفاصيل ؟

قيل له : فى جملة هذه الأخبار : أخبار توجب العلم لمن عنى بسماعها والبحث عنهـــا ، وفيهـــا ما يوجب اجتماعها : العـــلم على الجملة : بأنه ـــ صلى الله عليه وعلى آله ـــ كان يظهر عليه آيات ناقضة للعادة ، ولا يمتنع أن تكون أخبار الآحاد اذا وردت تتضمن أمرا من الأمور أن يقع العلم بذلك الأمر على الجملة • ألا ترى أن عامة ما يروى عن على ـــ عليه السلام ـــ من مسائل الفقه طريقها الآحاد ، ثم يحصل العلم الضرورى بأنه كان فقيهـــا • وكذلك حال عبد الله بن مسعود ، وابن عباس وغيرهما من فقهاء الصحابة ، وكذلك كل موقف لعلى ـــ عليه السلام ـــ فى الحروب لا يكاد يثبت الا من طريق الآحاد ، ثم يجعل الضرورى أنه كان شجاعا • وكذلك حال الزبير ، وأبى دجانة ، وغيرهما

---

(٨) آل عمران : ١٨٥

من الشجعان من الصحابه وغيرهم • وهذه الطريقة هى التى اعتمدها أصحابنا فى اثبات اجماع الصحابة على القول بالقياس وخبر الواحد[٩] • وبمثل هذه الطريقة يعلم جود الأجواد ، وبخل البخلاء ، وسير الملوك فى العدل والظلم ، فيجب على ما بيناه أن تكون هذه الأخبار الواردة فى معجزات نبينا — صلى الله عليه — وان لم يكن كل واحد منها واردا موردا يوجب العلم بجملتها ، موجبة للعلم بأنه صلى الله عليه وعلى آله ، كانت تظهر عليه آيات ناقضة للعادة •

فان قيل : ان هذه الأخبار لم ينقلها الا من كان مصدقا به — صلى الله عليه وعلى آله — وهذا يمنع الاعتماد عليها •

قيل له : الاعتبار فى ايجاب الأخبار للعلم لا يرجع الى أحوالهم فى باب الديانات ، وانما يرجع الى أحوالهم فى الكثرة ، وكونهم عالمين صرفة بما يخبروا به ، أو استحالة التواطؤ منهم على وضع ما يخبرون به ، فوجب بذلك سقوط هذا السؤال •

على أن هذا السائل لا يخلو من أن يكون من غثاء الملحدة ، أو من أهل الكتاب • فان كان من أهل الكتاب ، فقد علم الكل منهم أنه لم ينقل معجزات أحد من الأنبياء — صلوات الله عليهم — الا من كان مصدقا بهم ، ولم يوجب ذلك طعنا فى معجزاتهم ، أو فى نقلهم ، فوجب أن يكون ذلك حال نقل معجزات نبينا صلى الله عليه وعلى آله •

وليس يؤثر فيه قول اليهود : ان معجزات موسى — صلى الله عليه — قد نقلها النصارى والمسلمون • وقول النصارى : ان معجزات عيسى — صلى الله عليه — قد نقلها المسلمون ، لأن ذلك لا يخرجها من أن يكون نقلها من جهة المصدقين بها — صلى الله عليهما — ألا ترى أن ملحدة الفلاسفة والمجوس لا ينقلون شيئا من ذلك ولا يصدقون به •

فان قيل : فان المخالفين لليهود فى التهود ، قد نقلوا معجزات موسى — صلى الله عليه — وكذلك المخالفون للنصارى فى التنصر ، قد نقلوا معجزات المسيح ، وليس للمسلمين من يخالفهم فى الاسلام ، وينقل مع ذلك معجزات محمد — صلى الله عليه وعلى آله — •

---

(٩) ابن حزم رحمه الله تعالى لا يعتمد القياس أصلا من مصادر التشريع الاسلامى (انظر : النبذة الكافية فى أصول أحكام الدين لابن حزم ، والاحكام بأصول الأحكام لابن حزم) •

قيل له : فليخبرنا اليهود ، هل نقل معجزات موسى — عليه السلام — قبل مبعث المسيح — عليه السلام — غير اليهود ؟ ولتخبرنا النصارى : هل نقل معجزات المسيح ، قبل مبعث النبى — صلى الله عليه وعلى آله — غير النصارى ؟ فلا بد لهم من أن يقولوا : لم ينقل ذلك غير من ذكرتم . قيل له : فهل قدح ذلك فى نقل معجزات موسى — صلى الله عليه — أو معجزات المسيح — عليه السلام — فى تلك الأزمنة ، فلا بد لهم من أن يقولوا : لم يقدح ذلك فى نقل تلك المعجزات .

قيل لهم : فكذلك حال نقل المسلمين معجزات النبى — صلى الله عليه وعلى آله — فى أنه لا يقدح فيها أن غيرهم لا ينقلها .

على أنا نقول لليهود والنصارى : نحن لا ننقل شيئا من معجزات موسى وعيسى — عليهما السلام — الا من جهة القرآن ، واخبار النبى — صلى الله عليه وعلى آله — بها . فلو لم تثبت نبوة نبينا — صلى الله عليه — لم يثبت عندنا شىء من معجزات موسى وعيسى — عليهما السلام — يكشف ذلك : أن علمنا بنار ابراهيم — صلىا لله عليه — كعلمنا بفلق البحر . وان كان اليهود والنصارى ينكرون نار ابراهيم . وعلمنا بكلام المسيح فى المهد كعلمنا بابرائه الأكمه والأبرص ، واحيائه الموتى . وان كان النصارى ينكرون كلامه فى المهد . وانما أردنا بذلك أنا لم نعلم شيئا من ذلك الا من جهة القرآن وخبر الرسول — صلى الله عليه — وان كان السائل من ملحدة الفلاسفة والمجوس . قيل لهم : فأنتم أيضـا قد علمتم كثيرا من أحـوال (أرسـطاطاليس) و (أفلاطون) ومن جرى مجراهما وأخبارهم بنقل أصحابهم لها ، ولم يكن ذلك عندكم موجبا للقدح فى ذلك النقل ، وكذلك يقال للمجوس : وأنتم أيضا قد عرفتم كثيرا من أخبار (زرادشت) وأخبار ملوكهم بنقل أصحابهم لها ، ولم يقدح ذلك عندهم فى نقلهم ، فكذلك حال نقل المسلمين لمعجزات الرسول — صلى الله عليه وعلى آله — لا يوجب فيه قدحا .

والأصل فى هذا الباب : أن الأحوال التى يكون العهد بها متقادما ، لا ينقلها ، ولا يهتم بحفظ أخبارها الا من كانت له دواع قوية الى ذلك فليراع ما ذكرناه . فى أخبار الأمم كلها ، ونقلتها . وليس يجب أن يكون ذلك قادحا فى شىء من النقل . فكذلك حال المسلمين .

فان قيل : ما تنكرون على من قال لكم : ان هذه الأخبار كانت فى الأصل ضعافا ، وانما قويت فروعها بالديانات والعصبيات وتلقى الأتباع لها بالتصديق . والا فأصولها انتشرت بنفس أو ثلاثة من أصحاب المغازى كابن اسحق ونحوه .

قيل له : أما من ذهب من العلماء الى أن الاعتبار فى باب الأخبار الموجبة للعـلم ، هو تحصيل العلم الضرورى دون أوصاف الأخبـار والمخبرين . فان هذا السؤال ساقط عنهم .

فأما من راعى صفات المخبرين . فجوابه : أن يقول من أين لهذا السائل أن هذه الأخبار فى الأصل كانت ضعيفة ؟ بل المعلوم من حالها أنها كانت فى الأصل أقوى وأظهر . ولئن جاز لقائل أن يقول فى الأخبار هذا القول ، ويدعى هذه الدعوى من غير أن يقيم عليها برهانا ويكون بها أدلة لجاز أن يقال مثله فى أخبار البلدان أجمع وسير الملوك وأحوالهم كلها . وهذا يؤدى الى أن لا يثبت شيء من الأخبار ، ولا يصح أن يعلم بها شيء من الأمور المتباعدة . وهذا واضح السقوط لأنه من المعلوم من أحوال الأمم أجمع أنهم قد علموا من أحوال سلفهم من الملوك وغيرهم أمورا كثيرة من جهة الأخبار . وهذا السؤال ان صح أدى الى أن لا يصح العلم بشيء من ذلك ، وفى علمنا : أن الأمر بخلاف ذلك مما يكشف فساده .

ثم يقال له : مما يفسد دعواك هذه ، ويوضح سقوط سؤالك هذا : أنا قد علمنا أن هذه المعجزات لم تزل تنقل من أيام الصحابة الى يومنا هذا ، عصرا بعد عصر وزمانا بعد زمان . ومن المعلوم : أن هذا النقل كان ظاهرا مستفيضا قبل مولد أصحاب المغازى نحو ابن اسحق وغيره . فكيف يصح أن ينسب ذلك اليهم ؟

فان قيل : عامة هذه الأخبـار ينقلها الواحد والاثنان والثلاثة ، وما يزيد على ذلك ، ولا يمكن أن يذكر من نقلها الا نحو هذا العدد .

قيل له : لا يمتنع أن يكون الخبر مستفيضا شائعا يجب العلم به ، وان كان ما نذكر من أسماء الناقلين هذا القدر . ألا ترى أنا نعلم ضرورة أنه كان يوم بدر ، وجرى فيه ما جرى ، وظفر المسلمون على المشركين . ونعلم أيضا يوم أحد وما جرى فيه .

وكذلك سائر المغازى ، ونعلم ضرورة من دين النبى — صلى الله عليه — أن الظهر أربع والمغرب ثلاث . ولو تتبعنا أسماء من ينقل ذلك ممن لهم ذكر فى الكتب ، لم يزد على ما ذكرتم ، وهذا لا يوجب الشك فى هذه الأخبار ، فكذلك حال المعجزات .

فان قيل : ما الفرق بين هذا النقل ، وبين نقل الامامية نصوص أئمتهم ومعجزاتهم ؟

قيل له : الفرق بينهما ظاهر لا يخفى على من تأمل حال النقلين ، وذلك أن ما نقلته الامامية من ذلك لم يثبت أن أئمتهم ادعوا شيئا من ذلك ، بل الثابت عنهم : أنهم كانوا ينكرون ذلك ويتبرأون منه ، ولظهور انكارهم ذلك ما قالت الامامية : ان ذلك الانكار منهم كان على سبيل التقية ، ولم يقولوا : انه لا أصل له ، الا أن يتواقح اليوم بعض من يدعى الكلام منهم فيجحده ، ثم هم لم يدعوا أن شيئا من ذلك كان ظاهرا على الولى والعدو . وانما يدعون أمورا يلبسونها الى أنها كانت فى السر ، وبحيث لم تظهر الا للواحد والاثنين وأحوال معجزات الرسول — صلى الله عليه — بخلاف ذلك ، لأنه لا يرتاب فى أن النبى — صلى الله عليه وآله — كان يدعى ذلك . وأن ما نقل منها ، وادعى كان على رؤوس الأشهاد ، وحضور الملأ من المسلمين والمشركين ، كما نقل ذلك فى حديث الاستسقاء وتكثير الطعام وخبر الميضأة ، وما كان منه — صلى الله عليه وعلى آله — من غرز السهم فى بئر بالحديبية ونحو ذلك . فأى فرق بين النقلين أوضح وأبين مما ذكرناه ؟

فان قيل : فما الفرق بين نقلكم هذا ونقل اليهود والنصارى أنهم قتلوا المسيح وصلبوه ؟

قيل لهم : اننا لا ننكر أنهم رأوا شخصا مقتولا مصلوبا وأنهم فى هذا القدر صادقون . وانما شبه لهم فظنوا : أن المقتول هو المسيح .

واختلف أهل العلم فى كيفية التشبيه ؟ فذهب الأكثر الى أنه تعالى ألقى شبه عيسى — صلى الله عليه — على رجل من أصحابه ، فظنوا أنه عيسى . وهذا التأويل عندى سائغ .

وذهب بعض العلماء : الى أن اليهود لما لم يجدوا عيسى ، لأن الله عز وجل كان قد رفعه اليه ، أخذوا رجلا من أصحابه فألبسوه مثل ثيابه ، وستروا وجهه ، ثم قتلوه وصلبوه ، وأوهموا الباقين : أنهم قد قتلوا المسيح — صلى الله عليه — والذين فعلوا ذلك من اليهود ، كانوا عددا يسيرا من رؤسائهم . وهذا أيضا محتمل جائز . فأى الأمرين كان . فالأمر فيه مخالف لنقل المسلمين معجزات النبى — صلى الله عليه — لما بينا من كون عمومها لم يخف على المسلمين والمشركين ، وأهل الكتاب لظهورها ووقوعها على وجه من شاهدوها وعاينوها على ما ذكرناه .

فان قيل : فما الفرق بين نقلكم هذا ونقل الصوفية(١٠) معجزات بشار الراعى ، وبشر الحافى وابراهيم بن أدهم ، ومن نحا نحوهم ؟

قيل له : الفرق بينهما هو بعينه ما ذكرنا فى الفرق بين نقلنا ، ونقل الامامية ، لأنه لم يثبت أن هؤلاء الصالحين ادعوا شيئا من ذلك ، بل الأظهر أنهم كانوا ينكرون ذلك خشية الفتنة، وما جرى مجراه ، ولم يمكنهم أنهم — رحمهم الله — ينكروا ذلك ، ثم من ينقله لا ينقل أن شيئا من ذلك كان بين الجمع العظيم ، وانما يدعى أنه ظهر على سبيل الاخفاء ، أو لآخر معه . فأى اشتباه يقع بين نقل المسلمين معجزات النبى صلى الله عليه ، وبين نقل الصوفية الذى سألتم عنه ؟

وقد أشار الى هذا صاحب الكتاب الملقب بالزمرد(١١) ، بأن قال : « القوم الذين شاهدوا هذه الآيات ، لم يخلو من أن يكونوا وقفوا حوله — صلى الله عليه وعلى آله — على مقدار دائرة ضيقة تسع لنحو من

---

(١٠) هذا يدل على أن التصوف كان له قدم راسخة فى القرن الرابع الهجرى . ورسوخ قدم التصوف فى ذلك العصر يدل على أن ما أصاب الاسلام من ضعف ، وما شاب نصوص التشريع الاسلامى من شوائب التأويلات الفاسدة ، سببه هؤلاء المتصوفة . ويدل على فسادهم افتخارهم باسم التصوف ، وافتخارهم بالزهد الكسل . مع أن الدين عند الله الاسلام ، والاسلام دين عمل وجهاد .

(١١) هو ابن الراوندى ، وقد سبق أن أشار اليه المؤلف .

خمسين رجلا ، أو على مقدار دائرة عظيمة تسع الخلق العظيم • فان كانوا فى مقدار دائرة واسعة اقتضى ذلك بعدهم عما يشاهدونه • وذلك يجوز التلبيس ، وأن يكون للشك فيه مسوغ » •

وعن هذا بحمد الله أجوبة • **أحدها :** أن يقال لهذا الجاهل المزرى بعقله • أما علمت أن هذا السؤال يؤدى الى أن لا يصح أن يعلم شىء من الأحداث والكوائن التى جرت فى الدنيا من طريق الأخبار والنقل • لأنه يصح أن يقال فى كل حادثة أو كائنة : ان المحدقين بها لمشاهدتها • اما أن كانوا فى مقدار دائرة ضيقة أو واسعة ، فان كانوا فى مقدار دائرة ضيقة صح عليهم التواطؤ ، وان كانوا فى مقدار دائرة واسعة لم يمتنع أن يحل اليهم الحادث على قدر ما هو عليه ، فيلزمنا جميع ما ذكرنا أو يشك حتى لا يصح أن أحدا أقيل ولا أن أحدا ولى ، ولا أن أحدا استخلف على أمر ، ولا أن أحدا تكلم فى مسئلة ولا أن أحدا ناظر أحدا فى شىء من أمور الدين أو والدنيا • فان التزم ذلك وضح خزيه ، وبان ضلاله ، وان أجاب عنه بشىء فهو جوابنا فيما سأل عنه •

ومنها أن يقال له : ان المحدقين لا يجرون مجرى السور المبنى أو الحائط المشيد ، بل لا يمتنع أن يكون من خلفهم يطلع فيرى ما يراه الأولون ، ويعاين ما يعاينونه •

ومنها أن يقال : لا يمتنع فى كثير من هذه الآيات أن يشاهده قوم ثم يتأخرون ، ويتقدم آخرون ، فيشاهدوا ما شاهده الأولون •

ومنها أن يقال له : لا يمتنع أن يقع العلم بخبر الخمسين ، أو دون الخمسين اذا أخبروا على وجه يعلم أنهم لم يتواطؤا • **وكل ذلك يوضح سقوط ما ذكره هذا الجاهل •**

الباب الثالث

ذكر ما وجد في الكتب المتقدمة من البشارات بالنبي
صلى الله عليه وعلى آله

هذه فصول يعرفها أهل الكتاب فى كتبهم . وليسوا ينكرونها .
وقد جاريت فيها منهم من كان يرجع الى حفظ كثير وضبطها . غير أنهم يتأولونها تأويلات فاسدة .

فمن ذلك ما وجد فى التوراة . وقيل هو فى السفر[1] الأخير فى الفصل الثالث والثلاثين : **« جاء الله من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبل فاران »[2] .**

فقوله : « جاء الله من سيناء » أراد ابتعاثه موسى ــ صلى الله عليه ــ من قبل طور سيناء ، وقوله : « وأشرق من ساعير » : أراد ابتعاثه المسيح ــ صلى الله عليه ــ وساعير : الناحية التى كان فيها عيسى[3] ــ صلى الله عليه ــ وقوله : « واستعلن من جبل فاران » : أراد به ابتعاثه محمدا ــ صلى الله عليه وعلى آله ــ من جبال مكة . لأن جبال مكة تسمى فى التوراة : « جبل فاران » لا ينكر ذلك أحد ممن عرف التوراة .

---

(١) السفر الأخير هو سفر التثنية .

(٢) النص بتمامه من الكتاب المقدس طبعة بيروت سنة ١٩٧٦ م هكذا : « وهذه هى البركة ، التى بارك بها موسى رجل الله بنى اسرائيل قبل موته . فقال : جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلالأ من جبل فاران . وأتى من ربوات القدس . وعن يمينه نار شريعة لهم . فأحب الشعب . جميع قديسيه فى يدك ، وهم جالسون عند قدمك ، يتقبلون من أقوالك » (تثنية ٣٣ : ١ ــ ٣) وانظر فى تفسير هذا النص كتاب : اظهار الحق للشيخ رحمت الله الهندى .

(٣) لأن عيسى عليه السلام كان من آل هارون عليه السلام الذين اختصهم الله للرئاسة الدينية . وهو من الأنبياء والمرسلين .

وفى التوراة : أن ابراهيم — صلى الله عليه — اسكن هاجر واسماعيل — صلى الله عليه — فاران يعنى : مكة(٤) ولم يبعث أحد من الأنبياء ابتعاثا ظاهرا ، فشا أمره فى مشارق الأرض ومغاربها ، كما اقتضى قوله : « استعلن » لأن « استعلن » هو بمعنى : علن • اذا ظهر وانكشف (ولم يستعلن) غير محمد — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — فلم يبق ريب فى أنه هوالمراد بهذه اللفظة(٥) •

وفى التوراة : أن هاجر تراءى لها ملاك • وقال . « **يا هاجر • انى سأكثر ذريتك ، وزرعك حتى لا يحصوا كثرة ، وها أنت تحبلين وتلدين ابنا ، وتسمينه اسماعيل ، لأن الله عز وجل قد سمع خشوعك ، وتكون يده فوق يد الجميع ، ويد الجميع مبسوطة اليه بالخضوع** »(٦) •

وقد علمنا أن المراد بهذه : ولد اسماعيل ، وهو رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله — لأن اسماعيل نفسه لم تكن يده فوق يد اسحق ، ولا يد ولديه يعقوب — صلى الله عليه — وعيسو ، مبسوطةاليه بالخضوع ولم يكن فى ولد اسماعيل من كانت أيدى أولاد اسرائيل وعيسو وسائر الناس مبسوطة اليه ، غير رسول الله — صلى الله عليه وآله — •

انه هو الذى دانت له الملوك من آل ابراهيم — صلى الله عليه — وغيرهم ، وخشعت له رقابهم ، وخضعت له الأمم ، وصارت الامامة

---

(٤) نص التوراة : « وكان الله مع الغلام — أى اسماعيل بن هاجر — فكبر ، وسكن فى البرية ، وكان ينمو رامى قوس ، وسكن فى برية فاران ، وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر » (تكوين ٢١ : ٢٠ — ٢١) •

(٥) وأيضا ، لأن النص يذكر بركات ثلاث واحدة لموسى ، وواحدة لعلماء وأنبياء بنى اسرائيل ، وواحدة لمحمد — صلى الله عليه وسلم — الآتى من ذرية اسماعيل • واسماعيل هذا له بركة ، ففى التوراة عن بركة اسماعيل أن الله قال لابراهيم : « وأما اسماعيل • فقد سمعت لك فيه • ها أنا أباركه ، وأثمره ، وأكثره كثيرا جدا • اثنى عشر رئيسا يلد ، وأجعله أمة كبيرة » (تكوين ١٧ : ٢٠) •

(٦) النص : « وقال لها ملاك الرب : تكثيرا أكثر نسلك ، فلا يعد من الكثرة ، وقال لها ملاك الرب : ها أنت حبلى ، فتلدين ابنا ، وتدعين اسمه اسماعيل ، لأن الرب قد سمع لمذلتك ، وانه يكون انسانا وحشيا ، يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه » (تكوين ١٦ : ١٠ — ١٢) •

والملك فى أهله ، وصارت أيديهم فوق أيدى الجميع • وأيدى الجميع مبسوطة اليهم ، كما وعدت هاجر ، فوضح أنه بشارة برسول الله — صلى الله عليه وآله — •

وفى فصل من كتاب أشعياء النبى — صلى الله عليه — **« لتفرح أرض البادية العطشى ، ولتبتهج البرارى والفلوات ، ولتزه ، لأنها ستعطى بأحمد محاسن لبنان ، وكمال حسن الدساكر والرياض »**(٧)

ومن المعلوم : أن البادية لم يحصل لها ولفلواتها المحاسن الا بالاسلام والمسلمين ، فبان أنه بشارة بالنبى — صلى الله عليه وعلى آله — وان كان فى أهل الكتاب من ينكر الاسم على عادتهم فى التحريف •

وعن حبقوق النبى — صلى الله عليه — : **« جاء الله من التيمن ، والقدوس من جبال فاران ، وامتلأت الأرض من تمجيد أحمد ، وتقديسه وملك الأرض ، ورقاب الأمم »**(٨) وقد بينا أن جبال مكة تسمى فى التوراة : جبال فاران •

وقال داوود — صلى الله عليه — فى مزموره ، فى صفة النبى — صلى الله عليه — **« أنه يجوز من البحر الى البحر ، ومن لدن الأنهار الى منقطع الأنهار ، وأنه تجثو أهل الجزائر بين يديه على ركبهم ، ويلحس أعداؤه التراب • تأتيه الملوك بالقرابين تسجد له وتدين له**

---

(٧) النص من الترجمة الحديثة : « تفرح البرية والأرض اليابسة ، ويبتهج القفر ، ويزهر كالنرجس ، يزهر ازهارا ، ويبتهج ابتهاجا ، ويرنم ، يدفع اليه مجد لبنان ، بهاء كرمل وشارون ، هم يرون مجد الرب ، بهاء الهنا » (أشعياء ٣٥ : ١ — ٢) •

(٨) النص من الترجمة الحديثة : « الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبال فاران • سلاه • جلاله غطى السموات ، والأرض امتلأت من تسبيحه ، وكان لمعان كالنور • له من يده شعاع ، وهناك استتار قدرته ، قدامه ذهب الوبأ ، وعند رجليه خرجت الحمى ، وقف وقاس الأرض ، نظر فرجف الأمم ، ودكت الجبال الدهرية ، وخسفت آكام القدم ، مسالك الأزل له ••• الخ » (حبقوق ٣ : ٣ — ٦) •

الأمم بالطاعة والانقياد ، لأنه يخلص المضطهد البائس ممن هو أقوى منه ، وينقذ الضعيف الذى لا ناصر له ، ويرؤف بالضعفاء والمساكين ، وأنه يعطى من ذهب بلاد سبأ ، ويصلى عليه فى كل وقت ، ويبارك عليه فى كل يوم ، ويدوم ذكره الى الأبد ، وان اسمه لموجود قبل الشمس والأمم كلها يتبركون به ، وكلهم يحمدونه »(٩) .

وقد قيل : معناه : يسمونه محمدا .

ومن مزمور آخر لداوود — صلى الله عليه وعلى آله — :
« تقلد السيف ، فان ناموسك وشريعتك مقرونة بهيبة ، وسهامك مسنونة ، والأمم يخرون تحتك »(١٠) .

---

(٩) النص من الترجمة الحديثة للمزمور كله هكذا : « اللهم أعط أحكامك للملك وبرك لابن الملك . يدين شعبك بالعدل ومساكينك بالحق تحمل الجبال سلاما للشعب والآكام بالبر يفضى لمساكن الشعب . يخلص بنى البائسين ويسحق الظالمين . يخشونك ما دامت الشمس وقدام القمر الى دور فدور . ينزل مثل المطر على الجزاز ومثل الغيوث الذارفة على الأرض . يشرق فى أيامه الصديق وكثرة السلام الى أن يضمحل القمر . ويملك من البحر ومن النهر الى أقاصى الأرض . أمامه تجثو أهل البرية وأعداؤه يلحسون التراب . ملوك ترشيش والجزائر يرسلون تقدمة . ملوك شبا وسباء يقدمون هدية . ويسجد له كل الملوك . كل الأمم تتعبد له . لأنى ينجى الفقير المستغيث والمسكين ، اذ لا معين له . يشفق على المسكين والبائس ويخلص أنفس الفقراء من الظلم والخطف يفدى أنفسهم ويكرم دمهم فى عينية . ويعيش ويعطيه من ذهب شبا . ويصلى لأجله دائما . اليوم كله يباركه تكون حفنة بر فى الأرض فى رؤوس الجبال تتمايل مثل لبنان ثمرتها ويزهرون من المدينة مثل عشب الأرض يكون اسمه الى الدهر . قدام الشمس يمتد اسمه ويتباركون به . كل أمم الأرض يطوبونه . مبارك الرب الله اله اسرائيل الصانع العجائب وحده ومبارك اسم مجده الى الدهر ولتمتلئ الأرض كلها من مجده » (المزمور : ٧٢) .

(١٠) نص المزمور كله من الترجمة الحديثة : « فاض قلبى بكلام صالح . متكلم أنا بانشائى للملك . لسانى قلم كاتب ماهر . أنت أبرع جمالا من بنى البشر انسكبت النعمة على شفتيك لذلك باركك الله الى الأبد . تقلد سيفك على فخذك أيها الجبار جلالك وبهاءك ، وبجلالك اقتحم . اركب من أجل الحق والدعة والبر فتريك يمينك مخاوف . نبلك المسنونة فى قلب أعداء الملك شعوب تحتك يسقطون .

=

وليس فى الأنبياء بعد داوود — صلى الله عليه — من تقلد السيف ، وحارب الأمم تحته ، ومن قرنت شريعته بالهيبة غير نبينا — صلى الله عليـه — .

وأيضا فى الزبور : « **أن الله اصطفى أمته ، وأعطاه النصر ، وسدد الصالحين منهـم بالكرامة ، ويسبحونه على مضاجعهم ، ويكبرون الله بأصوات مرتفعة ، بأيديهم سيوف ذوات شفرتين ، لينتقم الله عز وجل من الأمم الذين لا يعبـدونه ، يوثقون ملوكهم بالقيـود ، وأشرافهم بالأغـلال »**(١١) .

ومن الظاهر أن هذه صفة أمة نبينا — صلى الله عليه وعلى آله — لأنه ليس فى غيرهم من الامم من يكبر الله بأصوات مرتفعة ، ومعهم سيوف ذوات شفرتين ، يقاتلون بها من لا يعبد الله .

= كرسيك يا الله الى دهر الدهور . قضيب استقامة قضيب ملكك أحببت البر وأبغضت الاثم من أجل ذلك مسحك الله الهك بدهن الابتهاج أكثر من رفقائك . كل ثيابك مر وعود وسليخة . من قصور العاج سرتك الأوتار بنات ملوك بين خطياتك جعلت الملكة عن يمينك بذهب أوفير .

اسمعى يا بنت وانظرى وأميلى أذنك وأنسى شـعبك وبيت أبيك فيشتهى الملك حسـنك لأنه هو سيدك فاسجدى له . وبنت صـور أغنى الشعوب تترضى وجهك بهدية .

كلها مجد ابنة الملك فى خدرها . منسوجة بذهب ملابسها . بملابس مطرزة تحضر الى الملك . فى أثرها عذارى صاحباتها . مقدمات اليك يحضرن بفرح وابتهاج . يدخلن الى قصر الملك . عوضا عن آبائك يكون بنوك تقيمهم رؤساء فى كل الأرض . أذكر اسـمك فى كل دور فدور . من أجل ذلك تحمـدك الشعوب الى الدهر والأبد » (المزمور : ٤٥) .

(١١) نص المزمور من الترجمة الحديثة : « هللويا . غنو للرب ترنيمة جديدة تسبيحته فى جماعة الأتقياء. ليفرح اسرائيل بخالقه . ليبتهج بنو صهيون بملكهم ليسبحوا اسمه برقص . بدف وعود ليرنموا له . لأن الرب راض عن شعبه يجمل الودعاء بالخلاص . ليبتهج الأتقيـاء بمجد ليرنموا على مضاجعهم تنويهات الله فى أفواههم وسيف ذو حدين فى يدهم . ليصنعوا نقمة فى الأمم وتأديبات فى الشعوب لأسر ملوكهم بقيود وشرفائهم بكبول من حديد ليجروا بهم الحكم المكتوب كرامة هذا لجميع أتقيائه . هللويا » . (المزمور : ١٤٩) .

وعن أشعياء النبى — صلى الله عليه — وقيل انه فى الفصل التاسع : « **لنا ابن سلطانه كتفه ، وسلطانه هو حجته** » وقيل : ان هذا فى النقل السريانى • وأما النقل العبرانى فقيل : ان فيه « **على كتفه علامة النبوة** »(١٢) وهذان التفسيران متقاربان •

ومن المعلوم المستفيض : أن نبينا — صلى الله عليه وعلى آله — كان على كتفه خاتم النبوة ، ولم ينقل أن ذلك كان لأحد من الأنبياء — صلوات الله عليهم — سواه •

وفى التوراة • وقيل انه فى السفر الخامس : قال الله عز وجل : « **انى أقيم لبنى اسرائيل نبيا من اخوتهم مثلك ، أجعل كلامى على فمه** »(١٣) •

---

(١٢) النص من الترجمة الحديثة : « لأنه يولد لنا ولد ، ونعطى ابنا ، وتكون الرياسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيبا مشيرا ••• الخ » • (أشعياء ٩ : ٦) •

(١٣) تقول التوراة : ان الله عز وجل طلب من موسى عليه السلام أن يجمع له بنو اسرائيل ناحية جبل طور سيناء ليسمعوا صوته ، وهو يتحدث معه فيخافوه ويهابوه ، ولما جمعهم حدث من هيبة الله رعد وبرق ونار ودخان فخافوا وقالوا لموسى : اذا أراد الله أن يكلمنا فليكن عن طريق النبى ونحن نسمع ونطيع • فوعدهم الله بنبى فى هذا النص : « يقيم لك الرب الهك نبيا من وسطك من اخوتك مثلى له تسمعون • حسب كل ما طلبت من الرب الهك فى حوريب يوم الاجتماع قائلا لا أعود أسمع صوت الرب الهى ولا أرى هذه النار العظيمة أيضا لئلا أموت قال لى الرب قد أحسنوا فى ما تكلموا • **أقيم لهم نبيا من وسط أخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه** فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون أن الانسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه • وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى • وان قلت فى قلبك كيف نعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب • فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبى فلا تخف منه » • (تثنية ١٨ : ١٥ — ٢٢) وهذا النبى الذى تتحدث عنه هذه النبوءة هو محمد صلى الله عليه وسلم • واليهود =

وهذا يجب أن يكون المراد به نبينا — صلى الله عليه وآله — لأن اخوة بنى اسرائيل يجب أن تكون غيرهم ، ويجب أن يكونوا أولاد اسماعيل — صلى الله عليه — وأولاد عيسو ، أو أولاد اسحق ، ولم يكن فى أولاد عيسو بن اسحق نبى ، غير أيوب — صلى الله عليه — وكان هو قبـل موسى — صلى الله عليه — فلا يصح أن يكون هو المراد(١٤) ، فيجب أن يكون المراد نبينا — صلى الله عليه — من ولد اسماعيل • يبين ذلك : أن بنى اسرائيل لم يبعث فيهم نبى مثل موسى له شريعة ظاهرة قبل المسيح ، ولا يصح أن يقال : ان المراد به هو المسيح — صلى الله عليه — لأن القائل به ، اما أن يكون يهوديا منكرا لنبوته أو نصرانيا ، لا يقول : انه كان مثل موسى — صلى الله عليه — لأن النصارى يقولون : ان المسيح ابن الله ، فلا يصح أن يكون مثل موسى — صلى الله عليه — فلم يبق الا أن يكون المراد به نبينا — صلى الله عليه وآله — على أن عيسى — صلى الله عليه — لم يكن مثـل موسى — صلى الله عليه — لأن شريعته مبنية على شريعة موسى ، وشريعة نبينا مثل شريعة موسى — صلى الله عليه — فانها لم تبن على شريعة غيره •

وعن أشعياء — صلى الله عليه — : « **قيل لى قم نظارا • فانظر ما ترى تخبر به • قلت : أرى راكبين مقبلين • أحدهما على حمار ، والآخر على جمل ، يقول أحـدهما : هوت آلهة بابل ، وتكسرت عليه**

=

يقولون : ان النبى الذى تتحدث عنه هذه النبوءة : لم يظهر بعد ، والنصارى يقولون : هو عيسى عليه السلام ، والصحيح هو محمد صلى الله عليه وسلم لأن فى التوراة أنه لن يظهر نبى من بنى اسرائيل مثل موسى • **وهذا النبى الذى تتحدث عنه النبوء هذه ، من أوصافه أن يكون مماثلا لموسى فى الحروب والعجزات والانتصار على الأعداء** (انظر التثنية ٣٤ : ١٠) •

(١٤) ذكرت التوراة : أن عيسو باع بكوريته ليعقوب ، فأصبحت بركة اسحق مقصورة على يعقوب عليه السلام وقد نصت التوراة على انتقال الملك والنبوة منه الى آل اسماعيل ، فقد قال يعقوب فى الاصحاح التاسع والأربعين من سفر التكوين : « لا يزول الملك من يهوذا ، ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب » وشيلون من بنى اسماعيل لأن لاسماعيل بركة •

أصنامها المنجورة »(١٥) فكان راكب الحمار : عيسى(١٦) — صلى الله عليه — وراكب الجمل نبينا — صلى الله عليه وآله — وآلهة بابل لم تزل تعبد من لدن ابراهيم — صلى الله عليه — الى آن بعث الله نبيه — صلى الله عليه — فعندها هوت وتكسرت ، واشتهار ركوب النبى — صلى الله عليه وعلى آله — الجمل ، كاشتهار ركوب عيسى — صلى الله عليه — الحمار •

وفى التوراة : **« اذا جاءت الأمة الآخرة ، أتباع راكب البعير ، يسبحون الله تسبيحا جديداً فى الكنائس الجدد ، فليفرح بنو اسرائيل ويسيرون الى صهيون ، ولتطمئن قلوبهم ، لأنه اصطفى منهم فى الأيام الآخرة أمة جديدة ، يسبحون الله بأصوات عالية ، بأيديهم سيوف ذات شفرتين ، فينتقمون له من الأمم الكافرة فى جميع الأقطار »**(١٧) •

وعن أشعياء النبى — صلى الله عليه — : **« هكذا يقول الرب انك ستأتى من جهة التيمن ، من بلد بعيد ، ومن أرض البادية مسرعا ، قدامك الروائع والرعارع والرياح »**(١٨) والتيمن هو ناحية الجنوب •

---

(١٥) النص من الترجمة الحديثة : « لأنه هكذا قال لى السيد : اذهب أقم الحارس ليخبر بما يرى • فرأى ركابا أزواج فرسان ، ركاب حمير • ركاب جمال • فأصغى اصغاء شديدا ثم صرخ كأسد أيها السيد أنا قائم على المرصد دائما فى النهار وأنا واقف على المحرس كل الليالى • وهو ذا ركاب من الرجال أزواج من الفرسان • فأجاب وقال سقطت سقطت بابل وجميع تماثيل آلهتها المنحوتة » • (أشعياء ٢١ : ٦ — ٩) •

(١٦) قال المؤلف بذلك لأنه مكتوب فى الأناجيل : أن عيسى عليه السلام دخل مدينة القدس على حمار •

(١٧) سبق أن ذكرنا نص المزمور التاسع والأربعين بعد المائة ، وفيه هذا النص •

(١٨) النص بتمامه من الترجمة الحديثة : « فيرفع راية للامم من بعيد ويصفر لهم من أقصى الأرض فاذا هم بالعجلة يأتون سريعا • ليس فيهم رازح ولا عاثر • لا ينعسون ولا ينامون ولا تنحل حزم أحقائهم ولا تنقطع سيور أحذيتهم • الذين سهامهم مسنونة وجميع قسيهم ممدودة حوافر خيولهم تحسب كالصوان وبكراتهم كالزوبعة • لهم زمجرة كاللبوة ويزمجرون كالشبل ويهرون ويمسكون الفريسة ويستخلصونها ولا منقذ • يهرن عليهم فى ذلك اليوم كهدير البحر • فان نظر الى الأرض فهو ذا ظلام الضيق والنور قد أظلم بسحبها » • (أشعياء ٥ : ٢٦ — ٣٠) •

وعنه من فصـــل ذكر هاجر ، وقال مخاطبا لها ولبلادها وولدها :
« مكة قومى ، وأنيرى مصباحك فقد دنا وقتك ، وكرامة الله طالعة عليك ، فقد تخلل الأرض الظلام ، وغطى على الأمم الضباب ، فالرب يشرق عليك اشراقا ، ويظهر كرامته عليك ، وتسير الامم الى نورك والملوك الى ضوء طلوعك ، ارفعى بصرك الى ما حولك وتأملى • فانهم سيجتمعون كلهم اليك ويحجونك ، ويأتيــك ولدك من بلد بعيــد ، وســترين ذلك فتبتهجين ، وتفرحين ، ويستروح قلبك ، من أجل أنه يميل اليك ذخائر البحر ، وتحج اليك عساكر الابل ، حتى تعمرك الابل المـــأبلة ، وتضيق أرضك عن القطرات التى تجتمع اليك ويساق اليك كباش مدين وتسير اليك أغنام قيـــدار ، وتخدمك رجال نبـــايوت »(١٩) • وقيـــدار هو

---

(١٩) النص بتمامه من الترجمة الحديثة : « ترنمى أيتها العاقر التى لم تلد أشيدى بالترنم أيتها التى لم تمخض لأن بنى المستوحشة أكثر من بنى ذات البعل قال الرب : أوسعى مكان خيمتك ولتبسط شقق مساكنك • لا تمسكى • أطيلى أطنابك وشددى أوتادك • لأنك تمتدين الى اليمين والى اليســـار ويرث نسلك أممـــا ويعمر مدنا خربة • لا تخافى لأنك لا تخزين ولا تخجلى لأنك لا تستحيين • فانك تنسين خزى صباك وعار ترملك لا تذكرينه بعد • لأن بعلك هو صانعك رب الجنود اسمه ووليك قدوس اسرائيل اله كل الأرض • يدعى ، لأنه كامرأة مهجورة ومحزونة الروح دعاك الرب وكزوجة الصبا اذا رذلت قال الهك • لحيظـــة تركتك وبمراحم عظيمة سأجمعك • بفيضان الغضب حجبت وجهى عنك لحظة وباحسان أبدى أرحمك قال وليك الرب • لأنه كمياه نوح هذه لى • كما حلفت أن لا تعبر بعد مياه نوح على الأرض هكذا حلفت أن لا أغضب عليك ولا أزجرك • فان الجبال تزول والآكام تتزعزع أما احسانى فلا يزول عنك وعهد ســـلامى لا يتزعزع قال راحمك الرب •

أيتهـــا الذليلة المضطربة غير المتعـــزية هانذا أبنى بالاثمد حجارتك وبالياقوت الأزرق أؤسسك وأجعل شرفك ياقوتا وأبوابك حجارة بهرمانية وكل تخومك حجارة كريمة وكل بنيك تلاميذ الرب وسلام بنيك كثيرا • بالبر تثبتين بعيدة عن الظلم فلا تخافين وعن الارتعاب فلا يدنو منك • ها انهم يجتمعون اجتماعا ليس من عندى من اجتمع عليك فاليك يســـقط • ها أنذا قد خلقت الحداد الذى ينفخ الفحم فى النار ويخرج آلة العملة وأنا خلقت المهلك ليخرب • كل آلة صورت ضدك لا تنجح وكل لسان يقوم عليك فى القضاء تحكمين عليه • هذا هو ميراث عبيد الرب وبرهم من عندى يقول الرب » • (اشعياء ٥٤ : ١ ـ ١٧) •

ابن اسماعيل — صلى الله عليه — وهو جد النبى — صلى الله عليه — ونبايوت هو آخو قيدار وأولاده شديدو القلب ٠

ومن كتاب أشعياء : « **سكان البادية والمدن وقصور آل قيدار : يسبحون ، ومن رؤوس الجبال : ينادون ، هم الذين يجعلون لله الكرامة ، وينهون تسبيحه فى البر والبحر ، يرفع علما لجميع الأمم ، فيصفر لهم من أقاصى الأرض فاذا هم سراع يأتون** »(٢٠) وقيدار بن اسماعيل هو جد النبى — صلى الله عليه وعلى آله — ونداؤهم بالتلبية من رؤوس الجبال ، وتسبيحهم لله جل وعز هو الذى ظهر من المسلمين ، والنبى — صلى الله عليه — هو صفر لمواسم — أى نادى — فأتوه مسرعين ٠

وفى الانجيل قال المسيح — صلى الله عليه — للحواريين : « **أنا ذاهب وسيأتيكم الفيرقليط(٢١) ٠ روح الحق الذى لا يتكلم من قبل نفسه ، انما هو كما يقال له ، وهو يشهد على به** »(٢٢) وفى حكاية يوحنا

---

(٢٠) هذا النص بالمعنى من النصين المذكورين سابقا نص الاصحاح الخامس من أشعياء ونص الأصحاح الرابع والخمسين من أشعياء ٠

(٢١) الفيرقليط : بكسر الفاء كلمة عبرانية معناها : أحمد — صلى الله عليه وسلم — وفى كتب النصارى يكتبونها بفتح الفاء ليكون معناها : المحامى والمؤيد والشفيع والنائب عن غيره ٠ وهكذا ٠ وهذا النص فى انجيل يوحنا فى الأصحاح الرابع عشر وما بعده ، ومكتوب بدل فيرقليط كلمة : « المعزى » بضم الميم وفتح العين وتشديد الزاى مكسورة ٠

(٢٢) هذا النص بالمعنى فى انجيل يوحنا ٠ ونص العبارات التى اقتبس منها المؤلف بالمعنى هو : « ان كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الآب — الله — فيعطيكم معزيا — فارقليط — آخر ، ليمكث معكم الى الأبد ، روح الحق الذى لا يستطيع أن يقبله ، لأنه لا يراه ولا يعرفه » (يو ١٤ : ١٥ — ١٧) « ومتى جاء المعزى ، الذى سأرسله أنا اليكم من الآب روح الحق ، الذى من عند الآب ينبثق فهو يشهد لى ، وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معى من الابتداء ، قد كلمتكم بهذا لكى لا تعثروا ، سيخرجونكم من المجامع ، بل تأتى ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله ٠ وسيفعلون هذا بكم ، لأنهم لم يعرفوا الآب ولا عرفونى ٠ لكننى قد كلمتكم بهذا ، حتى اذا جاءت الساعة تذكرون أنى أنا قلته لكم ٠ ولم أقل لكم من البداءة لأنى كنت معكم ٠ وأما الآن فأنا ماض الى الذى أرسلنى ، وليس أحد منكم يسألنى : أين تمضى ؟ لكن لأنى قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم ٠ لكنى أقول

عن المسيح — صلى الله عليه — : **« الفيرقليط لا يجيئكم ما لم أذهب ، فاذا جاء وبخ العالم على الخطية ، ولا يقول من تلقاء نفسه شيئا ، ولكن مما يسمع به يكلمكم ، ويسوسكم بالحق ، ويخبركم بالحوادث والغيوب »**(٢٣) •

وفصول كثيرة فى التوراة والزبور والانجيل •

وعن أشعياء وغيره من الأنبياء — صلوات الله عليهم أجمعين — غير ما ذكرنا • لكنا اقتصرنا على هذا القدر ، لأن فيه كفاية • وهذه الفصول يقر بها حفاظ أهل الكتاب وليسوا ينكرون منها الا اسم نبينا — صلوات الله عليه — ويتأولون النبوءات تأويلات ظاهرة الفساد •

ومن المعلوم أن النبى — صلى الله عليه وعلى آله — تلا عليهم : **« الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ، الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل »**(٢٤) وتلا حكاية عن المسيح — صلى الله عليه — : **« انى رسول الله اليكم مصدقا ، لما بين يدى من التوراة ، ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد »**(٢٥) وتلا : **« يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ، وأنتم تشهدون ؟ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ، وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ؟ »**(٢٦) وتلا : **« الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم »**(٢٧) •

=

لكم الحق انه خير لكم أن أنطلق ، لأنه ان لم أنطلق لا يأتيكم المعزى • ولكن ان ذهبت أرسله اليكم • ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية ، وعلى بر ، وعلى دينونة ، أما على خطية فلانهم لا يؤمنون بى • وأما على بر فلانى ذاهب الى أبى ، ولا ترونني أيضا ، وأما على دينونة فلان رئيس هذا العالم قد دين • ان لى أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه • بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية • ذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ، ويخبركم » (يوحنا ١٥ : ٢٦ — ٢٧ و ١٦ : ١ الخ) •

(٢٣) هذا النص فى التعليق السابق •

(٢٤) الأعراف : ١٥٧

(٢٥) الصف : ٦

(٢٦) آل عمران : ٧٠ ، ٧١

(٢٧) الأنعام : ٢٠

فلو لم تكن هذه الآيات من عنــد الله عز وجل ، ولم يكن اسمه مكتوبا فى كتبهم ، ولم يكن أحبارهم عالمين بذلك ، لم يكن — صلى الله عليه وعلى آله — يورد عليهم ذلك ، لأنه لا يزيدهم الا نفارا عنه ، وتحققا بتقوله ، حاشاه من ذلك .

فان قيل : هذا الذى حكيتم من كتب الأنبياء — صلوات الله عليهم — صحيح ، وهذه الصفات موجودة فى تلك الكتب ، الا أن الموصوف بها لم يجىء بعد بتة (٢٨) .

قيل له : أرأيتم ان جاء من تدعونه ، ثم أنكره منكر . ما يكون برهانكم عليه ؟

فان قيل : اذا جاء أتى بالمعجــزات . فمهما قالوا فى ذلك فهــو جوابنـــا .

ثم يقال لهم : اذا أتى من توجد فيه الأوصاف المذكورة فيجب أن نعلم أنه هو الذى بشرت به الأنبياء — صلوات الله عليهم — لأنه لا يجوز أن يعرفنا نبى من الأنبياء أنه يأتيكم رجل حاله كذا وصفته كذا ، فاذا أتاكم فافعلوا به كذا ، من تصديق أو تكذيب ، ثم يأتينا رجل بتلك الصفة ، ولا يكون هو مرادا بذلك الخــبر ، بل يكون المراد غيره ، والمقصود سواه . لأنه لو كان ذلك كذلك كان ضربا من التلبيس ، ويجب أن يمنع الله — عز وجل — منه . وفى هذا ابطال هذا السؤال .

فان قيل : بينوا أن تلك الأوصاف حاصلة لنبيكم — صلى الله عليه وعلى آله — .

قيل له : ما جاء فى التوراة : « جاء الله من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبل فاران » لا التباس فى أن المراد بقوله : « واستعلن من جبل فاران » هو ابتعاثه رسول الله — صلى الله عليه

---

(٢٨) هكذا يقول اليهود الى اليوم فى نبوءات التوراة عن محمــد صلى الله عليه وسلم ، ويلقبون النبى صلى الله عليه وسلم بلقب : المسيح المنتظر كما يلقبون أنبياءهم وعلماءهم وملوكهم ليوهموا النــاس أنه سيأتي من بنى اسرائيل .

وعلى آله — لأن جبال فاران . لا اشكال فى أنها جبال مكة . ولم تظهر عبادة الله عز وجل وتسبيحه وتهليله وخلع الأصنام والأنداد بمكة ظهوراً انتشر فى الآفاق ، وتحمله الركبان الا برسول الله — صلى الله عليه — كما أن ظهور ذلك بظهور سيناء لم يكن الا بموسى — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — وظهوره ساعير لم يكن الا بعيسى — صلى الله عليه — وفى ذلك ثبوت أن هذه البشارة كانت بشارة بالنبى — صلى الله عليه — لأنه لو جاز أن يقال ذلك فى موسى وعيسى — صلى الله عليهما — لجاز فى محمد — صلى الله عليه — .

وأنت اذا تأملت الأوصاف التى ذكرناها وبيناها ، وجدت جميعها فى رسول الله — صلى الله عليه — وصفا وصفا . فيتبين لك : أنه الموصوف بها . فاذا ثبت ذلك ثبت أنه المشير بها ، لأن خلاف ذلك مما لا يجوز فى حكمة الله الحكيم — عز وجل — .

الباب الرابع

ذكر ما قيل فى أمره صلى الله عليه على سبيل التأكيد

اعلم أن الفصول التى نذكرها فى هذا الباب من العلماء **من ذكر كثيرا منها على سبيل الاستدلال ، على صحة نبوته ـ صلى الله عليه وعلى آله ـ وان كان الأوضح أن ذكرها : على سـبيل التأكيد والايضاح ،** لما تقدم من الأدلة والبراهين أولا .

وان كان ما ذهب اليه أولئك العلماء ـ رحمهم الله ـ ليس ببعيد .

فمن ذلك . ما اختص به ـ صلى الله عليه وعلى آله ـ من الأحوال التى اجتمعت فيه على وجه لم يصح أنه اجتمع فى أحد ، على ما نقل ونكر . كالحكم الذى رسخ فيه ـ صلى الله عليه وعلى آله ـ فانه من مولده الى مبعثه ، والى أن اختار الله ـ جل وعز ـ له دار كرامته مع اختلاف الأحوال عليه ، وتقلب الأمور لديه ، ومباشرته ما باشره من دعاء أعدائه الى الدين مع غلظتهم عليه ، واظهارهم الجفاء له من كل وجه أمكنهم ، ووجدوا السبيل اليه لم يقع منه ما ينسب الى الحدة ، أو يعد من الخفة ، أو يجرى مجرى النزق والطيش .

ومن تتبع أخباره ـ صلى الله عليه وعلى آله ـ وأحواله : عرف ذلك وتحققه . هذا مع أن أحدا ممن ادعى الحلم ، وانتسب اليه ، لم يخل فى كثير من الأوقات مما يجرى مجرى الحدة ، والنزق . كأحنف ابن قيس ، ومعاوية ـ لعنه الله ـ وغيرهما . فقد حكى على كل ، ولكل منهم أمور منكرة من ذلك .

ثم اختص ـ صلى الله عليه ـ مع ذلك بالصبر فى مواطن الجزع ، على وجه لم يسمع بمثله لغيره فقد جرى عليه فى أول مبعثه ـ صلى الله عليه وعلى آله ـ مالا يخفى على حامل أثر ، ولا ناقد خبر ، من الأذى ما يطول ذكره . ثم جرى على عمــه حمزة بن عبد المطلب

— رحمة الله عليه — بمرأى منه ومسمع • وجرى عليه — صلى الله عليه وآله — فى نفسه يوم أحد من الكفار ما جرى • وجرى عليه من المنافقين قبل ذلك وبعده ، ما هو مشهور عند أهل الآثار • ومع ما كان يقاسيه من الضر والجوع ، ويقاسى معه أهل عنايته وهو فى أثنـاء نكد الأحوال لم ينفد صبره ساعة من حياة ، ولم يظهر لأحد ضيق صدره ، ولا جزع لشىء من ذلك •

ثم كان — صلى الله عليه وعلى آله — من الوفاء ، بحيث لم يدع عليه عدو مكاشح ، ولا منابذ مكافح خلاف ذلك لظهور الأمر فيه ، ثم انضم الى ذلك الزهد الخشن(١) ، الذى لم يرتب فيه ، فانه — صلى الله عليه وآله — ملك العرب ، وأقصى اليمن الى أقصى الحجاز ، والى عمان ، ثم توفى — صلى الله عليه وعلى آله — ولم ينقل أنه ترك عينا ولا ورقا • ولا كان بنى دارا ، ولا شق نهرا ، ، ولا استبقى عينا • واستأثر الله به ، وعليه دين ، وكفن — صلى الله عليه وعلى آله — فى ثيابه التى كان يعبد الله فيها •

وحاله فى ذلك أجمع كانت مشهورة عند أوليائه وأعدائه لم يختلف فيه اثنان ، ثم كان مع ذلك أشد الناس تواضعا • كان يأكل على الأرض ويجلس عليها ويلبس الخلق ويمشى فى الأسواق ، كواحد من العامة ، ويجالس المساكين • وروى أنه كان يقول : « انما أنا عبد آكل كما يأكل العبيد ، وأشرب كما يشرب العبيد » ثم كان مع ذلك أشجع الناس ، وأقواهم قلبا ، وأثبتهم وأشدهم جماحا ، ما فر قط ، ولا خاف ، ولا كان منه ما اتفق للشجعان من حوله ، أو قوته •

ويوم حنين • لمـا ولى أصحابه مدبرين ، ثبت هو الثبات الحسن فى نفر من عترته ، حتى رجع اليه أصحابه ، وأظفره الله على أعدائه ، ويوم أحد لمـا شاع فى أصحابه القتل الذريع ، وجرى على حمـزة — صلى الله عليه — ما جرى ، ثبت أحسن الثبات ، ولم يول القوم دبره ، ولم يقف موقفا مع قلة تجلد أصحابه وكثرة أعدائه ، الا ثبت ، ولم يعرض له فيه اضطراب ، ولا عجز ، ثم انضاف الى ذلك كرم

---

(١) زهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان زهدا اختياريا ، فان الطيبات من الرزق

عفوه ، وعظيم صفحه ، مع كثرة الأعداء عليه . فانه — صلى الله عليه وعلى آله — لم يقف من أحد ، ولا وقف مع أحد موقف المغتاظ الحنق ، بل كان يعفو ويصفح ، ثم لا يتبع ذلك منا ولا أذى ، ولا يفسده **بتنغيص أو تكدير وأظهره الله بأبى سفيان بعد تمثيله بعمه حمـزة** — عليه السلام — وبذله الوسع فى معاداته ، فلم يلقه الا بأحسن صفح وأكرم عفو ، وتجاوز عنه أحسن التجاوز ، ولمـا أظهر الاسلام أكرمه بقوله : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن » ولم يشف غيظه من أحد من أهل مكة ، مع ما كان منهم — صلى الله عليه وعلى آله — والى أصحابه من الأسباب القبيحة ، وطلبهم دمه ، ودماء أصحابه ، وتسفههم عليه وعليهم ، ولم يكافىء أحدا منهم على سوء صنيعه ، وقبيح فعاله . ولم يعاتب أحدا منهم على ما كان منه ، ولم يوافقه عليه ، وقال لمـا قام فيهم خطيبـا : « أقول كما قال أخى يوسف — صلى الله عليه — : **« لا تثريب عليكم اليوم . يغفر الله لكم »** .

ثم انضاف الى ذلك حسن العشرة ، مع القريب والبعيد ، والولى والعدو . وخفض الجناح ، ولين الجانب وبعده عن الغلظة ، والفظاظة ، كما قال الله — عز وجل — : « ولو كنت فظا غليظ القلب ، لانفضوا من حولك »(٢) .

فتأمل رحمـك الله . هذه الخلال التى خصه الله بهـا ، وأبانه بفضائلها دون الناس كافة ، فتنبه ذلك على أنه — صلى الله عليه وعلى آله — مراد لأمـر جسيم ، وخطر عظيم ، كما قال الله عـز وجل : « وانك لعلى خلق عظيم »(٣) وقال : « الله أعلم حيث يجعل رسالته »(٤)

ومن ذلك ما اشتهر وعرف من أحواله — صلى الله عليه وعلى آله — أنه لم يكن فى مولده ومنشأه وخروجه الى ناحية الشام — حين خرج — يخالط أهل الكتاب ، ولا يشـتغل بمدارسـتهم ومجالستهم ومجاراتهم . وأن قومه الذين كان نشوؤه معهم ، وبين أظهرهم لم يكونوا

---

(٢) آل عمران : ١٥٩ — (٣) القلم : ٤

(٤) الأنعام : ١٢٤

يتعاطون شيئاً من علوم أهل الكتاب ، بل لم يكونوا يعرفون شيئاً منه ، فهو ــ صلى الله عليه وعلى آله ــ لم يفارق قومه فى مقامه ، ولا ظعنه ، ولا شىء من أحواله . ثم انه ــ صلى الله عليه ــ أتى بالأقاصيص التى كانت فى كتبهم من قصة ابليس مع آدم ــ صلى الله عليه ــ وسائر أقاصيص آدم ، ومن بعــده الى قصة المسيح ــ صلى الله عليه ــ وسردها وتلاها ، على ما فى كتبهم ، ولم ينكر أهل الكتاب الا يسيرا . فكيف يجوز أن يكون عرف تلك . الا من جهة علام الغيوب ؟

وكيف يرتاب فى ذلك من علم من حاله ، أنه لم يكن يشتغل بعلوم أهل الكتاب ؟ كما يعلم أنه لم يكن يشتغل بعلوم التنجيم والهندسة والفلسفة ، وهذا مما ذكره بعض العلماء على سبيل الاستدلال به .

فأما ما ذكره على سبيل التــأكيد فمما لا مرية فيه ولا شبهة . والحمد لله . وقد نبه الله عز وجل على ذلك بقوله تعالى : « **وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك . اذن لارتاب المبطلون** »(٥) .

ومن ذلك . ســلامة القرآن مما أتى به ــ صلى الله عليه ــ من الشرائع عن التناقض والتدافع ، واستمرارها على طريقة واحدة ، وأنها لا تزداد الا تأكدا وبيانا مع الفحص والبحث وشدة التنقيب على أحواله ، وكثرة ايراد أجناس الكفار للشبه . سيما الملحدة ، فانهم لم يدعوا شيئا يجوز أن يخرج فى تعريف شبهة ، أو تخييل الا قاموا به وقعدوا وأوردوا وذكروا طمعا فى اطفاء نور الحق « **ويأبى الله الا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون** »(٦) .

وقد نبه الله جل ذكره على هذه الجملة بقوله : « **ولو كان من عند غير الله ، لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** »(٧) .

ومن ذلك . أنه صلى الله عليه كان من أول مبعثه الى أن اختار الله له دار كرامته كان على غاية قــوة اليقين وانشراح الصــــدر والتشـــدد فى الأمر الذى كان يدعو اليه ، والاســـتهانة بجميع أعدائه

---

(٥) العنكبوت : ٤٨

(٦) التوبة : ٣٢

(٧) النساء : ٨٢

والمخالفين ، لا ينى ، ولا يضعف متنه ، ولا تهن قوته ، ويخاطب قومه من السماء •

كما روى أن ذويه من قريش لما شكوه الى عمه أبى طالب ، يلتمسون منه النزول عما هو فيه من الدعاء الى الله ، وسب آلهتهم ، وتسفيه أحلامهم ، وبذلوا له الرغائب على ذلك • قال صلى الله عليه وعلى آله : « لو جعلت الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، ما تهاونت فيما أدعو اليه » ثم استمر على ذلك مع كثرة ما لقى من الأذى والتكذيب ، وفى أحوال الخوف والرهبة من الأعداء • هذا مع حصافته وثبات لبه ، واصابة رأيه •

ومن المعلوم : أن العاقل الحازم اذا عرف من نفسه أنه مخترص فى أمر يدعيه ، ومتحيل فيه ، وعلم أنه لا حقيقة لما يذكره ، ودفع مع ذلك الى موافقة أعدائه له ، وامتحانهم اياه ، وبحثهم عن أحواله ، وتنقيرهم عن أسراره ، يلين بعض اللين ، ويستعمل بعض التملق فى كثير من أوقاته ، بل عامة أحواله ، وان خشن جانبه فى وقت تجلد ، ألانه فى آخر ، وان أبدى الثبات وقوة النفس فى حالة • راوغ وداهن فى أخرى •

وأحواله — صلى الله عليه وعلى آله — جرت على خلافه • فدل ذلك على أنه كان صادقا فى قوله ، واثقا بربه ، نافذا فى بصيرته ، ماضيا على المنهاج الواضح — صلى الله عليه وعلى آله — •

ومن ذلك • أن العرب لم تزل معروفة بالأنفة ، وشدة الحمية ، مشهورة بالتكبر والتعاظم ، ولذلك قط • لم يجمعهم على الطاعة ملك منهم ، ولم يخضعوا لعظيم من عظمائهم ، ولم يدينوا لأحد منهم • خلاف سائر الأمم ، فان أمة من الأمم لم تخل من ملك منهم يصرفها ، وعظيم يدبر أمورها منها ، ولم يكن ذلك الا لأن الجل من العرب ، كانوا يعتقدون من أنفسهم أحوالا من الكبرياء ، تمنعهم عن أن ينقاد بعضهم لبعض لعزة نفوسهم ، وقوة قلوبهم ، وظهور فضائلهم النفسية • ثم دانوا لرسول الله — صلى الله عليه — بالطاعة ، وخفضوا له جناح الذلة ، وخضعوا تحت أحكامه ، وتصرفوا على قضايا أوامره ونواهيه ،

جارفين عاداتهم العادية ، ومخالفين سجاياهم القديمة . ويجنون أن يكونوا فعلوا ذلك الا لأنه — صلى الله عليه — بهرهم وقهرهم بحجته ، وقطع معاذيرهم بآياته المعجزة ، ودلالاته الواضحة . وهل يكون لنقض العادة ، الا مثل ما اتفق فى أحوالهم ، والخضوع بعد الاستكبار والانقياد بعد الاباء . ولهم الاصابة والفهم البين ، والرأى الثاقب ، والبصيرة الثـــابتة ؟

ثم رزق — صلى الله عليه وعلى آله — ما لم ينقل أن أحدا من الأنبياء — صلوات الله عليهم — رزق من الأصحاب الذين كانوا أعلاما . مثله نحو أمير المؤمنين — عليه السلام — الذى بهر بفضائله الكافة ، واجتمع فيه ما تفرق فى غيره من المناقب والمحاسن .

فان عد الفقهاء كان — عليه السلام — فقيها منعما ، وعالمـــا مقدما . وان ذكر الزهاد كان زاهدا خشنا ، قد طوى دون الدنية كشحا ، وأعرض عنها صفحا . وان ذكر القرآن كان حافظا غير مدافع ، قارئا ، بل مقرئا غير ممانع . وان ذكر الشجعان كان شجاعا بطلا يكر ولا يفر ، ويقبل ولا يدبر .

ثم من دونه من العلماء وكبار الفقهاء مثل : عبد الله بن عباس ، فى فقهه ، المتقدم فى علمه . وكان يقال فيه : انه « ربانى هذه الأمة » وعبد الله بن مسعود الفقيه الزاهد ، الذى قيل فيه : « كنف ملىء علما » وروى عنه أنه قال : ان فى أصحاب محمد — صلى الله عليه وعلى آله — من يريد الدنيا ، حتى أنزل الله عز وجل : **« منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة »**(٨) .

ثم زيد بن ثابت ، ثم معاذ بن جبل ، ثم عمر بن الخطاب الذى لم يشك فى فقهه ، وعثمان بن عفان الذى لم يرتب فى حفظ للقرآن ، ثم عبد الله بن عمر ، ثم حذيفة بن اليمان ، ثم الزهاد مثل : سلمان الفارسى ، فانه مع زهده كان معدودا من الحكماء والعلماء . وقال النبى — صلى الله عليه — : « سلمان منا أهل البيت » .

---

(٨) آل عمران : ١٥٢

ثم أبو ذر الغفارى ، الذى صعب على الزهاد اقتفاء أثره فى الزهد ، وعثمان بن مظعون ، وعمار بن ياسر ، الى سائر أصحاب الصفة •

ولو ذكرنا فضلاءهم وعلماءهم وزهادهم حتى نستوفى ذكرهم ، وشرعنا فى وصف تدقيقهم النظر فى الفرائض ، لطال الكتاب • ولأدى ذلك الى الخروج عن الغرض الذى قصدناه •

ثم انهم حازوا هذه الفضائل ، بل وحصلوا هذه المــآثر فى مدة يسيرة ، لأنه لم يكن بين مبعثه — صلى الله عليه وعلى آله — والى أن اختار الله له دار كرامته ، غير ثلاثة وعشرين سنة •

فتأمل — رحمك الله — ما ذكرت من أحوالهم ، وكيف بلغوا ما بلغوه فى هذا الأمد القصير ، لتعلم أن ذلك كان بتوفيق من الله • نبه به على نبيه المختار ، فى صدق مادعاه ، بل لا يبعد أن يقال : ان ذلك آية بينة ، ودلالة محققة •

ومن ذلك تخصيص الله — عز وجل — اياه — صلى الله عليه وعلى آله — بالذرية الزاكية ، والسلالة الطاهرة • فانه منذ مضى الحسنان صلوات الله عليهما — والى يومنا هذا ، لم تطلع الشمس الا على عدة من فضلاء نجباء من أولادهما — عليهم السلام — يرشحون للامامة ، ويؤهلون للزعامة ، فيدعى أولياؤهم وأصحابهم : انهم أفضل أهل الزمان ، ويســلم لهم أعداؤهم ومخالفوهم المنحرفون عنهم : أنهم من جملة الفضلاء • لأن الحسن — صلوات الله عليه — مضى عن الحسن بن الحسن وزيد بن الحسن وهما لم يشك فى فضلهما ومضى الحسين — صلوات الله عليه — عن على بن الحسين وهو الأوحد فى علمه وزهده وعبادته وزين العابدين وحالته مشهورة ثم مضى هو عن نجباء مثل محمد بن على الباقر العالم وزيد بن على الشهيد وقد ورد فى ذكرهمــا وفضلهما عن النبى — صلى الله عليه — ما ورد •

وعبد الله بن الحسن ، المشهور بالعقل والعلم وأخويه : ابراهيم ابن الحسن وغيره ، ثم كان بعدهم : أولاد عبد الله بن الحسن ، وهم نجوم يهتدى بهم ، مثل محمد بن عبد الله ، النفس الزكية ، وابراهيم ابن عبد الله ، وادريس بن عبد الله ، وموسى بن عبد الله • كل منهم

مشار اليه بأنواع من الفضل ، ومثل : جعفر بن محمد الصادق ، وموسى ابن جعفر ، ومحمد بن جعفر ، ويحيى وزيد والحسين بن على ابن الحسين ، صاحب الفخ •

وليس فى هؤلاء — صلوات الله عليهم — الا من ثبتت امامته ، أو صلح للامامة •

ثم بعد هؤلاء : القاسم بن ابراهيم ، وأخوه محمد بن ابراهيم ، وعلى بن موسى بن جعفر ، وأحمد بن عيسى بن زيد ، وعبد الله بن موسى ابن عبد الله ، والحسن بن يحيى بن الحسين بن زيد • وهؤلاء أيضا ليس فيهم الا من كان اماما أو صلح للامامة — صلوات الله عليهم — وعلى هذا جرت أحوال هذه العترة الزكية قرنا بعد قرن الى يومنا هذا •

فتأمل — رحمك الله — عجيب صنع الله فى هذا الباب ، وتنبيهه على عظيم محل رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله — فانك ان قسمت بنى هاشم أجمع — وأولاد الحسن والحسين بطن منهم ، وهم آل عباس ، وآل أبى طالب من ولد عقيل ، وجعفر — وضممت اليهم أولاد على — عليه السلام — من غير الحسن والحسين ، وهم أولاد محمد — صلى الله عليه وآله — يعنى ابن الحنفية(٩) — وعمر والعباس • فهذه العترة ، الذين هم ذرية النبى — صلى الله عليه — لم تجد فى الجميع من الفضلاء والنجباء ، ما تجد فى هؤلاء — عليهم السلام — واذا قارنتهم ببنى أمية بأسرها ، بل جميع آل عبد مناف ، وهم قبيلة مثل بنى هاشم فى الكثرة ، أو يكونون أكثر منهم ، ثم قايست بين جميعهم وبين ذرية الرسول — صلى الله عليه وعلى آله — فانك لا تجد فى جميعهم من الفضل ما تجد فى هؤلاء •

ثم أزيدك بيانا • قس جميع قريش — وهم قبائل عدة — وبنو هاشم — قبيلة من تلك القبائل ، وأولاد الحسن والحسين ، بطن من بنى هاشم ، بهم • فانك لا تجد فى جميع قريش ، ما تجد فى هؤلاء — صلوات الله عليهم — فليشرح صدرك : أن الله جل وعز أكرم نبيه — صلى الله عليه — بأن جعل فى ذريته من الفضل ما لم يجعله فى سائر القبائل ، مع كثرة عددها ، وقلة عدد هؤلاء ، ثم مع ذلك

---

(٩) يعنى بنى الحنفية ، والله أعلم : فى هامش المخطوطة •

قد خصوا بحشمة فى النفوس ، وثقة وهيبة فى الصدور راسخة ، يشترك فيها أعداؤهم وأولياؤهم ، لا يمكن لهم دفعها عن أنفسهم ، وذلك مما لا يجوز أن يكون اتفق الا بلطف من الله ، يلطفه لهم تعظيما ، لأمر نبيه — صلى الله عليه — وتنبيها على عظيم محله — صلى الله عليه — •

ومن ذلك ما اختصت به هذه الأمة من العلوم الجمة ، التى لم تختص بها أمة من الأمم ، فان المتكلمين منهم عبروا فى وجوه جميع المخالفين كالفلاسفة ، وفرق الثنوية من الدياصنية ، والمانوية ، وكاليهود والنصارى • وأبروا عليهم ، ونصروا الحق ، حتى لا تجد أحدا من هؤلاء اذا ناظر متكلما من المسلمين الا مجندلا مشهودا • ولا يكاد يجرى معه شوط أو شوطين الا أن يكون استعان على علمه بشىء من كلام متكلمى الاسلام •

ثم الفقهاء الذين أصلوا أصول الفقه وفروعه دققوا وأتقنوا ، وبلغوا من ذلك المبلغ الذى لا تخفى مرتبته على أحد من العلماء ، وليس لغير أهل الكتاب شىء منها • فانهم صنفان : يهود ونصارى • أما النصارى فليس لهم من الحلال والحرام ، الا اليسير الذى لا يؤبه له • فانهم يعولون فى حوادثهم على أحكام التوراة •

وأما اليهود مع كثرة التوراة ، فليس لهم من الفقه الا ما يكاد يبلغ عشر عشر ما للمسلمين •

ثم القراء من المسلمين ضبطوا أصول القراءات ، ووجوهها ضبطا لا يحكى أقله عن أحد من أهل الكتاب ، ثم النحاة منهم ضبطوا الاعراب ، وفرعوا وأصلوا ، كما ترى • وليس ذلك الى هذا الحين لشىء من الأمم • ثم تأمل نقل أصحاب الحديث وضبطهم له واختصاصهم منه بما لم يختص به أحد من الأمم •

ومن ذلك استمرار دعواه ، وظهور شريعته — صلى الله عليه — وتطبيقهم شرق الأرض وغربها ، لا تزيدهم الأيام الا قوة وبقاء ، ولا تكسبهم مر الأعوام الا هدوءا وثباتا ، بل لا يحاول تضعيف شىء منها محاول الا عاد مغلولا ، ولا غالبها مغالب الا عاد مغلوبا ،

ولا يعاديها معاد الا قصمه الله وأهلكه ، حتى يجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ٠

فتأمل — رحمك الله — بعد النطق فى الأدلة التى ذكرناها ، والآيات التى بيناها ، هذه المحاسن التى اختص بها رسول الله — صلى الله عليه — فى نفسه أولا ٠ ثم ما اختصت بها ذريته — عليهم السلام — ثانيا ، ثم ما اختص بها أصحابه ، ثم ما اختصت بها دعوته ثالثا ٠ لتعلم أنه رسول مرسل ، ونبى مبتعث — صلى الله عليه — وأى عاقل يتأمل هذه المحاسن التى ذكرنا اليسير منها من جملة الكثير ، فيخيل اليه الشيطان أنها أجمع : حصلت على سبيل الاتفاق ، مع أن مثلها لم يحصل لبشر الا خذله الله وأضله ٠ لعدوله عن طلب الرشد والهدى ، واتباعه الغى والهوى ٠ وهل يكون فى نقض العادة ، أبلغ من أن يختص بشر ، بما لم يختص به أحد قبله ، ولا بعده ؟

(تم الكتاب)

والحمد لله رب الأرباب ، العزيز الغلاب **« ربنا لا تزغ قلوبنا ، بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، انك أنت الوهاب »**(١٠) ٠

صادف الفراغ منه : غرة شهر شعبان من شهور سنة احدى وخمسين وخمسمائة ، وصلى الله على رسوله ، محمد ، وعلى آله وسلم تسليما كثيرا ٠

---

(١٠) آل عمران : ٨

محتويات الكتاب